وزارة الثقافة
المختار من التراث العربي
(٨٥)

التنبيه والإشراف

لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي
المتوفى سنة ٣٤٦هـ

القسم الأول

أعده للطبع وعلق حواشيه
قاسم وهب



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

من كتاب التنبيه والإشراف/ لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي؛ أعده وعلق حواشيه قاسم وهب. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢ج؛ ٢٠سم. - (المختار من التراث العربي؛ ٨٥).

١- ٩٥٦ م س ع   م٢- ٩١٠ م س ع م
٣- العنوان ٤- المسعودي ٥- وهب ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٣٦٦/ ٣/ ٢٠٠٠

المؤلف والكتاب

المؤلف:

هو أبو الحسن عليُّ بنُ الحُسين بنِ عليّ المسعوديّ، ينتهي نَسَبُهُ إلى عبد الله بن مسعود. ولِد في بغداد في الربع الأخير من القرن الثالث الهجريّ على وجه التقريب.

والمسعوديُّ عالمٌ مُحقّق، ومؤرّخ واسعُ الاطلاع، مَعْنيٌّ بتاريخ الحضارات، مُلمٌّ بثقافة عصْره على تَنوّعِها وغنَاها، مُطّلعٌ على ثقافات الأمَم والشُّعوبِ القديمة وعقائدها وفَلْسَفاتها، وبَحّاثةٌ متعمّقٌ منفتحُ الذّهن على جَميع الأنظمة الفكرية (١)، وخبيرٌ في الجغرافية الطبيعية، والبشريّة يقفُ على قمّةِ المعارف الجغرافيّةِ لعصره. لذلك عَدّه أحُد عُلماء

(١) - جغرافية دار الإسلام. ج١ قسم ٢ ص ١٩

المشرقيّات، أشهر كُتّابِ عصره جميعاً، وأكثرهم جوانب علمٍ ومعرفة[1]. كما أطلق عليه فون كريمر بحقٍّ لقبَ «هيرودوت العرب»[2]

ومن المؤسف أنّ مُعظَمَ آثارِ المسعوديّ قد ضاعت فيما ضاع من نفائس تُراثنا، ولم يبقَ منها سوى كتابيه: «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، و«التنبيه والإشراف».

وهذان الكتابان، على ضآلة حجمهما بالقياس إلى كتبه الأخرى[3] يكشفان إلى حدٍّ كبير عن منهجه في التأليف، كما يُلقيان الضوءَ على مشَاغله الفكريّة، واهتماماته المتنوِّعة التي ملأتْ عليه حياته كلّها.

---

(١) - تاريخ الأدب العربي. ج٣ ص ٥٦

(٢) - ثقافة الشرق. ٢ ص ٤٢٣

(٣) - عدد كتب المسعودي التي أشار إليها في كتابيه بلغ أربعة وثلاثين كتاباً، ويقدر حجم هذه الكتب بنحو ثمانين مجلّداً تقريباً. ولم نذكر أسماء هذه الكتب تجنّباً للإطالة، وقد أوردنا أسماءها مفصلة في مقدمة كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، الصادر عن وزارة الثقافة، سلسلة (المختار من التراث العربي) دمشق ١٩٨٩.

على أنَّ مُصنفَّاتِ المسعوديّ الضّخمْةَ التي أَلمح إليها، ونَوَّه بها في كتابيه الباقيين، لم يجمعْ مادَّتَها من بُطون الكتب - على عادة المصنِّفين- فحسبُ، بل أمضى عمره يجوبُ أقطارَ الشرقِ والغربِ؛ لا لتقاطها من مظانِّها، ونخلها، وتحليلها، وتنسيقها، ومنَ ثَمّ تصنيفها.

وقد صوّر المسعوديُّ بقلمهِ شيئاً من مُعاناته، فقال:

«على أنَّنا نعتذر من تقصيرٍ إن كان، ونَتنصّل من إغفالٍ إن عرض؛ لما قد شابَ خواطرَنا، وغَمر قلوبَنَا من تقاذُفِ الأسْفارِ، وقَطْعِ القفار، فتارةً على مَتْنِ البحرِ، وتارةً على ظَهْرِ البرِّ، مستعلمين بدائعَ الأُمم بالمشاهدة، عارفينَ خواصَّ الأقاليمِ بالمُعاينة، كقَطْعنا بلادَ السندِ، والزَّنْجِ، والصَّنْف، والصّينِ، والزَّابجِ، وتَقَحُّمنا الشرقَ والغربَ، فتارةً بأقصى خراسان، وتارةً بوسائط أَرمينية، وأذربيجان، والرَّان، والبيلقان، وطوراً بالعراق، وطوراً بالشام، فَسَيْري في الآفاق سُرى الشمس في الإشراق كما قال بَعْضُهُم:

تَيَمَّم أقطارَ البلادِ، فتارةً

لدى شَرْقها الأقصى وَطَوْراً إلى الغربِ

سُرى الشّمسِ لا ينْفَكُّ تقذفُهُ النّوى

إلى أُفُقٍ نـاءٍ يـقَـصّـرٌ بـالرّكْـب»[1]

فـالمسعوديُّ كـانَ شـديدَ الحرص على أن يُقدِّمَ لقرّائه شَريطاً حيّاً يَرصُدُ فيه حركةَ البَشر، وتعاقُبَ الحضارات والدُّول عَبْرَ الأزْمنةِ، وعلى امتداد المعمورة؛ ليُمْتِعهم بمِشاهدِه العجيبة، وطرائفهِ الغريبة، ويُغْريهم بالنَّظر والتأمُّل في هذا الكونِ وما فيه من بدائعِ الخالقِ والمخلوق، مُنْذُ مَبْدئه وخَلْقِه، إلى منتصف القرنِ الرابع الهجريّ.

ولعلّ ثقةَ المسعوديّ بأهميَّةِ ما أنجزه، وحُسْنَ ظنِّه بالنَّاس وبالتَّاريخ من الأسباب التي صرفته عن الإلتفات إلى حياته الخاصَّة، وسيرته الذاتيَّة إذ لم يترك لنا سوى شَذَرات مبعثرةً في ثنايا كتابيه الباقيين تحدَّث فيها عن نَفْسِه حديثاً عابراً لا نَجدُ فيه كبيرَ غناءٍ.

وربَّما حَسِبَ أنّ كُتُبَه الكثيرةَ سوف تكونُ خيرَ راوٍ لسيرْتهِ، ولكنَّ حوادثَ الزّمَنِ خيَّبتْ ظنه، إذ أتَتْ على مُعْظَمِ هذه الكتب.

---

(1) - مروج الذهب. ج ١ ص ١٨ - ١٩

كما أنَّ مُصَنِّفي كتبِ التَّراجم والسِّير لم يكونوا أكثَرَ رحمةً به من صرُوفِ الدهرْ؛ إذ لم يُولوا سيرتَهُ ومؤلَّفاته ما تستحقّانه من عنايةٍ وإهتمام!

بل شُغِلَ بعضُهُم أو تَشاغل في تلمُّس انتمائه الفكريّ تمهيداً للنيل من نزاهته ومصداقيّته التاريخيّة متجاهلاً أهميَّةَ ما أنجزه من مُدوّنات موسوعيةٍ تَنْزِعُ إلى الإحاطةِ بالتَّاريخ الحضاري للكون والإنسان. ومَنْ يُدقِّقُ النَّظَرَ في كتابيه سرعانَ ما يكتشفُ ضِيقَ هذه النظرةِ، وسطحيَّتها؛ لأنَّ من يمتلكُ معرفةَ المسعوديِّ بالتاريخ يَصعُبُ حَصْرُهُ في زاويةِ الإنحياز والتعصّب الذي لاَ يليقُ بالعلماء من أمثاله.

غادر المسعوديُّ موطنَه في سّنٍ مبكرّة، ولم يَعُدْ إليه إلا لماماً، ولعلّ سوءَ الأوضاع العامَّةِ في بغداد، وتفاقُمَ الصِّراعِ على السُّلطْةِ، وشيُوعَ الاضطرابِ والفَوْضى من الأسباب التي دفعت به إلى الارتحالِ عن بلده في مَطلعِ شَبابه بَحْثاً عن الهدوء والأَمْنِ، والتماساً للرزقِ، ورغْبَةً حثيثةً في الاطّلاع على أحوالِ الأُمَم والبُلْدان، فمضى في رحلته الطويلةِ يستطِلعُ،

وينُقِّب، ويُؤلِّف إلى أنْ وافاه الأَجلُ بمدينة الفسطاط عام ٣٤٦هـ.

لقد استغرقت رحلةُ المسعوديّ ما يقربُ من نصف قرنٍ، تلك الرحلةُ التي أَلْفَى نَفْسَهُ مَدْفُوعاً إليها إِذْ يقول:

«. . . ثم ما دُفعنا إليه من طُولِ الغُرْبةِ، وبُعْدِ الدّارِ، وتواترِ الأَسْفَارِ، طَوْراً مُشرّقين، وَطَوْراً مُغَرِّبين كما قال أَبو تمّام:

خليفةُ الخضرِ من يَرْبَعْ على وطنٍ
في بلدةٍ فظهورُ العيس أَوْطاني
بالشام أهلي، وبغدادُ الهوى، وأَنا
بالرَّقَّتين، وبالفسطاط إخواني

وكقوله أيضاً:

فغرّبتُ حتى لم أَجد ذِكْرَ مَشْرِقٍ
وشرَّقْتُ حتى قد نَسِيتُ المغاربا

خطوبٌ إذا لاقيتهُنَّ رَدَدْنَني

جَرِيحاً كأنّي قد لَقِيتُ الكتائبا»[1]

إنَّ ظروفاً قاهرةً حَمَلَتْ المسعُوْديَّ على تركِ أَهْلِه وَوَطنِه، لذا فهو شديدُ الأسف حيث يقول:

«ويَعُزُّ عليَّ ما أصَارتني إليه الأقدارُ من فراقِ هذا المصرِ الذي عن بُقْعته فُصلنا، وفي قاعته تَجمَّعْنا، لكنَّه الزمانُ الذي من شيمته التشتيتُ، والدهرُ الذي من شرُوطه الإبانةُ، ولقد أَحسَنَ أبو دُلفَ العجليُّ حيث يقول:

أيا نكبةَ الدهرِ التي طَوَّحتْ بنا

أيادي سبَا في شرْقِها والمغاربِ

قفي بالتي نَهْوى، فقد طِرْتِ بالتّي

إليها تَناهَت فَاجعاتُ المصَائب»[2]

وعلى الرّغْم من قَسْوةِ التَّجرْبة التي خَاضَها؛ فقد تمكنَّ من أنْ يُحيلَ الغُربةَ إلى وَطَنٍ، وظُهورَ العيْسِ إلى مُسْتَقَرٍّ يرْقُب

(١) - مقدمة كتاب التنبيه والإشراف ص ٧.

(٢) - مروج الذهب. ج ١ (مختارات) ص ٣٣٤.

منه، ويَتَتَبَّع أحوالَ الأمم وآثارَها، والبلدانَ وتنوُّعَها، ويرصُدُ حركةَ البشر والتاريخ بعينٍ فاحصةٍ، وعقلٍ يقظٍ، وذاكرةٍ تحاولُ الإمساك بكلِّ ما تقعُ عليه العينُ، وما يخطر في الذهنِ من تأملاتٍ، وسوَانحَ لا يقوى على اقتناصها، وتنسيقها، وتدوينها إلاّ عالمٌ حصيفٌ كالمسعوديّ.

وليس بعيداً من الحقيقة أن تكونَ هذه الرحلةُ المديدةُ هي التي أوحتْ إليه بموضوعاتِ كُتُبِهِ؛ لأنَّ ما وقف عُمْرَهُ لأجله، نَعْني الإحاطةَ بتاريخ الكونِ، وأخبارِ الأمم وأحوالها وآثارها، ما كان ليتحقَّقَ لولا هذه الرحلةُ التي أتاحتْ له فرصةَ التنقُّل في أرجاءِ الأَرْضِ للاطّلاعِ، والاستقصاءِ، والبْحثِ في أُمُورٍ يَصْعُبُ التثبُّتُ منها دونَ معاينةٍ أَوْ مُقَاربةٍ.

لذا نَراهُ في أكثرَ من موضعٍ يُؤكِّدُ مسؤوليتّه عن الكلمةِ التي يدوّنها، ويشير إلى ما تمكّن من إنْجازِهِ، وما عاناه من المشقّة في سبيل تحصيله، ونَظْمِهِ في سياقٍ جامعٍ متّصلِ الحَلقات.

كتابُ التنبيه والإشراف:

هو آخر كتابٍ صنّفه المسعوديُّ سنة ٣٤٥هـ، فختم، به حياتَهُ، ولخَّصَ فيه مشروعَه المعرفيَّ الطموحَ الذي شغَلَه لسنوات طويلة؛ ليستكملَ تصوّرَهُ النهائيّ للعالم، ويُدوّنَ تاريخَهُ الكَوْنيَّ الشّاملِ.

وممّا لا شكَّ فيه أنّ مثلَ هذا العمل يقتضي إلماماً واسعاً بجملة من المعارف المتنوّعة التي يَنْدرُ توفُّرُها في شخصٍ واحدٍ على غرار المسعوديّ، الذي كان - كما أسلفنا - عالماً شاملاً، مُلمّاً بالتاريخ والجغرافية، وعِلْمِ الفَلَكِ، وعِلْمِ الأدْيانِ، وعِلْمِ الأَجْنَاسِ، وعِلْمِ الجدل والمناظرة، وعلومِ القرآن والحديث، والرّواية، والفَلْسَفَةِ، والأدب. إنه باختصارٍ مؤسّسةُ بحثٍ كاملةٍ متكاملةٍ.

أمّا عن الكتاب فقد قال المسعوديّ:

«وأودعنا كتابنا هذا لُمعاً من ذلك، استذكاراً لما تقدمَّ من كتبنا، ومنبِّهينَ على ما سَلَفَ من تصنيفنا» (١).

(١) - التنبيه والإشراف (الخاتمة)

فالكتاب إذاً بمثابة دليلٍ يحددُ الخطوطَ العامّةَ لتاريخِ المسعوديّ، مثلما ينبّهُ القارىءَ ويذكّرُهُ بمصنّفاتهِ العديدةِ التي تُشبعُ فضولَهُ، وتلبّي رغبَتَهُ في التوسُّعِ والاستبحارِ. وهذه الكتبُ على التّوالي هي:

١ - كتابُ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان. ويُقَدّرُ حَجْمُهُ بثلاثين مجلداً: مفقود

٢- الكتاب الأوسط. ويقدر حَجْمُهُ بنصف حجم سابقه: مفقود

٣ - كتاب مروج الذهب، ومعادن الجوهر: مطبوع في أربعة أجزاء

٤ - كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف: مفقود

٥ - كتاب ذخائر العلوم، وما جرى في سالف الدهور: مفقود

٦ - كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار: مفقود

٧ - كتاب التنبيه والإشراف: مطبوع

وهو الكتاب الذي أودَعهُ المؤلفُ لُمعاً من ذكرِ الأفْلاك والنُّجومِ، والعَنَاصرِ وتراكيبِها، وقِسْمةِ الأزْمنة، والاستقصاتِ، والرِّياحِ ومَهابِّها، والأرضِ وشكْلها، والأقاليمِ وقِسْمَتِها وحُدودِها، وعَلاقَتها بالكواكبِ السَّبْعة، ثُمّ البحارِ والأنهارِ، وما يُحيطُ بها من الممالك، والأُمَمِ السَّبْعِ في سالفِ الأزْمانِ، ولُغاتِهم، وآرائهم، وعقائدهم، ومواضعِ مَساكنهم، وما بانتْ به كُلُّ أمّةٍ مِنْ غَيْرها، وجامعِ تاريخَ العَالمِ والأنبياءِ من آدمَ إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم، ثم الخلفاء والملوك، وكتّابهم، ووزرائهم، وحصر تواريخهم إلى سنة ٣٤٥هـ.

ومما يَجْعَلُ لهذا الكتابِ أهميّةً خاصّةً هو دَلالَتُهُ على العَصْرِ الذي كُتِبَ فيه، وحَفَاوتُه بالمَشْهَدِ المعرفيِّ لذلك العَصْرِ، بما فيه من استشرافٍ للتُّخومِ والآفاقِ التي تَطلّع إليها الفكرُ الإنسانيُّ عَبْرَ العصُور. وعلى الرَّغْم من التردّي السِّياسي الذي أصابَ دَوْلَةَ الخلافَةِ في ذلك الزّمان، وما لَحِقَ

بأهْلِ العِلْمِ من نَكَدِ العَيْشِ، وجَوْرِ السُّلطان؛ فإنّ العديدَ من عُلمائنا تَجشّموا الأخطارَ والمهالكَ، وتحمّلوا مَسْؤُوليّاتهم العلميّةَ والأخلاقيّةَ بشجاعةٍ وصبْرٍ؛ لصونِ التُّراثِ الإنسانيِّ، وإنقاذِهِ من الضَّياع، ولَعلّ صنيعَهم هذا من أبرز الجوانب المضيُئَة في تراثنا.

وعندما وقفتُ على كتابِ «مُروجِ الذهب ومعادن الجوهر» منذُ سنواتٍ خلَتْ، وأمْعَنْتُ النّظرَ فيه بغية اقتطاف نصوص منه لسلسلة المختار من التراث العربي، أَخَذْتُ نفسي بقراءة ما بقيَ من آثار المسعودي، وما نُسبَ إليه، وما كُتب عنه ممّا استَطَعْتُ تَحْصيلَهُ، فساورتْني الرّغبةُ في إخراج هذا الكتابِ بعدنفادطبعته الأولى مُنْذُ زَمَنٍ بعيد وعدم توفُّرِهِ في أيدي النَّاس. إذْ طُبع لأوّل مرّةٍ في ليدن سنة ١٨٩٤ بعنايةِ المستشرقِ دي خويه تحت رقم ٨ من المكتبة الجغرافية العربيّة، وهي طَبْعةٌ مُحَقَّقةٌ، ومُعْتَنى بها، ولكنَّها لا تخلو من بعض هنَاتٍ.

ثم طُبع مرّةً أخرى في مصر سنة ١٩٣٨، وَعُني بتصحيحه ومراجعته عبدُ الله إسماعيل الصاوي، مُعْتَمِداً على

الطبعةِ الأوربيَّةِ الآنفةِ الذِّكْرِ، دُوْنَ الرُّجوع إلى أيٍّ من مخطوطات الكتاب.

وهذه الطَّبعةُ أَقلُّ دقَّةً وضَبْطاً، وتحقُّقاً من الأولى حيثُ وَهَمَ مُصَحِّحُها في مواضعَ كثيرة؛ فَعَمد إلى شَطْبِ وتعديلِ الكلماتِ التي أَشْكَل فَهْمُها عليه، واستبدلَ بها كلماتٍ من عنده، أو كلماتٍ أخرى استدعاها من هامش الطبعة الأوربيّة دونَ تعليلٍ لما فعل.

لذا فإنّني اتَّخذتُ من الطبعة الأوربيّة أَساساً، فراجعتُها، وضبطتُ ما حَسِبْتُهُ محتاجاً إلى الضبط، وصوّبتُ الخطأ المطبعيّ، وأثبتُّ تعليقي على المتن في الهامش آملاً أن أكونَ قد وُفّقتُ فيما ذَهَبْتُ إليه من خدمةٍ للقارىء والكتاب معاً.

ولا بدَّ في الختام من توجيه الشكر إلى وزارة الثقافة، وللأستاذ الدكتور عدنان درويش؛ لتمكيني من إخراج هذا الكتاب، وضمّه إلى تلك القائمة الطويلة من ذخائر تراثنا، والتي عُنيت الوزارة بإحيائها ونَشْرِها، وتيسير اقتنائها لِلْقُرّاء.

قاسم وهب

في ٢٢/ ٥/ ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

ذكر الغرض من هذا الكتاب

قال أبو الحسن عليّ بن الحسين بن علي المسعوديّ:

أمّا بعدُ؛ فإنّا - لمّا صنّفنا كتابَنا الأكبر «أخبار الزمان ومن أباده الحدْثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة»، وشفعناه «بالكتاب الأوسط في معناه ثم قفَوناه بكتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر، في تحف الأشراف من الملوك وأهل الدرايات»، ثم أتلينا ذلك بكتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» وأتبعناه بكتاب «ذخائر العلوم، وما كان في سالف الدهور» وأردفناه بكتاب

«الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار» ذكرنا في هذه الكتب الأخبارَ عن بدء العالم والخلق وتفرُّقهم على الأرض، والممالك، والبرّ، والبحر، والقرون البائدة، والأمم الخالية الداثرة الأكابر، كالهند، والصين، والكلدانيين -وهم السريانيون- والعرب، والفرس، واليونانين، والروم، وغيرهم، وتاريخ الأزمان الماضية، والأجيال الخالية، والأنبياء، وذكر قصصهم، وسير الملوك، وسياساتهم، ومساكن الأمم، وتباينها في عبادتها، واختلافها في آرائها، وصفة بحار العالم، وابتدائها، وانتهائها، واتصال بعضها ببعض، ومالا يتّصلُ منها، وما يظهرُ فيه المدُّ والجزر، ومالا يظهر، ومقاديرها في الطول والعرض، وما يتشعّبُ من كل بحر من الخلجان ويصبُّ إليه من كبار الأنهار، وما فيها من العظام، وما كان من الأرض براً فصار بحراً، وبحراً فصار براً على مرور الأزمان وكرور الدهور، وما قاله حكماء الأمم في كيفيّة شبابها وهَرَمِها، وعلل جميع ذلك، والأنهار الكبار ومبادئها ومصابّها، ومقادير مسافاتها على وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها، والإخبار عن شكل الأرض وهيئتها، وما

قالته حكماءُ الأمم من الفلاسفة وغيرهم في قسمتها، والربع المسكون منها، وحَدَبها، وأنجادها، وأغوارها، وتنازع الناس في كيفيّة ثباتها، وتأثيرات الكواكب في سكّانها، واختلاف صورهم، وألوانهم، وأخلاقهم. ووصف الأقاليم السبعة، وأطوالها، وعروضها، وعامرها، وغامرها، ومقادير ذلك، ومجاري الأفلاك، وهيئاتها، واختلاف حركاتها، وأبعاد الكواكب وأجرامها، واتصالها، وانفصالها، وكيفية مسيرها وتنقلها في أفلاكها، ومضادّاتها إيّاها في حركاتها، ووجوه تأثيراتها في عالم الكون والفساد التي بها قِوامُ الأكوان، وهل أفعالها على المماسّةِ، أم على المباينة عن إرادة وقصد، أم غير ذلك، وكيف ذلك وما سببه؟ وهل حركاتُ الأفلاكِ والنجومِ جميعاً طباعٌ أم اختيارٌ؟ وهل للفلك علّةٌ طباعيّة فاعلة في الأشياء المعلولة التي هو مشتملٌ عليها، ومحيط بها، والنّواحي والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب. وما على ظهر الأرض من عجيب البنيان، وما قاله النأس في مقدار عُمر العالَم، ومبدئه، وغايته، ومنتهاه، وعلّة طول الأعمار، وقصرها، وآداب الرّياسة، وضروب أقسام السياسة

المدنّية؛ الملوكيّة منها والعامية، مما يلزم الملكَ في سياسة نفسه ورعيّته. ووجوه أقسام السياسة الدّيانية، وعدد أجزائها، ولأيّة علّة لا بدَّ للملك من دين، كما لا بدَّ للدّين من ملك. ولا قِوام لأحدهما إلاّ بصاحبه، ولمَ وجب ذلك وما سببه؟ وكيف تدخل الآفاتُ على الملك، وتزول الدول، وتَبيدُ الشرائعُ والمِلَلُ؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدّين، والآفات الخارجية المعترضة لذلك وتحصين الدّين والملك، وكيف يُعالَجُ كلٌّ واحدٍ منهما بصاحبه إذا اعتلّ من نفسه، أومن عارضٍ يعرضُ له، وماهيَّة ذلك العلاج، وكيفيّته وأمارات إقبال الدول. وسياسة البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكايد في الحروبِ ظاهراً وباطناً، وغير ذلك من أخبار العالم وعجائبه.

وأخبار نبيّنا صلّى اللّه عليه وسلّم، ومولده، وما ظهر في العالم من الآيات والكوائن والأحداث المنذارت بظهوره قبل مولده؛ من أخبار الكهّان وغيرهم وما أظهر اللّه سبحانه على يديه من الدّلائل والعلامات، والجرائح[1] المعجزات،

(١) - الجرائح: واحدتها الجريحة: الأعجوبة (مولّدة).

ومنشئه ومبعثه، وهجرته، ومغازيه، وسراياه، وسواربه، ومناسره[1] إلى وفاته، والخلفاء بعده، والملوك، والغُرر من أخبارهم، وما كان من الكوائن والاحداث، والفتوح في أيامهم، وأخبار وزرائهم وكُتّابهم إلى خلافة المطيع.

وذكرنا من كان في كلّ عصرٍ من حَمَلةِ الأخبار، ونَقَلةِ السِّيَرِ والآثار، وطبقاتهم من عصرِ الصَّحابة والتّابعين، ومَنْ بعدَهُم من فُقَهاء الأمصار وغيرهم من ذوي الآراء والنِّحَل والمذاهب والجدَل بين فِرقِ أهل الصّلاةِ، ومن مات منهم في سنةٍ سنةٍ إلى هذا الوقت المؤرّخ.

وذكرنا في كتاب «نظم الاعلام في أصول الأحكام» وكتاب «نَظْم الأدلّة في أصول الملّة» وكتاب «المسائل والعلل في المذاهب والمِلل» تَنازُعَ المتفقّهين في مُقدّمات أُصول الدّين،

(١) - يذكر المسعودي لاحقاً: إن السرايا ما بين الثلاث نفر إلى الخمسمئة، وهي التي تخرج بالليل، فأما التي تخرج بالنهار، فتسمى السوارب، وما زاد عن الخمسمئة منه إلى دون الثمانمئة؛ فهي المناسر، وما بلغ الثمانمئة فهو الجيش، وهو أقل الجيوش.

والحوادث التي اختلفت فيها آراؤهم، وما يذهب إليه من القول بالظاهر، وإبطال القياس والرأي، والاستحسان في الأحكام إذ كان اللّه جلّ وعزّ قد أكمل الدينَ، وأوضح السَبيل، وبيَّن للمكلَّفين ما يتقون في آياته المنزلة وسُنَنِ رسوله المفصَّلة التي زجرهم بها عن التقليد، ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد، وما اتَّصل بذلك من الكلام في أصول الفتوى والأحكام؛ العقليّات منها والسمعيّات، وغير ذلك من فنون العلوم، وضروب الأخبار؛ ممّا لم تأتِ الترجمةُ على وصفه، ولا انتظمت ذِكْرَهُ -رأينا أن نُتبعَ ذلك بكتاب سابع مختصرٍ نترجمه بكتاب «التنبيه والإشراف» وهو التالي لكتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار» نُودِعُهُ لُمعاً من ذِكْرِ الأفلاك، وهيئآتها، والنجوم، وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها، وكيفيّة أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة، وما لكلّ فصلٍ من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها. والأسطقصات[1] وغير ذلك، والرياح، ومهابّها وأفعالها،

(١) - الأسطقصات: مفردها: أسطقص، أو أسطقس: الأصل والعنصر. (يونانية)

وتأثيراتها، والأرض، وشكلها وما قيل في مقدار مِسَاحتها، وعامرها، وغامرها، والنواحي والآفاق، وما يغلب عليها وتأثيراتها في سكّانها، وما اتصل بذلك، وذكر الأقاليم السَّبعة، وقسمتها، وحدودها، وما قيل في طولها وعَرَضْها، وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة: الخمسة، والنيرين، ووصف الإقليم الرابع، وتفضيله على سائر الأقاليم، وما خُصَّ به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتّصل بذلك من الكلام في عُروض البلدان وأطوالها، والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك، وذكر البحار، وأعدادها، وما قيل في أطوالها، وأعراضها، واتصالها وانفصالها، ومصبات عِظام الأنهار إليها وما يُحيط بها من الممالك، وغير ذلك من أحوالها، وذكر الأمم السبع في سالف الأزمان، ولغاتهم وآرائهم، ومواضع مساكنهم وما بانت به كلُّ أُمّةٍ من غيرها. وما اتصل بذلك.

ثم نتبع ذلك بتسميةِ ملوكِ الفرسِ الأُوَّلِ، والطّوائفِ، والسّاسانيّةِ على طبقاتهم، وأعدادهم، ومقدار ما مَلَكوا من السنين، وملوك اليونانييّن وأعدادهم، ومقدار مُلْكِهم،

وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء، وهم الصابئون والمتنصّرة، وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين، وما كان من الكوائن والأحداث العظام الديانيّة والملوكيّة في أيامهم، وصفة بنودهم، وحدودها، ومقاديرها، وما يتصل منها بالخليج وبحري الروم والخزر، وما اتّصل بذلك من اللُّمع المنبّهة على ما تقدّم من تأليفنا فيما سلف من كتبنا، وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت وتواريخ الأمم، وجامع تأريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبيّنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. وحصر ذلك، وما اتّصل به ومعرفة سنيّ الأمم الشمسيّة والقمريّة وشهورها، وكبسها ونسيئها[1]،

---

(١) - السنة الكبيسة هي السنة التي يكون فيها شهر شباط (فبراير) تسعة وعشرين يوماً.

أما النسيء: فهو شهر كانت العرب تسقطه من السنة في كل ثلاث سنين، ويسمّون الشهر الذي يليه باسمه. وفيه أنزل «إنما النّسِيءُ زيادةٌ في الكفر» (براءة ٣٧) وكان المتولون لذلك النّسأةُ من بني الحارث بن كنانة. هذا ما أورده المسعودي لاحقاً.

وقال آخرون: النسيء، شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية، فكانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون، أحلّوه، وحرّموا مكانه شهراً آخر، وهذا ما نهي عنه في سورة براءة.

وغير ذلك من أحوالها وما اتّصل بذلك من التنبيهات على ما تقدّم جَمْعُهُ وتأليفه، وذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومبعثه، وهجرته، وعدد غزواته، وسراياه، وسواربه، وكُتَّابه، ووفاته، والخلفاء بعدَه، والملوك، وأخلاقهم، وكتَّابهم ووزرائهم، وقضاتهم، وحُجَّابهم، ونقوش خواتيمهم، وما كان من الحوادث العظيمة الديانيّة والملوكيّة في أيامهم، وحَصْر تواريخهم إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع منبّهين بذلك على ما قدمنا ذِكْرَهُ من كتبنا.

وإنما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذِكْرِ هذه الممالك؛ لِعظَم مُلْكِ ملوك الفرسِ، وتقادم أمرهم، واتّصال مُلْكِهم، وما كانوا عليه من حُسْنِ السّياسة، و انتظامِ التّدبير، وعمارة البلاد، والرأفة بالعباد، وانقياد كثيرٍ من ملوك العالم إلى طاعتهم، وَحَمْلهم إليهم الأتاوةَ والخراج، وأنهم ملَكوا الإقليمَ الرابع؛ وهو إقليمُ بابل أوسطُ الأرض وأشرفُ الأقاليم. وأنّ مملكتي اليونانيين والروم تتلُوان مملكة فارس في

العِظَمِ والعزّ، ولما خُصواُ به من أنواع الحِكَم والفلسفةِ والمِهن العجيبة، والصنائع البديعة، لأنّ مملكةَ الروم إلى وقتنا هذا ثابتةُ الرسوم متّسِقةُ التّدْبير؛ وإن كان اليونانيّون قد دَخَلوا في جملة الروم منذ احتوَوا على مُلْكهم كدخول الكلدانيين - وهم السريانيون سكان العراق- في جملة الفرس الأولى لِغلَبَتهم عليهم؛ فأحببنا أنْ لا نُخلي كتابَنا هذا من ذِكْرهم، وإن كُنّا قد ذكرنا سائرَ الممالك التي على وجه الأرض وما أُزيلَ منها ودُثِرَ، وما هو باقٍ إلى هذا الوقت، وأخبار ملوكهم وسياساتهم، وسائر أحوالهم فيما سميناه من كتبنا.

على أنا نعتذرُ من سهوٍ إن عَرَضَ في تصنيفنا ممّا لا يَسْلَمُ منه مَنْ لَحِقتْه غَفْلةُ الإنسانيّة، وسهوةُ البشريّة، ثم ما دُفِعنْا إليه من طول الغُربة وبُعْدِ الدار، وتواتُرِ الأسفار طوراً مُشَرِّقِينَ وطوراً مُغَرِّبِينَ، كما قال أبو تمّام:

خَليفةُ الخضرِ من يربَع على وطنٍ

في بلدةٍ، فظهورُ العِيس أوطاني

بالشأم قومي، وبغدادُ الهوى، وأنا

بالرّقّتينِ، وبالفِسطاطِ إخواني

وكقوله أيضاً:

فغَرّبْتُ حتى لم أجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ

وَشَرّقْتُ حتى قد نَسيتُ المغاربا

خُطوبٌ إذا لاقيتُهنّ رددْنَني

جَريحاً كأني قد لَقِيتُ الكتائبا

ونحن آخذون فيما بهِ وعَدْنا، وله قَصَدْنا. وبالله نستعينُ، وإيّاه نسألُ التوفيقَ والتّسديدَ.

* * *

ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها

فلنبدأ بذكر الفلك الذي نبَّهنا اللّهُ سبحانه عليه، وأشار في نصّ الكتاب إليه؛ لما فيه من عجائبِ حكمته، ولطائف قدرته، وخصائص التدبير، وبدائع التركيب التي تدلُّ بعجائبِ نَظْمها، وغرائب تأليفها على وحدانيّة مُبدِعها، وأزليّة منشئها. قال اللّه جلّ وعزّ ﴿لاَ الشمسُ ينبغي لها أنْ تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابق النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون﴾ أي: في دائرةٍ منها يكونون- إذ اسم الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب، والفلكُ: السماءُ قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿لَخَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمون﴾.

قال المسعوديُّ: وقد تنازع الناسُ في الفَلَكِ ممَّن سلفْ وَخَلَفَ فقال أفلاطون، وثامِسْطِيوس، والرواقيون، وعِدَّةٌ

مِمَّن تقدَّم عَصْرَ أفلاطون، وتأخَّر عنه من الفلاسفة: إنَّه من الطبائع الأربع التي هي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. إلاّ أنَّ الغالبَ عليه النارِيّةُ، وليست نارِيَّتُه مُحرِقةً إنما هي مثلُ النَّارِ الغريزيَّةِ في الأبدان، وقال آخرون إنَّه من النَّار، والهواء، والماء، دون الأرض.

وذهب أرسطاطاليُس، وأكثر الفلاسفة مِمَّن تقدَّم عصرَهُ وتأخَّر عنه، وغيرهم من حكماء الهند، والفرس، والكلدانيين إلى أنَّه طبيعةٌ خامسةٌ خارجةٌ عن الطبائع الأربع ليست فيه حرارةٌ ولا برودةٌ ولا رطوبة ولا يبوسة، وأنَّه جسمٌ مدوَّر كُرِيٌّ أجوفُ يدور على محورين، وهما: القطبان أحدهما رأسُ السرطان، ومنتهى بنات نعش، من تَلْقاء نقطة الجنوب، والآخرُ رأسُ الجدي، وفيه كواكبُ مثلُ بنات نعش من تَلْقاء نقطة الشمال وخط الاستواء في وسط الفلك، وهو خطّ ما بين الشمال والجنوب، وأوسع موضعٍ فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب. وهو منقسم بأربعة أرباع كلّ ربع منها تسعون درجةً على خطّين يتقاطعان على مركزه، وهو موضع

الأرض، منه أحدُ الرُّبعين، وهو أحدُ القطبين نقطة الشمال، وبإزائه نقطة الجنوب. والرُّبع الثالث نقطة المشرق، وبإزائها نقطةُ المغرب، وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً. وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيّات، وانبسطت الأركان الأربعة وهي النارُ، والماءُ، والهواءُ، والأرضُ. فيتّصل ركنان منها وهما: النّار، والهواء بالعلو، وركنان منها وهما: الماءُ، والأرضُ بالسفل، ثم تتحرّك هذه الكيفيّات بتحرُّك الجواهر العلوية والأجسام السمائية على حسب مَدَاراتها، ومسيرها، وحركاتها، وتأثيراتها. فيتحرالركنان الأعليان بتحرُّكِ الكيفيّات، والركنانِ الأسفلان بِتحرُّك الركنين الأعليين، وتهب بذلك الرياحُ الاثنتا عشرة؛ فتنشأ السحائبُ، وينزل القطر، ويتّصل بذلك الآثارُ العلوية، ويتّصل بالآثارُ العلويّة الآثار السفليّةُ الموجودةُ في الحيوان، والنبات البريّ والبحريّ، وفي الجواهرِ، والمعادنِ حتى يكونَ التدبيرُ في جميعِ هذه العوالمِ متّسقاً مُطرداً، متّصلاً بعضُه ببعضٍ بالفعل، كامناً بعضُه في بعضٍ بالقوّةِ؛ حتى تظهر آثارُ الصنعةِ،

وأمـــارات الحكمـــة، ودلائل الربوبيّة، وترتبط المعلولات بعللها، وتشهد للصّانع بصنعته، وبدائع حكمته.

وجعل عزّ وجلّ الفلكَ الأعلى، وهو فلكُ الاستواء، وما يشتمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرةُ الأرض يُحيط بها فلكُ القمر، ويحيطُ بفلك القمر فلكُ عطارد، وبفلك عطارد فلكُ الزُّهرة، وبفلك الزُّهرة فلكُ الشمس، وبفلك الشّمس فلكُ المرِّيخ، وبفلك المرِّيخ فلكُ المشتري، وبفلك المشتري فلكُ زُحَل، وبفلك زُحل فلكُ الكواكب الثابتة، وبفلك الكواكب الثابتة فلكُ البروج، وبفلك البروج فلكُ الاستواء وهو المحيط بها والمحرّك لها.

ومن ذوي المعرفة بعلم الأفلاك، والنجوم مَنْ يَعُدُّ فَلَكَ الاستواء، وفَلَكَ البروج الثابتة فلكاً واحداً؛ لِما يرى من تجاذبهما، واتفاق أقطارهما ومراكزهما.

والأرضُ في وسط الجميع مركزٌ له كالنقطة في وَسَط الدّائرة، والفلكُ متجافٍ عنها من حيث ما أحاط بها بمثل ما كان وجهها الذي يكون عليها حيثما كانت، وهو أعلى الفلك على سَمْتِ رأسك، فذلك نصف قطر الفلك - إلا ما أخذ منه

نصفُ قطر الأرض- وهو يدور عليها من المشرق إلى المغرب؛ على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميّتين متقابلتين في جنَبي كرته؛ إحداهما: القطبُ الشماليّ وهو على شمال مستقبل المشرق، والثانية: القطبُ الجنوبيّ: وهو على يمينُ مستدبر المغرب، ويُسمَّيان المحورين تشبيهاً بقطب الرّحى.

ولهذا الفلك نطاقٌ يفصل كرته في متوسّط ما بين قطبيه، ويفصل محاذاته كرة الأرض بنصفين. وهذا النطاق يُسَّمى فلكَ معدَّل النهار؛ لاستواء الليل والنهار فيه. ويُسَّمى الفلكَ المستقيم؛ لاستواءَ مطالعه ومغاربه، واستقامة مَدْرجه في أرباع الفلك، وما بينها على نظامٍ واحد، وكلُّ جزء من أجزاء هذا النطاق -وإن اتسع- فإنه كيفما انحدر في بسيطي الكرة إلى المحورَين قلّ عرضهُ ودقّ، حتى تجتمعَ أجزاءُ الفلك كلُّها من فوق الأرض، وتحتها في نقطة المحور.

ومَنْ كان تحت هذا النطاق فإنه ينظر المحورَين يطوفان على أفق المواضع، والفلك يدور منتصباً فوق رأسه.

وأكثر هذه الأفلاك مَسِيرُها من المشرق إلى المغرب موافقةً في مسيرها لمسير الفلك الأعلى ومنها ما يكون مسيرهُ

موافقاً لمسير الكواكب من المغرب إلى المشرق. فما كان من الفلك آخذاً من الشمال إلى الجنوب سُمّيَ العرضَ، وما كان آخذاً من المغرب إلى المشرق سُمّيَ الطولَ.

والأرضُ من الفلك بمنزلة النقطة من الدائرة بُعْدُها من كلّ نقطةٍ من النُّقَطِ الأربع التي ينقسم الفلكُ عليها بُعْدٌ واحدٌ، ومن مركزها إلى كلّ نقطةٍ تسعون درجة، وقطر الدائرة مئة وثمانون درجة، وهي تنقسم في نفسها مثلَ هذه الأربع نُقَط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب، إلاّ أنها غيرُ ذاتِ نسبةٍ من الفلك؛ كما أن الفلك لا نسبة له من الدائرة. والجِرْمُ الذي من نهاية حضيض فلك القمر إلى نهاية العالم في العلوّ طبيعة خامسة ليست بحَارّةٍ ولا باردةٍ، ولا رطبة ولا يابسة، ولا مُركّبة من شيء من هذه الطبائع الأربع. وهذا الجسم هو الجسم الفلكيُّ، ونهايته ممّا يلينا أعني كصورة باطن كرة.

والعناصر أربعةٌ: نار، وهواء، وماء، وأرض. فاثنان من هذه العناصر حارّان، وهما: النار، والهواء، وهما يتحرّكان بطبعهما صعداً؛ إلاّ أنّ أسبقَهما إلى العلوّ النارُ؛ فهي طافيةٌ على الهواء؛ والنار يابسةٌ، والهواء رطب. واثنان باردان

وهما: الماءُ والأرض، وهما يتحرّكان بطبعهما سفلاً عند حركتهما، إلاّ أنّ أسبقهما إلى السفل الأرضُ، والأرضُ يابسةٌ، والماء رطب.

فقد حصلَ بما ذكرنا أنّ الحرارةَ تفعل الحركة صُعُداً، وأن البردَ يفعل الحركة سفلاً، وأن اليبس يفعل السبق إلى الموضع الأخصِّ بكلّ واحدٍ منهما، وأن الرطوبة تفعل الثّقلَ في الحركة، فما كانت حركته صعداً سَمَّوه خفيفاً، وما كانت حركته سفلاً سَمَّوه ثقيلاً، وأنه لا فراغَ في جِرْم العالَم، وأن الأجسامَ إذا حَميت احتاجت إلى مواضعَ أوسع من المواضع التي كانت فيها، لما[1] تُحدثه الحرارةُ فيها من تباعد نهاياتها عن مركزها، وأنها إذا بردت صارت بضدّ ذلك لأنّ البردَ يفعل تقاربَ نهايات الأجسام من مركزها، فتحتاجَ إلى مواضعَ أصغرَ من مواضعها، وأنّ الحرارةَ والبرودةَ تتبادل المواضعَ فإذا كان ظاهرُ الأرض حاراً كان باطنُها بارداً، على ما تكون عليه السراديب، وغيرها من أعماق الأرض وأغوارها في نهار

(١) - وردت في الطبعة الأوربيّة، وفي طبعة الصاوي، «فما» ولعل ما أثبتناه أكثر وجاهة وبه يقوم المعنى.

الصيف من البرد، وإذا كان ظاهرُها بارداً كان باطنُها حاراً على ما عليه السراديبُ وغيرها في ليالي الشتاء، وأنّ الحرارةَ ترفع من كلّ جِسْمٍ رَطْبٍ لطيفه أوّلاً أوّلاً حتى تجفّ أرضيّتُه، فيتحجّر أو تفنى جُمْلَتُهُ.

وأن الشمسَ إذا كان مسيرُها في الميل الشماليّ عن معدّل النهار حَمِيَ الهواءُ في ناحية الشمال، وبرد الهواء الجنوبيّ، فيجب من ذلك أن ينقبضَ الهواءُ الجنوبيُّ ويحتاج إلى موضع أصغر، ويتّسعَ الهواءُ الشماليّ، ويحتاج إلى موضع أوسع؛ إذْ لا فراغَ في العالم، فبالواجب أن يكونَ أكثرُ رياح الصيف عند مَنْ هو في ناحية الشمال شماليّةً؛ لأنّ الهواءَ من عندهم يتحرّكُ إلى ناحية الجنوب؛ إذ ليس الريحُ شيئاً غيرَ حركةِ الهواء وتموّجه، وكذلك يجب أن يكون أكثرُ رياح الشتاء جنوبيّةً؛ لِتحرُّك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبيّ.

وما أبينَ لِلحِسِّ من مسير الشمس في الشتاء في الجنوب، وفي الصيف في الشمال؛ لما نراه في الشتاء من طول

ظِلال المظّلات، وبُعْد جِرْمِ الشمس في سمت رؤوسنا من خطّ نصف النهار.

قال المسعوديُّ: وفيما ذكرنا من قسمة الأفلاك وتراكيبها، وما يلينا من الكواكب -النيّرين والخمسة- تنازعٌ بينَ الأَسلاف والأَخلاف.

من ذلك: ما ذكره أبطلميوس القلوذي في كتاب المجسطي[1]، وفي كتابه في الهيئة؛ أنه لم يظهرْ له أنَّ الزُّهرةَ وعُطارد فوقَ الشمس، أو دونها.

وحكى يحيى النحويّ وهو المعروفُ بالحريص الإسكندراني[2] في كتابه الذي دلّ فيه على أنّ العالمَ مُحْدَثٌ، ونَقْضِه لكتاب برُقْلَسْ في قِدَمِه، وردّه على أفلاطون، وأرسطاطاليس، وأفلوطرخس، وغيرهم من القائلين بِقِدَمِه:

---

(١) - أبطلميوس، أو بطلميوس: فلكي، وجغرافي يوناني، نشأ في الإسكندرية. من أشهر مؤلفاته «المجسطي» و «جغرافية بطلميوس» والمجسطي أقدم ما وصل إلينا من كتب الفلك، ومعناه: الأكبر، دعي بذلك لأهميته. عرّبه عن اليونانية حنين بن إسحق توفي بطلميوس نحو ١٦٨ م

(٢) - عالم بالطب، والنحو، والفلسفة، والمنطق. أدرك الفتح الإسلامي لمصر.

أنّ أفلاطون كان يزعُم أنّ فَلَكَ القمر أدنى الأفلاك إلينا، وفلكَ الشمس يليه، ثم فلك عطارد، ثم فلك الزُهرة، ثم كذلك -على ما رتّبها- الباقون.

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السالفة تنازعَ الفلاسفةِ وغيرهم من حكماء الأمم في هيئة الأفلاك، وتراكيبها، والنجوم، وتأثيراتها في هذا العالم الأرضيّ، وما يمين العالم وما شماله، وما خلفه وأمامه وتحته وفوقه، وما ذكره أرسطاليس في المقالة الثانية من كتاب السماء والعالم عن شيعة فيثاغورث في ذلك، وما ذهب إليه من أنّ للسماء يميناً وشمالاً، وأماماً وخلفاً، وفوقاً وأسفل.

فيَمَنْةُ السماء الجهةُ المشرقيّةُ، ويَسرْتُها المغربيّة، وأعلاها القطبُ الجنوبيُّ، وهو فوقَ القطب الشمالي وهو أسفل، وما اتصل بذلك.

قال المسعوديُّ: وأكثرُ مَنْ نُشاهد من فَلَكيّةِ زمانِنا، ومنجّمي عصرنا مقتصرون على معرفة الأحكامِ، تاركون للنظر في علم الهيئة، ذاهبون عنها. وصناعةُ التَّنجيم -التي هي جزءٌ من أجزاء الرياضات، وتسمى باليونانية

«الأصطرونوميا»- تنقسم قسمةً أوليّةً على قسمين: أحدهما العلمُ بهيئة الأفلاك وتراكيبها ونَصْبها، وتأليفها، والثاني العلمُ بما يتأثّر عن الفلك، فليس العلم الثاني- وهو العلم بتأثيرات الفلك وما يُوجب من الأحكام -بمستغنٍ عن العلم الأول؛ الذي هو علمُ الهيئة، إذ التأثيرات واقعة بالحركات وتبدل الأحوال، وإذا وقع الجهلُ بالحركات وقع الجهل بالتأثيرات.

فإذْ ذكرنا جملاً وجوامعَ من علوم هيئة الأفلاك والنجوم، فلنذكر الآن الكلام في جُملٍ من أقسام الزمان وفصوله، والسنين، والشهور، والأيام، وطباعها والأسطقصات، ومرور الشمس في فلكها، وقَطْعها لبروجها، وما تُحدِثُهُ في كل فصل، وما لحق بذلك.



ذكر البيان عن قسمة الأزمنة، وفصول السنة

وما لكلّ فصل من المنازل، والتنازع في المبتدأبه منهاوالأسطقصات، وما اتصل بذلك

الأزمنةُ أربعةٌ: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء؛ فالزمان الأوّلُ؛ الربيع، وهو طبيعة الدم حارٌ رطبٌ، مدّتُهُ ثلاثةٌ وتسعون يوماً، وثلاث وعشرون ساعة وربع ساعة، وذلك من عشرٍ تبقى من آذار إلى ثلاثة وعشرين يوماً تخلو من حَزِيران، وهو من نزول الشمس أولَ دقيقةٍ من الحَمل وهو الاستواء الربيعيّ، إلى دخولها أولّ دقيقةٍ من السرطان، وهو المنقلب الصيفيّ.

والزمان الثاني: الصيف، وهو حارٌ يابس، سلطانه المِرَّةُ الصفراء؛ مُدّتُهُ اثنان وتسعون يوماً، وثلاث وعشرون ساعة،

وثلث ساعة؛ وذلك من ثلاثةٍ وعشرين يوماً تمضي من حَزِيران إلى أربعة وعشرين تمضي من أيلول، وهو من دخول الشمس أولَ دقيقة من السرطان إلى دخولها أولَ دقيقةٍ من الميزان.

والزمان الثالث: الخريف، وهو بارد يابس، سلطانه المِرّةُ السوداء مُدّتُهُ ثمانية وثمانون يوماً، وسبع عشرة ساعة، وثُلُث خُمْسِ ساعةٍ. وذلك من أربعة وعشرين يوماً تمضي من أيلول إلى اثنين وعشرين يوماً تخلو من كانون الأول؛ وذلك من نزول الشمس أولَ دقيقةٍ من الميزان، وهو الاستواء الخريفيّ، إلى نزولها أوّلَ دقيقةٍ من الجدي، وهو المنقلب الشتويّ.

والزمان الرابع: الشتاء، وهو بارد رطب، سلطانه البلغم، مُدّتُهُ تسعةٌ وثمانون يوماً وأربع عشرة ساعة، من تسع تبقى من كانون الأول إلى أحَدَ وعشرين يوماً تخلو من آذار، وذلك من دخول الشمس أولَ دقيقةٍ من الجدي إلى نزولها أولَ دقيقة من الحمل.

فانقسام فصول السنة بالأزمان الأربعة، إنما هو بحركة الشمس في الجملة.

قال المسعوديّ: فقد تبينّ بما ذكرنا أن مدّةَ زمان الربيع مسيرُ الشمس في ثلاثة أبراج، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء. ومدّة زمان الصّيف مسيرُ الشمس في ثلاثة أبراج، هي: السرطان، والأسد، والسنبلة، ومدّة زمان الخريف مسيرُ الشمس في ثلاثة أبراج، هي: الميزان، والعقرب، والقوس، ومُدَّةُ زمان الشتاء مسيرُ الشمس في ثلاثةِ أبراجٍ، وهي: الجديُ، والدلو، والحوت.

فما أعجبَ وأتقنَ اشتباكَ أمْرِ العالم بعضِهِ ببْعضٍ ونَظْمه! إنّا إذا خرجنا من ربْع الصيف إلى ربْع الخريف؛ فإنّا نخرجُ من ربْعٍ حارّ يابسٍ إلى ربْعٍ باردٍ يابس، فاختلف الربُعان في الحرّ والبرد، واتّفقا في اليَبَس. وإذا خرجنا من ربْع الخريف إلى ربْعِ الشتاء خرجنا من ربْعٍ باردٍ يابس إلى ربْع باردٍ رطب، فاختلفا في اليَبَس واتّفقا في البرد. وإذا خرجنا من ربْع الشتاءِ إلى ربْع الربيع خرجنا من ربْع باردٍ رطبٍ إلى ربع حارّ رَطْبٍ، فاختلفا في الحرّ، واتفّقا في الرطوبة.

فقد تبيّن أنّا لم نخرجْ من رُبع حارٍّ رَطْبٍ إلى ربعٍ بارد يابس، ولا من ربْع باردٍ رطْبٍ إلى رُبعٍ حارٍّ يابس.

فتأمل حكمةَ الباريء جلّ وعزّ في نَظْمِهِ الأسطقصات الأربعة في العالم السفليّ أعني: الأرضَ، والماءَ، والهواءَ، والنار، فإنّك تجدُها على هذا الترتيب مُؤلَّفةً تجد الأرض، وهي باردة يابسة، ثم الماء، وهو بارد رطب، ثم الهواء، وهو حار رطب، ثم النار وهي حارّةٌ يابسة، فالماء الذي يلي الأرض يوافقها في البرودة، ويختلفان في الرطوبة واليَبَس، والهواء الذي يلي الماء يوافقه في الرطوبة، ويختلفان في الحرّ والبرد، والنار التي تلي الهواء توافقه في الحر ويختلفان في اليبس والرطوبة وكذلك أيضاً الزمان، فإنّه مقسومٌ بأربعة أقسام: فقسمٌ ربيعيٌ دمويٌ هوائيٌ، وقسمٌ صيفيٌ صفراويٌ ناريٌ، وقسمٌ خريفيٌ سوداويٌ أرضيٌ، وقسمٌ شتائيّ بلغميٌ مائيّ.

فسبحان مَنْ دبّر الأمورَ بحكمته وأتقنها بقدرته فلا يوجد فيها خَلَلٌ، ولا يبينُ فيها زَلَلٌ. إذ كان الإهمال لا يأتي بالصّواب والتضادّ لا يأتي بالنظام.

وقد شبّه أبطلميوس فصلَ الربيع بفصل الطفوليّة وفصلَ الصيف بالشّباب، والخريف بالكهولة، والشتاء بالشيخوخة.

وقد تنازع مَنْ تقدَّم وتأخّر من حُكماء الأمم وفلاسفتهم في المبتدأ به من فصول السنة، ومداخلها، وأوائلها، ومددها، فمنهم من اختار تقديمَ الفصل الربيعيّ وصيّره أوّلَ السنة؛ لأنّه الوقتُ الذي يبتدىء النهار فيه بالزيادة، وأنه مع ذلك رطب والرطوبةَ وليّةٌ بأن تكونَ ابتداءَ الأشياء الكائنة.

ومنهم مَنْ اختار تقديمَ الانقلابِ الصيفي لأنه الوقتُ الذي فيه كمالُ طولِ النهار، وأنَّ مَدَّ النيلِ بمصر فيه يكون، وفيه تطلع الشّعرى اليمانيّة التي تقطع السماءَ عرضاً.

ومنهم مَنْ اختار تقديمَ الاعتدال الخريفيّ؛ لأنَّ جميعَ الثّمار فيه تُستَكْمَل، والبذور فيه تُبْذَر. وإنما سُمّي الخريفَ لأنّ الثمارَ تُخترَفُ فيه أي: تُجتَنَى. والعربُ تُسمّيه الوسميَّ بالمطر الذي يكونُ فيه، وذلك أنّ أوّلَ المطرِ يقعُ على الأرض، وهي بعيدةُ العهدِ بالرطوبة، وقد يبستْ بالصيف، فتسميّه بهذا الاسم لأنه يَسمُ الأرضَ، وهم يبتدئون من الأزمان بهذا

الفصل لأنّ المطرَ الذي به عيشُهم فيه يبتدىء، ومنهم مَن اختار تقديمَ الانقلابِ الشتويّ؛ لأنِ النهارَ فيه يَبتدِىء باسترداد ما نقص منه، والازديادُ في طوله. وقد ذكر ذلك أَبطلميوسُ القلوذي في كتابه المعروف بالأربع مقالات. وفي كتابه في الأنواء الذي ذكر فيه أحوالَ أيّامِ السنة كلّها وما يحدث فيها من طلوع الكواكب وغروبها، فإذ ذكرنا الأخبارَ عن قِسْمَةِ الأزمنة، وفصول السنة، وما اتّصل بذلك، فلنذكر الرياحَ ومهابّها، وما لحق بذلك.



ذكر الرياح الأربع ومهابّها

وأفعالها وتأثيراتها وما اتّصل بذلك من تقريظ مصر والتنبيه على فضلها وما شَرُفتْ به على غيرها

تنازع الناس في الرياح الأربع، ومهابّها، وطِباعها؛ فقال فريقٌ منهم: الرياحُ أربَعٌ: شمال، وجنوب، وصَبا، ودَبور. الصَّبا من المشرق، والدَّبور من المغرب، والشمال من تحت جَدْي الفرقدين، والجنوب من تحت جَدْي سُهيل. فالشّمالُ باردةٌ يابسة، وهي ما هبّ من ناحية الجِربي(١) وهو الشّمال وأشكالها من البروج، والكواكب، والأمّهات، وما يشاكل ذلك، ويضاف إلى البرد واليبس، والجنوب حارّةٌ رطَبَة وهي التي تَهبُّ من القِبْلة، وأشكالها كما وصفتُ ممّا

(١) - الجربياء بوزن كيمياء: الشّمال، أو بردها. والجرباء الناحية التي يدور فيها فلك الشمس، والقمر، والأرض.

يُضاف إلى الحرارة والرطوبة، والدبورُ باردةٌ رطبة، وهي التي تهبُّ من المغرب، وكذلك أشكالها، والصبّا حارّةٌ يابسةٌ، وهي التي تَهبُّ من المشرق، وأشكالها ممّا هو مضافٌ إلى الحرارة واليبوسة.

قال المسعوديُّ: وذهب فريقٌ آخر من حكماء الأمم من العرب، وغيرهم إلى أنّ الصبّا هي القبول، وهي ماهبّ من مطلع الشمس، والدّبور التي تهبّ من المغرب من دُبر مَنْ استقبل المشرق، فلذلك سميت الدّبور، والشمال التي تهبُّ عن شمالك إذا استقبلتَ المشرق، والجنوب التي تَهبُّ عن يمينك إذا استقبلت المشرق، وقد ذكرتِ العربُ ذلك في أشعارها قال أبو صخر الهذليّ:

إذا قلتُ هذا حينَ أَسْلو يَهيجُني

نسيمُ الصَّبامن حَيثُ يَطّلعُ الفَجْرُ

وقال هُدْبَةُ العُذْريُّ، وهو يومئذٍ بالمدينةِ مسجوناً:

ألا ليتَ الرِّياح مسخّراتٌ بحاجتنا تُباكِرُ أَوْ تؤوبُ

فَتُخْبِرَنا الشَّمالُ إذا أتَتْنا وتخبرُ أَهْلَنا عنّا الجَنُوبُ

وقال آخر:

أتاني نسيمٌ من صَبَاً بتحيَّةٍ

فَحمّلتُ مِثلَيها نسيمَ الدَّبورِ

قال المسعوديُّ: والرياح محدودة بحسب الآفاق تكون الآفاق اثني عشرة أفقاً، والرياح كذلك. فالشمال بالحقيقة هي التي تجيء من القُطْب الظاهر، والجنوب من القِطب الخفيّ، والصبّا من مَشْرق الاعتدال، والدَّبور من مغرب الاعتدال إلاّ أنّ الناسَ لَمّا لم يُبيَّنْ لهم في رأي العين تحديدُ هذه نسبوا كلّ ريحٍ تأتي من ناحية المشرق سواء كان من مشرق الاعتدال، أو من مشرق الصيفي، أو الشتويّ أو ما بينهما بعد أن تكونَ من المشرق إلى الصبّا، وكذلك فعلوا في الدبّور، واحتذَوا ذلك في الشمال. فَسمّوا كلّ ريحٍ تأتي من جانب القُطْب الظاهر، وما يليه من جانبيه الشّمال، وكذلك فعلوا بالجنوب أيضاً.

فأمّا الريحُ التي تُسمىّ ببلاد مصر المرِيسيّة مضافةً إلى بلاد مَرِيْس من أوائل أرض النّوبة في أعالي النيل، وهو صعيد مصر، فهي باردةٌ تقطع الغيومَ وتصفّي الهواء وتقوّي حرارةَ

الأبدان، وما يهبُّ من أسفل النيل من الريح، ويسمّى أسفلَ الأرض، فهي شمالٌ، وتفعل أضدادَ هذه الأفعال من تختير الأبدان[1]، وأهل مصر يُسمّونها البحريّةَ، وتَداوُمُها في الصيف يُطيّب هواءهم ويُبرِّد ماءهم في الليل والنهار، فقد تفعل ذلك الريح الغربية في هذا الفصل إلاّ أنّ الأغلبَ في ذلك الشمال، ويقعُ الوباءُ إذا دامت المرِيسيّةُ بمصر، كما يقع الوباء بالعراق إذا دامت الريحُ في أيّام البوارح[2]، والشمال عندنا ببغداد تهبُّ من أعالي دجلة ممّا يَلي سُرَّ مَنْ رأى، وتكريت، وبلاد الموصل، فتقطع السَّحابَ. وأيّامُ هبوب المرِيسيّة بمصر مقابلة لأيام البوارح ببغداد: لأنّ المرِيسيّةَ تَهبُّ بمصر في كانون الأول، وهو كيهك بالقبطية، والبوارح بالعراق تهبّ في حَزيران، والجنوب ببغداد تهبُّ من أسفل دجلة ممّا يلي بلاد واسط والبصرة، فتثور دجلة، وتكثر الغيومُ والأمطار، والبوارح تدوم أربعين يوماً والمريسيّةُ أربعين.

(١) – تختير الأبدان: إفسادها

(٢) – البوارح: جمع بارحة، وهي الريح الحارّة في الصيف تأتي من قبل اليمن.

والهرَمان العظيمان اللّذان في الجانب الغربيّ من فِسطاط مصر، وهما من عجائب بنيان العالم، كلّ واحدٍ منهما أربعمئة ذراع في سمك مثل ذلك، مبنّيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع كلّ ركنٍ من أركانهما يقابل ريحاً منها فأعظمها فيهما تأثيراً الجنوب، وهي المريسيّ؛ بتشقيقها الركن المقابل لها منهما. وأحدُ هذين الهرمين قبرُ أغاثديمون، والآخر قبرُ هَرْمِس، وبينهما نحو من ألف سنة -أغاثديمون المتقدم- وكان سكان مصر، وهم الأقباط، يعتقدون نبّوتهما قبل ظهور النّصْرانية فيهم، على ما يوجبه رأي الصّابئين في النبوّات لا على طريق الوحي، بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت وتهذّبت من أدناس هذا العالمْ فاتحدت بهم موادٌّ علويةٌ فأخبروا عن الكائنات قبل كونها، وعن سرائر العالم وغير ذلك ممّا يطول وصفُهُ، ولا تحتمل كثيرٌ من النفوس شرحَهُ. وفي العرب من اليمانيّة من يرى أنهما قبرُ شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم. وقد أتينا في كتاب «فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف» على

أخبار سائر أهرام مصر، وهي عند من ذكرنا من الصابئين قبورُ أجسادٍ طاهرة وأخبار البرابيّ التي بسائر بلاد مصر، وهي بيوتُ عبادتهم للكواكب السبعة: النيرين، والخمسة[1]، وغيرها من الجواهر العقليّة والأجسام السمائية التي هي وسائطُ بين العلّة الأُولى، وبين الخلق، وغيرِ ذلك من أخبار مصر، وعجائبها، وما خُصَّتْ به من الفضائل التي لا يشرك أهلَها فيها غيرُهُمْ من أهل البلدان، وهي محدودة على تخوم أفريقية وأرض السودان، وبحر الحجاز، وبحر الشأم، وهي البرزخ بين البحرين المذكورين في القرآن؛ لأنّ من الفَرَما التي على ساحل بحر الروم إلى القُلْزم التي هي ساحلُ بحر الصين مسيرةَ ليلةٍ، يُحْمَل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة، والطرائف، والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجوهر والرقيق، وغير ذلك من صنوف المآكل، والمشارب، والملابس، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها، ونيلها العجيب أمره، الشريف قدره، يمدّ إذا

(١) - النيّران: الشمس، والقمر. والخمسة الباقية هي: عطارد، الزّهرة، المرّيخ، المشتري، زُحل.

حسرت مياه الأمطار ويحسر إذا مدّت، يأتيها في وقت الحاجة إلى منفعته فيبدأ مخضراً ثم محمراً، ثم كَدِرا، ثم يتدافع بأمواجه، ويترامى بسيوله، فتكون زيادته في اليوم الإصبعَ والإصبعين، وأكثر فإذا تناهى مدُّه يغشى الأرض، وصارت القرى كالنجوم فوق الروابي والتلال. والمراكب تجرى بأهلها في حاجاتهم من بعضٍ إلى بعضٍ، قد أعدوا قبل ذلك من أقواتهم وعلوفة حيوانهم ما يكفيهم إلى حسوره عنهم، وإبان زراعتهم. فَدَهْرُها من أربعِ صفاتٍ؛ فضّةٌ بيضاء، أو مِسكةٌ سوداء، أو زبرجدةٌ خضراء، أو ذهبة صفراء.

وذلك أنّ نيلها يطبقها فتصير كأنها فضة بيضاء، ثم ينضب عنها؛ فتصير مِسْكةً سوداء، ثم تُزْدرع؛ فيصير زرعُها زبرجدةً خضراء، ثم يستحصد زرعها ويصفر؛ فتصير ذهبةً صفراء.

وكُورها نيّفٌ وثمانون كورةً ليس منها كورة إلاّ وفيها طريفةٌ، أو عجيبةٌ لا تكون في غيرها تُنسب إلى تلك الكورة، وتعرف بها، لكلّ كورةٍ منها مدينةٌ. وقد ورد التّنْزيل بذلك بقوله عزّ وجلّ عندَ ذكره قصّةَ موسى، وفرعون

﴿أَرْجِهْ وأخَاه وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِين﴾ لا مدينةَ منها إلاّ وفيها عجائب البنيان بالصخور، والمرمر، والبلاط، وعَمَد الرخام التي لا يوجد مثلُها في غيرها من البلدان، تُؤتى هذه المدن والكور كلُّها في الماء، ويُحمل ما يكون بها من الطعام والأمتعة إلى فِسطاطها؛ تحمل السفينة الواحدة حِملَ مئة بعير وأقلّ وأكثر. وهي حجازيّةٌ شأميةٌ جبليّةٌ.

أمّا صعيدُها، وهو أعلاها، فأرض حجازية حرُّها كحرّ الحجاز تُنبت أنواع النخيل الكبير، والأراك، والدّوم، والقَرَظ، والهليلج، والفلفل، والخيار شنبر.

وأما أسفلها، فشأميٌّ يُمطر، ويُنبت ثمارَ الشأم من الكروم، واللّوز، والجوز، وسائر الفواكه والبقول والرياحين.

وأما ناحية الإسكندرية، ولوبية، والمراقية، فبراري، وجبال، وغياض، وزيتون، وكروم جبلية بحريّة بلاد عسل ولبن ويذكر أهلها أنهم أكثر الناس قَنْداً وشهداً وعبداً ونَقَداً(١)

(١) - القند: بفتح القاف، وسكون النون: عسل قصب السكر إذا جُمِدّ فارسي معرب. والنقد بفتح النون والقاف: جنسٌ من الغنم.

وصوفاً وبغالاً وحميراً وخيلاً عتاقاً ونبيذ العسل الذي لا يفي به شـراب، ودقٌّ تنِّيس[1] ودمياط الذي لا يضاهيه دقٌّ، ومعدن التبر والزمرد الثمين الذي لا يوجد إلا بها، والقراطيس، ودُهْنِ البلسان، وزيت الفجل، و القمح اليوسفيّ، وهو أعظم القمح حبّاً وأطولُه شكْلاً، وأثقله وزناً، وطُرُز[2] البهْنَسا، وأسيوط وأخميم، ومن نواحي معادنها تُحمل الزرافة والكركدن وعَناق الأرض[3]. وأنَّ وفاءَ خراجها ست عشرة ذراعاً. فإن زاد في النيل ذراعاً زاد في الخراج مئة ألف دينار بما يُروى من الأعالي، فإن زاد ذراعاً أخرى نقص من الخراج مثلُها لما يستبحرُّ من البطون والأسافل.

والمعمولُ عليه في وقتنا هذا، وهو سنة ٣٤٥ أنه إن زاد على الست عشرة ذراعاً، أو نقص عنها، نقص من خراج السلطان. قالوا: وجميعُ البلدان في سائر النواحي والآفاق إنّما تعيش بالأمطار، وتهلك بإبطائها عنها؛ ومصر مستغنية

---

(١) - الدقّ: الدقيق.

(٢) - الطّرز: الثياب الجيدة.

(٣) - عناق الأرض: دابة كالفهد من الجوارح الصائدة.

عن المطر غير مرتاحة ولا محتاجة إليه، وسائر أنواع الفواكه والثمار، وكثير من الحيوان والألبان لها في جميع البلاد أزمنة، وأوقات لا توجد إلاّ فيها، ولا تكون إلاّ معها، وذلك بمصر موجود غير معدوم في سائر فصول السنة، وغير ذلك من فضائلها وخصائصها.

فإذْ قد ذكرنا الرياحَ ومهابَّها، وما اتَّصلَ بذلك؛ فلْنذكرِ الأرضَ، وشكلها، ومِساحتها، والنواحي، والآفاق وغير ذلك.



ذكر الأرض وشكلها

وما قيل في مقدار مِساحتها وعامرها، وغامرها، والنواحي، والآفاق، وما يغلب عليها وتأثيرها في سُكّانها،

وما اتصل بذلك

قَسمَ اللّه تبارك وتعالى الأرضَ قسمين: مَشْرقاً، وَمَغْرباً. فصار المشرقُ، والتيمن؛ وهو الجنوب جوهراً واحداً؛ لغلَبة الحرارةِ عليهما، وصارت جهةُ المغرب، والجِربيّ؛ وهوالشمال جوهراً واحداً؛ لغلبة البرودةِ عليهما، وشدتها فيهما، وذلك لبعد الشمس من ناحية الجربيّ، لأَنّ المحور على تلك الناحية وهي أشدّهما ارتفاعاً، فمن أجل ذلك صار الجربيّ بارداً رطباً، وصار المغرب أقلّ برداً من الجربيّ، وأكثر يَبَساً؛ لانحطاط الفلك هناك، وهاتان الجهتان: المشرق، والتيمن بخلاف ذلك لِدُنوِّ الشمس منهما.

والعالم أربعة أرباع: فالربع الشرقيّ؛ وهو ما تسافل عن خط الجنوب والشمال إلى المشرق، فهو ربع مذكرّ يدلّ على طول الأعمار، وطول مُدَد الملك والتذكير وعزّة، الأنفس، وقلّة كتمان السرّ، وإظهار الأمور، والمباهاة بها، وما لحق بذلك، وذلك لطباع الشمس وعلمهم الأخبار، والتواريخ، والسير، والسياسات والنجوم.

وأمّا أهل الربع الغربيّ، فإن الغالبَ عليه التأنيث إلاّ ما استولت عليه الكواكبُ المذكّرة، كما يغلب التذكير على المشرق إلاّ ما غلبته عليه الكواكب المؤنثة، وأهله أهلُ كتمانٍ للسرّ، وتديُّن وتألُّه، وكثرة انقياد إلى الآراء والنحل، وما لحق بهذه المعاني؛ إذْ كان من قسم القمر.

وأمّا أهلُ الربع الشماليّ، وهم الذين بعدت الشمسُ عن سَمْتِهِم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة، ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضَعُفَ عندهم؛ لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البردُ والرطوبة، وتواترت الثّلوج عندهم والجليد، فقل مزاجُ الحرارة فيهم، فعظمت

أجسامُهم، وجفت طبائعهم، وتوعَّرت أخلاقهم، وتبلّدت أفهامهم، وثقلت ألسنَتُهم، وابيضّتْ ألوانُهم، حتى أفرطت؛ فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم، وازرقّت أعينُهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم، وَسَبطتْ شعورهُم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب، ولم يكن في مذاهبهم متانة؛ وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة.

ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالبُ عليه الغباوةُ والجفاء، والبهائمية. وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال، وكذلك مَنْ كان من الترك واغلاً في الشّمال. فلبعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها؛ كثرت الثلوجُ فيهم وغلبت البرودةُ والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامُهم، وغلظت ولانت فقاراتُ ظهورهم، وخرز أعناقهم؛ حتى تأتّى لهم الرمُى بالنشّاب في كرِّهم وفرّهم، وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم، فاستدارت وجوههم وصغُرت أعينُهم؛ لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكّنتِ البرودة من أجسادهم؛ إذ كان المزاجُ البارد يولّد دماً

كثيراً، واحمرّت ألوانُهم إذ كان من شأن البرودة جمعُ الحرارةِ وإظهارُها.

وأمّا من كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيِّفٍ وستّين ميلاً يأجوجُ وماجوجُ، وهم في الإقليم السّادس، فإنّهم في عِداد البهائم.

وأمّا أهلُ الربع الجنوبي كالزنج، وسائر الأحابش، والذين كانوا تحتَ خطّ الاستواء وتحت مُسَامتة الشمس؛ فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة، وقلة الرطوبة؛ فاسودّت ألوانُهم واحْمرت أعينُهم، وتوحّشَت نفوسهم؛ وذلك لا لتهاب هوائهم، وإفراط الأرحام في نُضجهم حتى احترقت ألوانُهم وتفلفلت شعورهُم لِغلَبةِ البُخار الحارّ اليابس، وكذلك الشعور السّبْطة إذا قربت من حرارة النّار دخلها الانقباض ثم الانضمام، ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة، وبعدها عنها.

والأرض قسمان: على ما قدمنا أحدُهما مسكون، والآخرُ غيرُ مسكون، والعامر المسكون منهما على أقسام:

أحدُهما مُفرِط الحرّ، وهو ما كان من جهة الجنوب؛ لأنّ الشمسَ تقرب منه؛ فيلتهب هواؤه، والآخر الشمال، وهو مفرطُ البرد؛ لبعد الشمس عنه. وأمّا المشرقُ والمغرب، فمعتدلان وإنْ كان فضلُ المشرق أظهرَ واعتدالُه أشهرَ.

وأمّا الذي ليس بمسكون فعلى قسمين أيضاً: إمّا أنْ يُفرِطَ فيه البرد ببعدِ الشمس عنه، أو يُفرِطَ فيه الحرُّ؛ لقربها منه فلا يتركّبُ هناك حيوانٌ، ولا ينبتُ نباتٌ. فالموضع الذي يكون بُعْدُه في الشمال عن خطّ معدّل النهار ستاً وستين درجةَ لا يمكنُ أَنْ يكونَ فيه نشوءٌ لإفراط البردِ عليه لبعد الشمس عنه، وإنّ ما كان عرضُهُ ستّةً وستّين جزءاً وتسعَ دقائق تكون السنةُ فيه يوماً وليلةً؛ ستّةُ أشهرٍ نهار لا ليلَ فيه، وستة أشهر ليلٌ لا نهار فيه. يبطل نهارُهُ في الشتاء، وليلُهُ في الصيف. والموضع الذي بُعْدُهُ في الجنوب عن خطّ معدّل النهار تسعَ عَشْرَةَ درجةً لا يمكن أيضاً أن يكونَ فيه نشوءٌ لإفراطِ الحرّ عليه؛ لقرب الشمس منه.

قال المسعوديُّ: فأمّا أبطلميوس، فإنّ ما وُجِدَ عِنْدَه من العِمارة في جهة الشمال الجزيرةُ المعروفة بثولي في أقصى بحر

المغرب من الجهة الشمالية، وأن عرضها من معدّل النهار في الشمال ثلاثة وستّون جزءاً، وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب إليه في حدود المعمور من الأرض، وذهب أبطلميوس إلى أنّ نهاية العمارة في جهة الجنوبيّ تحتَ الموازي الذي بُعْدُهُ من معدّل النهار ستّةَ عَشَرَ جزءاً وخمسٌ وثلاثون دقيقة وربع وسدس. وذهب قوم إلى أن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب أحدٌ وعشرون جزءاً وخمسٌ وثلاثون دقيقة، وإلى هذا ذهب يعقوبُ بنُ إسحاق الكندي[1] في كتابه في رسم المعمور من الأرض. وسواء قيل: عرضُ الموضع، أو قيل: بُعْدُهُ عن خط الاستواء، أو قيل: ارتفاع القطب عليه، فمقدار نهاية العِمارة في الشمال إلى نهايتها في الجنوب ثمانون جزءاً يكون ذلك عندَ هؤلاء من الأميال خمسةَ آلاف ميلٍ، وأقلّ من أربعمئة ميل.

---

(١) - يعقوب بن إسحاق الكندي. أبو يوسف، فيلسوف العرب والإسلام في عصره نشأ في البصرة، وانتقل إلى بغداد. اشتهر بالطب، والفلسفة، والموسيقى، والفلك. ألف وترجم كتباً كثيرة، توفي نحو سنة (٢٦٠هـ - ٨٧٣ م).

وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسِّيلي إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم ياجوج وماجوج[1] الذي بناه الإسكندر دافعاً لياجوج وماجوج عن الفساد في الأرض، والجبل الذي وراءه ووقع في فَجِّه الردمُ، ومنه كان مخرجُهم. بدؤه خارجَ العمران في الإقليم السابع، طرف مبدئه مستقبل المشرق، ثم ينعطف إلى ناحية الجنوب، ويستقيم ممُّرهُ طولاً إلى أن ينتهي إلى بحر أوقيانُس المظلم المحيط، فيتصل وأقصى عمران المغرب ينتهي إلى بحر أوقيانُس المحيط أيضاً، وكذلك ينتهي أقصى عمران الشّمال إلى هذا البحر أيضاً، وأقصى عمران الجنوب ينتهي إلى خطّ الاستواء الذي يكون الليلُ والنّهارُ فيه سَواءً أبداً. وجزيرةُ سَرَنْديبَ من البحر الصيني على هذا الخطّ أيضاً.

قال المسعوديُّ: وذكر من عُنيَ بمِساحة الأرض وشكلِها أنّ تدويرَها يكون بالتقريب أربعةً وعشرين ألف ميلٍ، وذلك تدويرها مع المياه والبحار، فإنّ المياه مستديرةٌ مع الأرض،

(١) – هو ما يسمّى بسدّ الصين.

وحدُّهما واحد فكلّما نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تّم باستدارة الماء وطوله وعرضه، وذلك أنَهم نظرو إلى مدينتين في خطٍ واحدٍ، إحداهما أقلُّ عرضاً من الأخرى، وهما الكوفةُ، ومدينةُ السلام، فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقلّ من الأكثر ثم قسموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما؛ فكان نصيبُ الدرجة ممَّا يُحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستّةً وستين ميلاً، وثُلثي ميلٍ على ما ذكر أبطلميوس. فإذا ضربوا ذلك في جميع دَرج الفلك التي هي ثلاثمئة وستون درجةَ كان ذلك أربعةً وعشرين ألف ميل، وكان قُطرها الذي هو طولُها، وعرضُها، وغِلَظها سبعة آلاف ميل وستمئة وسبعة وستين ميلاً، والميلُ أربعة آلاف ذراع بالسوداء، وهو الذراع الذي وضعه المأمون لِذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل، والذراع أربع وعشرون إصبعاً والإصبع ستُّ شعَيرات مضموم بعضُها إلى بعض، والفرسخُ بهذا الميل ثلاثةُ أميالٍ. ومنهم من يجعلُ الميلَ ثلاثةَ آلافِ ذراعٍ، والفرسخَ أربعةَ أميال، وكلاهما يؤولان إلى شيء واحدٍ.

وفيما ذكرناه من مقدار حصّة الدرجة من الأميال تنازعٌ؛ فمنهم من رأى أن ذلك سبعةٌ وثمانون ميلاً، ومنهم من رأى أنّ ذلك ستّةٌ وخمسون ميلاً، وثُلثَيْ ميلٍ، والمعوَّلُ في ذلك على ماحكَيناهُ عن أبطلميوس.

والأرض من أربعة جواهر من الرمل، والطين، والأحجار، والأملاح. وجوفُها أطباقٌ يتخرَّق فيها الهواء، ويجول فيها الماء مواصلاً لها كمواصلة الدم للجسد. فما غلب عليه الهواءُ من الماء كان عذباً شروباً وما امتنع الهواءُ من التمكُّن منه، وغلبت عليه أملاح الأرض، وسبخها صار ملحاً أجاجاً. وأنّ كونَ مياه العيون والأنهار في الأرَضين كالعروق في البدن، وأنّ الحكمةَ في كونِ الأرض كُرِيَّةَ الشكْل؛ أنّها لوكانت مسطوحة كلّها لا غورَ فيها ولا نَشزَ يخرقها؛ لم يكن النبات وكانت مياه البحار سائحةً على وجهها؛ فلم يكن الزرعُ، ولم يكن لها غدران تُفضِي مياهُ السّيول إليها، ولاكانت لها عيون تجرى تنبع بالماء أبداً؛ لأنّ مياهَ العيون لوكانت منها تخرج دائماً لفنيت ولصار الماءُ أبداً غالباً على

وجه الارض؛ فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات. فجعل عزّ وجلّ منها أنجاداً، ومنها أغواراً ومنها أنشازاً، ومنها مستوية، وأماّ أنشازُها، فمنها الجبالُ الشامخة، ومنافعها ظاهرة في قوّة تَحدُّر السيول منها فتنتهي إلى الأرَضِين البعيدة بقوة جريها ولتقبل الثلوج؛ فتحفظها إلى أن تنقطعَ مياه الأمطار وتُذيبها الشمسُ؛ فيقوم ما يتحلّبُ منها مقامَ الأمطار، ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشرَ للمياه لِتجريَ من تحتها ومن شعوبها وأوديتها، فيكون منها العيونُ الغزيرة ليعتصمَ بها الحيوان، ويتّخذها مأوى ومسكناً، ولتكونَ مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرَضِين من غَلَبَة مياه الأمطار عليها، وما لا يُحصيه إلاّ خالقُها.

قال المسعوديُّ: وقد تختلف قُوى الأرَضِين، وفعلُها في الأبدان لثلاثةِ أسباب: كمّيةِ المياه التي فيها، وكميّة الأشجار، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها، فالأرضُ التي فيها مياه كثيرة تُرطِّبُ الأبدانَ، والأرضُ العادمةُ للمياه تجففُها. وأمّا اختلاف قوّتها من قِبَل الأشجار فإنّ الأرضَ الكثيرةَ الأشجار؛ التي

فيها تقوم لها مقام السُّترة، فبهذا السّبب تسخن. والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار.

وأمّا اختلافُ قواها من قِبَل مقدار عُلوّها وانخفاضها؛ فَلأنّ الأرضَ العاليةَ المشرفةَ فسيحةٌ باردةٌ، والأرضَ المنخفضةَ العميقةَ حارّةٌ وَمِدَةٌ[1]. ومنهم من رأى أنّ أصنافَ اختلاف البلدان أربعة: أولُها النواحي، والثاني الارتفاع والانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها، والرابع طبيعة تربة الأرض وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدمنا. وأمّا اختلافُها من جهة مجاورة الجبال لها، فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سببَ امتناع الريح الجنوبية، وإنّما تهبُّ فيه الشمالية فقط. ومتى ما كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه، وأمّا اختلافُها لمجاورة البحار لها، فمتى كان البحر من البلد في ناحية

---

(١) - ومدت الليلة: اشتدّ حرّها.

الجنوب كان ذلك البلدُ أسخن وأرطب، وإن كان من البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبردَ وأيبسَ. وأمّا اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الأرض صخريّةً جعلت ذلك البلد أبردَ وأجفَّ، وإن كانت تربةُ البلد جصيّةً جعلته أسخنَ وأجفَّ، وإن كانت طينيَّةً جعلته أبردَ وأرطبَ.

وبقاعُ الأرض مختلفةٌ بحسب اختلاف الطبائع، وما تؤثِّره فيها الأجسامُ السمائية من النيِّرين، وغيرهما. فغلب طبعُ كلّ أرضٍ على ساكنها، كما نشاهد الحِرارَ السُّودَ والأغوار؛ وَحْشُها إلى السَّواد، ووحش الرمال البيض على ذلك اللَّون. فإن كانتِ الرمالُ أحمر(١)؛ فوحشُها عُفْرٌ؛ وهو لونُ التراب، وكذلكَ وحشُ الجبال من الأراوى(٢) وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال؛ إنْ حُمراً، وإنْ بيضاً، وإنْ سُوداً.

وعلى هذا السبيل تكونُ القملةُ في الشعر الأسود سوداء، وفي الشعر الأبيض بيضاء، وفي المشيب شهباء، وفي الأحمر حمراء.

---

(١) -كذاوردت. والصواب: حمراً.

(٢) - مفردها أرويّة، وهي وعول الجبال.

ومن الفلكيّين من يرى أنّ كلّ جزءٍ من أجزاء الأرض يناسب جزءاً من أجزاء الفلك، ويغلب عليه طباعُه؛ لأنّ في أجزاء الفلك المضيء، والمظلم، والفصيحَ، والأخرسَ، وذا[1] الأصوات، والمجوّف، وغير ذلك من نعوتِ الدرج، فلذلك يكون كلامُ أهل الموضع الواحد مختلفاً على قدر ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس، ثم يختلف أهلُ اللسان الواحد في المنطق، واللهجات.

قال المسعوديّ: وقد ذمّ أبطلميوس القلوذي آراءَ كثيرٍ ممّنْ تقدّمه ممّن عُنِيَ بعلم معمور الأرض، وغايات ذلك، ونهاياته مثل: مارينوس، وأبرخس، وطيمستانس، وغيرهم في قَبول أقاويل المخبرين من التجّار وغيرهم من نهاية المعمور، وأنّ ذلك قد يدخلُه الكَذِبُ، والزيادة، والنقصان فيما أخبروا به من وصولهم إلى هذه المواضع النائية، والعمائر القاصية في البر والبحر، ثم اضطرّ أبطلميوس لَمّا أراد عِلْمَ ذلك، والوقوف عليه إلى أن يستعملَ ماأنكره على مَنْ ذكرنا

(١) - في الطبعة الأوربية: (ذو) والتصويب للصاوي

من جهة الخبر؛ فبعث بثقات من رُسله في الآفاق ليعرفَ الغايات من عُمران الأرض المسكونة، فعمل على أخبارهم مُقايساً بها ما وجدَه بالدلائل النجوميّة، وهذا دخولٌ منه فيما أنكره، وقد ذكر في كتابه المترجَم «بمسكون الأرض» بلداناً ومدائن كثيرة، ووصف أطوالها، وعروضها ورسم للناس صورةَ معمور الأرض على ما رسم فيها من مواضع الكور، والبحار، والأنهار في الطول والعرض، وقد قال أرسطاطاليس في المقالة الثانية من كتابه في الآثار العلوية: لقد أعجبُ من الذين يصورّون أقطارَ الأرض، وأبعادها؛ فإنهم يصورّون الأرض المعمورةَ مستديرةً، والقياسُ والعيانُ يشهدان على أنها على خلاف ذلك، وأنّه لا يمكن أن يكون ذلك. أمّا القياس فيثبت أنّ عرض الأرض محدودٌ وأنّ طولها ليس بمحدود أعني: أنّ طول الأرض كلّه يمكن أن يسكن لحال مزاجه، وذلك أنّ الحرّ والبردَ لا يكونان مفرطَين في طول الأرض لكن في عرضها، ولو لم يكن البحرُ يمنع لكان طول الأرض كلّه مسلوكاً. قال والعيان يشهد أيضاً على أنّ طولَ الأرض يسلك في البر والبحر؛ لأنّ الطّولَ مخالفٌ للعرض كثيراً.

قال المسعوديُّ: وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف» ما ذهبت إليه الفرس والنبط في قسمة المعمور من الأرض وتسميتهم مشارق الأرض، وما قارب ذلك من مملكتها خراسانَ وخُرْ: الشمسُ فأضافوا مواضعَ المطلع إليها. والجهة الثانية وهي المغرب خُرْبَرَان، وهو: مغيبُ الشمس. والجهة الثالثة وهي الشمال باختر. والجهة الرابعة وهي الجنوب: نيمروز. وهذه ألفاظٌ يتّفقُ عليها الفرسُ والسريانيون، وهم النّبَطُ. وما ذهب إليه اليونانيون، والروم في قسمة المعمور من الأرض على ثلاثة أجزاء، وهي: أورفا، ولوبية، وآسية، وغير ذلك من كلام سائر الأمم في هذه المعاني فلنقلِ الآن في الاقاليم، وصفتها، وما قيل في. قسمتها وغير ذلك.

* * *

ذكر الأقاليم السبعة

وقسمتها، وحدودها، وما قيل في طولها وعرضها،

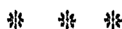
وما اتصل بذلك

كلُّ ما كان من الأرض معموراً؛ فهو مقسومٌ بسبعةِ أقسامٍ يُسمّى كلُّ قسمٍ منها: إقليماً. وقد تنازع مَنْ عُنِيَ من حُكَماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومِساحةِ الأرض في هذه الأقاليم السبعة أفي الشمال والجنوب، أم في الشمال دونَ الجنوب؟ فذهب الأكثرون إلى أنّ ذلك في الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة في الشمال، وقلّتها في الجنوب. ورأى قومٌ أَنّ القدماء إنّما قصدوا لقسمة الأقاليم السبعة في الجانب الشماليّ من خطّ مُعدّل النّهار، ولم يقسموا في الجنوبيّ شيئاً لقلّة قَدْر العمارة في الجنوب عن الخطّ. وذهبَ هرمِسُ في

متّبعيه من المصريّين، وغيرهم إلى أنّ في الجنوب سبعةَ أقاليمَ، كما هي في الشّمال. وكان يجعل قِسْمةَ أقاليم العمران من الشّمال مدوّرة؛ فيجعل الإقليمَ الرابع؛ وهو إقليمُ بابل واسطاً لها، وستّةً دائرةً حوله، وأن كلّ إقليم سبعمائة فرسخ في مثله فالإقليمُ الأوّلُ: الهندُ، والثاني: الحجازُ والحبشة. والثالث: مصرُ، وإفريقيّةُ. والرابع: بابل، والعراق. والخامس: الرومُ. والسادس: ياجوج وماجوج. والسّابعُ: يوماريس، والصّين. ويبتدئ جميعُها من المشرق مما يمرُّ ببلاد الصين وغيرها، فحدُّ الإقليم الأوّل البحرُ ممّا يلي المشرق، والثاني البحر مما يلي الحجاز، والثالث الديبل من ساحل المنصورة من أرض السند، والرابع حدُّ الإقليم السابع مما يلي الصّين أطول ساعات نهاره ثلاثَ عَشْرة ساعةً، وحدُّ الإقليم الثاني البحر ممايلي عُمان إلى الشّحر، والأحقاف إلى عدنٍ أبْيَن إلى جزائر الزنج والحبشان، وأطولُ ساعات نهاره ثلاثَ عَشْرةَ ساعةً ونصف، وحدُّ الإقليم الثالث ينتهي إلى أرض الحبشة ممّا يلي الحجازَ إلى بحر الشأم الذي بين مصر، وأرض الشام إلى وَسَط البحر الذي يلي الأندلس ممّا يلي المغربَ. أطولُ ساعات

نهاره أربع عشرة ساعة. وحدُّ الإقليم الرابع الثعلبيّة، والثاني وسط نهر بَلْخ، والثالث خلف نَصيبين باثني عشر فرسخاً من ناحية سنجار، والرابع وراء الديبل من ساحل المنصورة من بلاد السند بستّة فراسخ. أطولُ ساعاتِ نهاره أربعَ عَشْرةَ ساعةً ونصف ساعة. وحدُّ الإقليم الخامس بحرُ الشّام إلى أقصى أرض الروم ممايلي البحر إلى تراقية وبلادِ بُرْجان والصقالبة والأَبَر إلى حدّ أرض ياجوج وماجوج إلى حد الإقليم الرابع مما يلي نَصيبين. أطولُ ساعاتِ نهاره خمسَ عشرةَ ساعةً، وحدّ الإقليم السادس من الصين إلى حدّ الإقليم الخامس إلى البحر مما يلي المشرق. أطولُ ساعات نهاره خمسَ عشرهَ ساعةً ونصف، وحدُّ الإقليم السابع أرضُ الهند إلى حدّ الإقليم الرابع إلى حدّ الإقليم السادس إلى البحر. أطولُ ساعات نهاره ستّ عَشْرةَ ساعةً. وفي كتاب مارينوس أنّ مِساحة هذه الأقاليم في الطول ثمانيةٌ وثلاثون ألفاً وخمسمئة فرسخ في عَرْض ألف فرسخ وسبعمئة وخمسة وسبعين فرسخاً، وقد أنكر ذلك على مارينوس جماعةٌ ممّنْ تقدّم وتأخّر.

قال المسعودي: بينَ الأسلافِ والأخلاف من حُكَماء الأمم في مقادير هذه الأقاليم السبعة وأطوالها، وعروضها، وعدد ساعاتها، وابتدائها، وغاياتها، وما فيها من مساكن الأمم في البرّ والبحر تنازعٌ كثيرٌ، وقد أتينا على شرح كثيرٍ من ذلك فيما تقدّم من كتبنا. ورأيتُ هذه الأقاليم مصورّةً في غيرِ كتابٍ بأنواع الأصباغ. وأحسنُ ما رأيتُ من ذلك في كتاب «جغرافيا» لمارينوس، وتفسير جغرافيا: قطع الأرض. وفي الصورة المأمونيّة التي عُمِلت للمأمون اجتمع على صنعتها عِدّةٌ من حُكَماء أهل عصره، صُوِّرَ فيها العالَمُ بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم، والمدن وغير ذلك، وهي أحسنُ مّما تقدّمها من جغرافيا أبطلميوس، وجغرافيا مارينوس، وغيرها.



ذكر قسمة الأقاليم

على الكواكب السبعة – الخمسة والنيّرين –

قَسَمـوا هذه الأقـاليمَ بينَ الكواكب السـبـعـة على قَدْر تواليـهـا، وتتـابعـهـا في الفلك. فـالإقليمُ الأَوّلُ لِزُحل، وهو كـيـوان بالفـارسيـة. له من البـروج الجـدي، والدّلو. الإقـليم الثاني للمشتري وهو بالفـارسيّة أَوْرمُزْد. له من البروج القوس والحوت. الإقليم الثالث للمريخ وهو بالفارسية بهْرام. له من البـروج الحـمل والعـقـرب. الإقليم الرابع للشـمس وهو بالفـارسـية خُرْشـاد، ومن أسـمائهـا آفـتـاب. لهـا من البـروج الأسد. الإقليم الخامس للزّهرة وهي بالفارسيّة أناهيد. لها من البـروج الثـور، والميـزان. الإقليم السـادس لِعطارد وهو بالفارسيّة تِير. له من البروج الجوزاء والسنبلة. الإقليم السابع للقـمر وهو بالفـارسيّـة مـاه. له من البـروج السـرطان، واسم

الإقليم بالفارسيّة كَشْوَر. واسم الفلك إسْبِهْر، وذلك بالفارسيّة الأُولى، وبهذه الفارسيّة حايدان.

قال المسعوديُّ: وفيما حكيناه تنازعٌ بينَ حُكَماء الأُمم من الفرس، واليونانيين، والروم، والهند، والكلدانيين، وغيرهم. والأَشْهَرُ ما ذكرناه. وقد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا، وكذلك ما تنازعوا فيه من اشتراك البروج الاثنى عَشَرَ في الأقاليم السبعة، وخاصة الكواكب السبعة في الآراء والملل، والنواحي والآفاق، وغبر ذلك.

قال المسعوديُّ: ونحن ذاكرون الإقليمَ الرابع وما بان به عن سائر الأقاليم، وجلالَة صُقْعه، وشرفَ مَحلّه؛ إذ كان به مَوْلدُنا، وفيه منشؤنا، وكُنَّا أولى الناسِ بتقريظهِ، والإبانهِ عن شرفهِ وفضله وإن كان ذلك أَشْهرَ منْ أن يحتاجَ فيه إلى إطنابٍ، ولا يَحويْهِ لِعظَمِهِ كتابٌ.

* * *

ذكر الإقليم الرابع

ووصفه وفضله على سائر الأقاليم، وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطوالها، والأهوية، والترب، والمياه وتأثيراتها، وغير ذلك.

الإقليم الرابع يُضاف إلى بابل ويُعرَفُ بها. وكان اسمه بالكلدانيّة وهي السريانيّة خُنيرَث وبه كانت تسميّة جميع طبقات الفرس وكانت بابل تُسمَّى بالفارسية، والنبطية بابيل. ومن حُكَماء الفرس، والنَّبط من يذهب إلى أنها سُمّيت بهذا الاسم اشتقاقاً من اسم المشتري، وهو بلغتهم الأولى بيل لتولّيهِ هذا الإقليم، ووقوعه في قسمته. وحدود هذا الإقليم الشريفِ المفضَّل على سائر الأقاليم مما يلي أرض الهند الديبل، ومما يلي الحجاز الثعلبيّة من طريق العراق إلى الحجاز، ومما يلي

الشأم نَصيبين، ومما يلي خُراسان نهر بلخ. وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ما قيل في حدوده أيضاً عند ذكر الأقاليم. فعلى هذا التحديد قد دخل في هذا الإقليم ما دونَ النهر من خراسان والجبال كلّها من الماهات، وغيرها، والعراق بأسره وغير ذلك، ولم يعرف ما حواه هذا الإقليم من ذلك أجمع إلاّ ببابل لفضل موضعها، و جلالة صُقْعها؛ لأنّ ذوي المعرفة من الناس إنّما ينسبون الشيء إلى الأفضل المشهور. ولولا أنّ بابل كذلك ما نسبوا هذا الإقليم مع سَعَةِ أرضه، وجلالة ما حوى من البلدان إليه، وهذا الإقليم وسط الأقاليم السبعة، وأعدلها، وأفضلها، وبلد العراق وسطه فهو شَرَفُ الأرض وصفوتها؛ أعدلها غذاءً وأصفاه. هواءٌ متوسّط بين إفراط الحرّ والبرد، وموضعه الموضع الذي ينقسم فيه الزمان أربعةَ أقسام فلا يخرج ساكنوه من شتاءٍ إلى صيف حتى يمرّ بهم فصلُ الربيع، ولا من صيف إلى شتاء حتى يمرّ بهم فصلُ الخريف، ولما ذكرنا من توسّطه كانت ملوك سوالف الأمم تحلّه إذْ كان نسبة الملك إلى المملكة التي هو عليها نسبة القلب إلى البدن الذي هو فيه، فكما كان اللّه عز وجل بلطيف حكمته إذ

خلق القلب أشرف الأعضاء أحلَّه من البدن أوسَطَه كانت هذه سبيلَ الملك فيما يسكنه من مملكته، وكانت قدماء الملوك تقول: الملكُ الأعظم مركزٌ لدائرة ملكه، بُعْدُه من محيطها بُعْدٌ واحدٌ. وَتدٌ مركوز، وعلَم منشور منه يستمدُّ التدبير، وإليه تُردُّ الأمور. لذلك يقال إن الملكَ الأعظم والمدبّر الأكبر ينبغي أن يكونَ منزله الواسطة من هذا الإقليم وهو الرابع. والعراقُ أشرفُ المواضع التي اختارتها ملوكُ الأمم من النماردة، وهم ملوك السريانيين الذين تُسمّيهم العربُ النبطَ، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم من الفرس الأولى إلى الساسانية، وهم الأكاسرة، وهي حيث تلتقي دجلةُ والفرات وما قَرُبَ من ذلك، وهي من السّواد البقعة التي حدُّها الزّابي فوقَ سُرَّ مَنْ رأى ممّا يلي السِّن، وتكريت، وناحية حلوان مما يلي الجبل، وهيت مما يلي الفرات، والشأم، وواسط من أسفل دجلة والكوفة من سقي الفرات إلى بَهَنْدَف، وبادرايا، وباكُسايا، وهي بالنبطيّة تَرْقُف من أرض جُوخَى، وهذه الأرض هي لُبُّ إيرانشهر التي تفانت عليها ملوكُ الأمم؛ فكان اختيارهم بفضل آرائهم؛ المصيف بالجبال ليسلموا من سمائم العراق وكثرة ذبابه وهوامِّه، والمشتى بالعراق ليسلموا من زمهرير الجبل وكثرة ثلوجه وأمطاره ووحوله وأقذاره.

وقد كان أبو دُلَف القاسمُ بنُ عيسى العجلي[1] يفعل ذلك، فقال مفتخراً به في كلمة له طويلة:

وإني امْرؤ كِسْرَويُّ الفَعَالِ ... أَصِيفُ الجِبالَ وأَشْتُو العِرَاقا
وأَلْبَسُ للحَرْبِ أثوابَها ... وأَعْتَنِقُ الدَّارِعِينَ اعتِناقا[2]

ولَمّا بلغ عبدَ اللّه بنَ طاهر[3] هذه الأبيات بعد افتتاحه مصر، والشأمات قال يردُّ عليه:

أَلَم تر أنا جَلَبْنَا الجِيادَ ... إلى أرض بابلَ قُبّاً عِتاقا
إلى أنْ وَرَدْنَ بأدوائها ... قلوبَ رجالٍ أرادوا النفاقا
وأنت أبا دُلَفٍ ناعمٌ ... تَصِيفُ الجبالَ وتَشْتُو العِراقا

---

(١) – أبو دلف: قائد، أديب، شاعر. مغنٍّ. من رجال الدولة العبّاسيّة. أمير الكرج، وسيّد قومه. له ديوانُ شعر ذكره صاحب الفهرست، و«سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». توفي في نحو سنة ٢٢٦هـ

(٢) – الدارعون: لابسو الدروع من الفرسان والمقاتلين.

(٣) – هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، ولد سنة: ١٨٢هـ = ٧٩٨م وتوفي سنة: ٢٣٠هـ = ٨٤٤م.

وكانت الفرس تسمّي هذا الصقَع أيضاً إيرانشهر إضافة إلى أيرَج بن إفريدون حين قسم إفريدون الأرض بين ولده الثلاثة فجعل لسَلم الروم، وما يليهم من الأمم، ولطُوج التُّركَ وما يليها من الأمم، ولأيرج العراق وما يليه من الأمم، فأضيف إليه. وفي ذلك بقول شاعرهم في الإسلام مفتخراً:

وَقَسَمْنا مُلْكَنا في دهرِنا
قِسْمَةَ اللَّحْمِ على ظَهْرِ الوضم
فجعلنا الشأمَ والرومَ إلى
مَغْربِ الشمسِ إلى الغطريفْ سَلْم
ولِطُوج جُعِلَ التركُ لُه
فبلادُ الترك يحويها ابنُ عَمْ
ولإيرانَ جعلنا عَنْوةً
فارسَ المُلْك وفُزنا بالنّعم

ومنهم من يذهب إلى أنَّ معنى إيرانشهر بلد الخيار لأن إير بالفارسية الأولى اسم جامع للخير والفضل، ومن ذلك

قولهم لرئيس بيت النار إيْرَبذ أي رئيس الخيار الفاضلين فَعُرِّبَ فقيل: هربد. والنبط تذكر أنّ هذا الإقليم لها، ملكته في سالف الدهر، وأن ملوكهم النماردة منهم نمرود إبراهيمَ الخليل، والنمرود سمة لملوكهم وأن الفرس كانت بفارس والماهات وغيرها من بلاد الفَهْلَويين وأن هذا الصقع مضافٌ إليهم، وإنما هو بلد أريان شهر؛ معنى ذلك بلد السِّباع لأن السّباع تُدعى بالنبطية أريان أحدها أريا فَشُبِّهوا بالسباع لِشدّة بأسِهم، وشَجاعتهم، وعِظَم مُلْكهم، وكثرة جنودهم، فلمّا غلبت الفرسُ عليهم لِما كان بينهم من التحزُّب والحروب، واختلاف الكلمة وتباين الممالك ودامت أيّامُهم، واتّصل مُلْكُهم دخلوا في جملتهم وتعزّزوا بهم وانتسبوا إليهم. ثم جاء الإسلام فمضى على ذلك أكثرهم وأَنِفُوا من النبطيّة لزوال العزّ الذي كان فيهم، وانتمى جُلُّهم إلى ملوك الفرس حتى قال بعضُ المتأخّرين في ذلك:

أيا دهرُ ويَحكَ كم ذا الغلطْ ... وضيعٌ علا و كريمٌ سَقَطْ
وَعَيْرٌ يُخَلَّدُ في جنّةٍ ... وطِرفٌ بلا عَلَفٍ يُرتَبطْ
وأهلُ القُرى كلُّهم يدّعون ... لِكسرى قُباذَ فأينَ النَّبَطْ

وقد حدّ كثيرٌ من الناس السوادَ وهو العراق، فقالواْ: حدهُ مّما يلي المغرب وأعلى دجلة من ناحية أثور وهي الموصل القريتان المعروفة إحداهما بالَعلْث من الجانب الشرقيّ من دجلة وهي من طَسُّوج بُزُرْ جَسَابور، والأخرى المعروفة بحَربى وهي بإزائها في الجانب الغربيّ من طَسّوج مَسْكِن، ومن جهة المشرق الجزيرة المتّصلة بالبحر الفارسي المعروفة بمِيان روذان من كورة بَهْمَن أَرْدَشير وراء البصرة مّما يلي البحر طول ذلك مئة وخمسةْ وعشرون فرسخاً -والحدُّ الشماليّ من عقَبة حُلْوان إلى الموضع المعروف بالعُذَيب وراء القادسيّة من جهة الجنوب مسافة ما بين هذين الموضعين، وهو عرض السواد ثمانون فرسخاً، يكون ذلك مُكَسّراً عَشرةَ آلاف فرسخٍ، والفرسخ اثنا عَشَرَ ألف ذراع بالذّراع المرسَلة، يكون بذراع المِساحة. وهي الذراع الهاشميّة تسعة آلاف ذراع وهو مئة وخمسون أَشْلاً يكون ذلك جُرُبّاناً اثنين وعشرين ألفاً وخمسمئة جَريب هذا إنمّا هو تكسيرُ أُشْلٍ فإذا ضرُب ذلك في عدذ الفراسخ وهو عَشَرة آلاف فرسخ بلغ مئتي ألف ألف وخمسة وعَشرين ألف ألف جريب، أَسقَطَ أربابُ الخراج لمواضع الجبال، والآكام

والتلول، والآجام، والسباخ، ومدارس الطرق، والمحاجّ، ومجاري الأنهار، ومواضعْ المدن، والقرى وغير ذلك من المواضع التي لا يتأتّى فيها الحرث على التخمين والتقريب الثلثَ من ذلكَ، وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب، فيبقى مئة ألف ألف وخمسون ألف ألف جرِيب يُراح النّصْفُ من ذلك، ويكون النِّصْفُ مَعْمـوراً مع ما في الجميع من النخيل، والكروم، وسائر الأشجار، وما يُعْمَرُ دائماً من الأرَضِين. ولم يزل السواد في ملك النبط والفرس مقاسمةً إلى أيام قباذ بن فيروز الملك، فإنه فرض على كلّ جَرِيب دِرْهمين، وألزم الناسَ المساحةَ وأُطلِقوا في أملاكهم، وكانوا ممنوعين منها إلى وقت القسمة فهلك قبلَ إتمام ذلك فلمّا ملك أنوشروان بَعْدَه تمّمه، وأخذ الناس به فارتفع أَوّلَ سنة مئة ألف ألف وخمسون ألف ألف درهم من الدراهم التي وزن الدرهم منها مثقالٌ. وقد كان خسرو أبرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباذ اجتبى مملكته في سنة ثماني عشرة من ملكه، وكان في يده السواد، وأرض الأعاجم دون أعمال الغرب وكان حدُّ مملكته إلى هيت وما وراء ذلك من الموصل والجزيرة والشام بيد الروم

من الورق أربعمئة ألف ألف وعشرين ألف ألف مثقال يكون ذلك وزن سبعة ستمئة[1] ألف ألف درهم. وكثير من هذه النواحي اليوم على ما كانت عليه في ذلك الوقت لم يُغْزَ أَرَضُوها، ولم يَبدُ ساكنوها، وإنّما يحتاج أن يكون مع مُلاّكها ومدبّريها تُقى اللّه أولاً، ثم درايةٌ، ونجدةٌ، وعدلٌ، وعفةٌ، وسياسة حتى تستقيمَ الأمور، وينتظمَ التدبير، ويأتي من الأموال ما يُسَدُّ به أركانُ الملك وتعمرُ به البلاد، ويشحن به الثغور، ويقمع به العدو؛ إذ كان سلوك طريقة العدل يؤدي إلى طول المدّة، واتّصال أيام الدّولة، وبالعدل رُكِّب جميعُ العالم فلا جَرَمَ أنّه لا يقوم إلاّ بالحقّ وهو ميزان الربِّ في الأرض بينَ عباده؛ فلذلك حكمتُهُ مُبرَّأةٌ من كلّ مَيْلٍ وزَلَلٍ، فمن بَخسَه بتر عمره وانقضت أيامُهُ. وظُلْمُ الرعيّة، استجلابُ البليّة.

وكان السواد يُعَدّ في أيام الفرس اثنتي عَشْرة كورةً، تُسمّى الكورةُ بلغتهم استان وطساسيْجهُ ستّون طسّوجاً، في

(١) - كذا وردت، وفي إحدى النسخ سبعمئة

كل كُورةٍ عدّةُ طَسَاسيج، وتفسير الطسُّوج: الناحية، ثم تغيّر ذلك على مرّ الأيام لانخراق دجلة وخروجها عن عمودها، وكان مجراها في جُوخَى، وتَغْريقها طَسُّوج الثَّرثُور من بلاد كَسْكَر، وغيره حتى صارت بطائح إلى هذا الوقت مسيرة أيام، وذلك بين واسط والبصرة واسمها في هذا الوقت في ديوان السلطان آجام البريد، وأخراب جُوخَى، وكانت أعمر السواد، وأهلها المتقدمون على أهله وإضافة كورة حُلْوان إلى كورة الجبل، وكانت تُدعى شادفيروز، وغير ذلك فصارت كورُ السواد عَشْرَ كُوَرٍ تحوي ثمانيةً وأربعين طَسُّوجاً، ثم آل ذلك إلى نقص وخراب لبثوقٍ انبثقت، وجلاءٍ وانتقال، وجَدْبٍ وَجَوْرٍ، وحيفٍ من الأتراك والديلم الذين غلبوا على هذا الصُّقْع إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٤٥ في خلافة المطيع.

وقد وصف بعضُ أهلِ المعرفة سكّانَ هذا الصقُّع الشريف وهو العراق فقال: «هم أهلُ العقول الصّحيحة، والشّهَوات المحمودة، والشمائل الموزونة، والبراعة في كل صناعة، مع اعتدال الأعضاء، واستواء الأخلاط وسُمرة الألوان، وهي أَعْدَلُها وأَقْصَدُها، يستدلّ على اعتدال مزاج باطن أبدانهم

بالذي يُرى من السُّمرةِ الظاهرة في ألوانهم، واعتدال أعضائهم. أحسنُ الناس ألواناً ووجوهاً، وأتمهّم حِلْماً وفَهْماً. فهم أهل العلم والخير، وذلك لا متزاج صقْعِهم من حرِّ الجنوب، وبرد الشمال، وغلب عليهم المشتري لا متزاجه من بَرْدِ فَلَكِ زُحَل، وحرارة فَلَكِ المرّيخ فاعتدلوا؛ فاجتمعت فيهم مَحاسنُ جميع الأقطار كما اعتدلوا في الجِبِلَّةِ كذلك لَطُفُوا في الفِطْنة والتسُّمك بمحاسنِ الأمور، وكيف لا يكونون كذلك، وهم أربابُ الوافدينِ، وأصحابُ الرافدَينِ من دجلة والفرات، والثمانية والأربعين طَسّوجاً. قال الفرزدق في هجاء ابن هبيرة:

أأطعمتَ العراقَ ورافدَيْهِ فَزَارياً أَحَذّ يَدِ القَميصِ

وقالَ بشّارُ بنُ بُرْد:

الرافدين تُوافي ماءبحرِهِما إلى الأُبُلَّة شرْباً غَيرَ محظورِ

وقال آخر: هذان الواديان رائدان لأهل العراق لايكذبان.

قال المسعوديُّ: والصُّقْعُ الذي مدينةُ السلام منه أفضلُ مواضع الأرض جميعاً في الطيب والغذاء، وذلك أنَّ أطيبَ خيراتِ الدنيا بعد الأمن والعافية والعزّ والرئاسة؛ صلاحُ الماء والهواء، ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات، وإن نازع في ذلك أهلُ مصر وفضّلوا نيلَهم؛ وأطيبُ مواضع العالم في كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض، وقياس بعض البلدان إلى بعض موضعٍ اجتماع دجلة والفرات؛ وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه، ويفسد شتاؤه فساداً يمتنعُ فيه من المكاسب المِهْنّية والمطالب الصناعيّة لشدّة برده، ودوام سقوط ثلجه. ومنها ما يطيب شتاؤه ويفسد صيفهُ حتى يشغل الحرّ والومَدُ والبقُ والهوامُ عن تخشين[١] الزيّ باللباس والتصرُّف في المهن والصناعات ويَعَزُّ[٢] علينا بما دُفعنا إليه من مفارقة هذا المِصْر الذي به مولدُنا، وفيه منشؤُنا، فنَأَت[٣] الأيام بيننَا وبينه، وساحقت مسافاتنا عنه، فبعدت الدار، وتراخى المزار. لكنّه

---

(١) - كذا وردت، وأحسبها تحسين.

(٢) - في الأوربيّة: يعزّ، والتصويب للصاوي.

(٣) - في مروج الذهب: أنأت، وفي بعض النسخ ناءت.

الزمنُ الذي من شأنه التَّشتيُت، والدهرُ الذي من شَرْطه الإفاتة، ولقد أحسن أبو دُلَف القاسمُ بنُ عيسى العجليّ حيثُ يقول في هذا المعنى في كلمة له:

أَيا نكبةَ الدهرِ التي طَوَّحتْ[1] بنا
أَيادي سبا في شرقها والمغاربِ
قفي بالتي نهوى فقد طِرْتِ بالّتي
إليها تناهت فاجعاتُ المصائب

وقال آخر:

بلاد بها أُنسي وأهلي وجيرتي
وقد يُتناسى الشيءُ وهو حبيبُ

ولولا الشوقُ إلى الوطن والحنينُ إلى المنشأ لم نذكر ماذكرناه من هذه المعاني.

قال بعضُ الحكماء: إنّ من علامة وفاء المرء وحُسْنِ دوام عهده، حَنينَهُ إلى إخوانه وشَوقَهُ إلى أوطانه، وإنّ من

(١) - في الأوربية: طرحت، وفي بعض النسخ طوّحت، وكذلك في مروج الذهب

علامة الرشد أن تكونَ النفسُ إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تَوّاقة.

وقال آخر: عمر اللّهُ البلدان، بِحُبِّ الأوطان. فَمِنْ عَلامةِ كَرَمِ المحتدِ، الحنينُ إلى المولد.

قال المسعوديُّ: وكثيرٌ مِمَّنْ تَقَدَّم وتأخر من أهل صناعة النجوم إذا حصَّلوا أمرَ بغداد قالوا: عَرْضُ وَسَطِ الإقليم الثالث أي بُعْدُهُ من خطّ الاستواء ثلاثون درجةً واثنتان وثلاثون دقيقة، وعرض وَسَطِ الإقليم الرابع ستٌّ وثلاثون درجةً، ثم قالوا: عَرْضُ بغداد ثلاثٌ وثلاثون درجةً وتسعُ دقائق. فبغداد إذاً عندهم كأنها قريبةٌ من أن تكونَ بينَ وسَطي الإقليمين: الثالث والرابع. والأكثرُ مِنْهم يرى أنها من الإقليم الرابع على ما ذكرناه، ومِمَّن يرى ذلك مَّن تقدّم مارينوس، ودورثيوس، وغيرهما من الفلكيْين.

وعرضُ كلّ بلدٍ هو بُعْدُهُ عن خط الاستواء وإن شئتَ قلت: ارتفاع القطب عليه إن كان في النصف الشماليّ من الأرض؛ فارتفاع القطب الشماليّ. وإن كان في النصف الجنوبيّ من الأرض فارتفاع القطب الجنوبي؛ لأنه كلّما

تباعدت المدينة عن خطّ الاستواء درجةً ارتفع أحدُ القطبين درجةً، وانخفض الآخرُ درجةً. والطولُ هو بُعْدُ المُدينة من المغرب، وربّما كان بُعْدُها من المشرق. ومن المغرب إلى المشرق مائة وثمانون درجة. فعرضُ بغداد ثلاثٌ وثلاثون درجةً وطولها سبعون درجةً وكذلك عرض دمشق وعرض بغداد واحد وطول دمشق ستون درجة، وكذلك عرض مدينة القيروان من بلاد إفريقيّةَ من أرض المغرب، وكذلك أيضاً عرض بيت المقدس، وقيسارية، وصيدا وصور، وأنطاكية، ومدينة السيرجان من أرض كرمان.

ومّما عرضُهُ ثلاثون فسطاطُ مصر، والبصرة، وشيراز، وشينيز، وجنّابا، ومهروبان، وتوّج من أرض فارس، والقندهار من أرض السّند، وممّا عرضُهُ ستٌّ وثلاثون درجةً مدينةُ حلب من جُنْد قِنّسرينَ من أرض الشأم ومنبج، وبالس، والرقة ونصيبين ونهاوند، من الماهات وهَمذان وطرسوس من الثغر الشأميّ وقُمّ، والريّ، والموصل، وبَلَد، وسُميساط، وجسر منبج، ودباوند، وقومس ومدينة نيسابور وبُخارى، وسَمَرْقَنْد، وأشرُوسَنَة من بلاد خراسان.

وكلُّ ما في الأقاليم من المدن فعلى خطٍّ واحدٍ وإن كان ذلك مختلفاً عند مَنْ لا عِلْمَ له بهذه الأمور لما يُرى من اختلاف وضع هذه المدن، وبُعْدِ المسافات بينها طولاً، وعرضاً، والأقاليم كلُّها مستقيمة كذلك رأيتُها في الصورة المأمونيّةِ وغيرها.

وأهويةُ هذه المواضع تختلف؛ وإن اتّفقت فيما ذكرنا من العرض وغيره لآفاتٍ وعوارضَ، من ذلك أن يكون بخاراتٌ باردة، في أعماقِ الأرض فتظهر؛ فتكون سبيلُ تلك المواضع من الأرض أنّ ما يتولاّها من الكواكب يوجب تأثير الحرارة فيها؛ فيغلب ما ظهر من البرودة منها عليها وتدفَعُ فعلَ الكواكب، كالسّروات من أرض التهائم، وهي ثلاثٌ: سَراةٌ منها ما بين تهامة ونجد، أدناها وَجٌّ وهي الطائف، وأقصاها قُرْبَ صنعاء من أرض اليمن -والسروات أرضٌ عاليةٌ، وجبال مشرفةٌ يجب أن تكونَ حارّةً لتأثير الكواكب، إلاّ أنّ ما يظهر من بخار الأرض يغلب على البلد؛ فصار بارداً. وكذلك أيضاً دمشق عرضُها وعرض بغداد واحد على ما ذكرنا فيما تقدّم؛

فيجب أن تكونَ حارّةً كحرّ بغداد؛ إلاّ أن البرد يغلب عليها لما يظهرُ من بُخار الأرض من البرودة فكان الحكم له. وكذلك قد تكون مواضعُ من الأرض ما يتولاّها من الكواكب يوجب تأثيرَ البرودة فيها فيظهر من قعور الأرض بخاراتٌ كثيرةٌ حارّةٌ فتدفع ذلك وتصيّر الحكم لها، وتجعل ذلك البلد حاراً ككثيرٍ من البلدان الحارّة.

وقد تكون بقاعٌ من الأرض يغلب على ما يظهر منها من البخار البارد تأثيراتُ الكواكب بالحرّ؛ فيكون الحكم له ويغلب على ما ظهر منها من البخار الحارّ تأثيراتها بالبرد فيكون الحكم له، ولعلل غير ذلك يطول ذِكْرُهَا هي موجودةٌ في كتب المتقدّمين على الشرح والإيضاح.

وقد قدّمنا فيما سمّينا من كتبنا لُمعاً من ذلك فأغنى عن إعادته في هذا الكتاب مع اشتراطنا على أنفسنا فيه الاختصارَ والإيجاز، وفي القليل كفايةٌ لِمَنْ كان له بالعلم عنايةٌ.

وكلُّ ما كان على رأسِ قُبَّةِ الأرض ووراءها إلى الشقّ الشرقي فهو عندَ أهل الشق الغربيّ أرفعُ، لجهاتٍ. منها: أنّ

المشرقَ لطلوعِ الكواكب، وظهورِ النهار والمغرب لهبوطها وإخفائها. والثانية أن المشرق ذَكَر، والمغربُ أنثى، وقسم هذا: الكواكبُ المذكَّرة، وقسم ذلك: الكواكبُ المؤنَّثة، والذكَرُ أبداً أعلى من الأنثى. والثالثة: أن حركَة الفلك إلى المشرق هي ارتفاعهُ، وحركتهُ إلى المغرب هي انخفاضهُ. والرابعة: وهي الوجهُ العيانيّ، والمذهب القياسي أنّا نجدُ بَلَدَ فارس أرفع من العراق، والعراقَ أرفعَ من الشأم، والشأم أرفع من مصر والإسكندرية.

من ذلك أنّ حُسَّابَ بغدادَ مثل: محمدِ بن موسى الخوارزميّ، ويحيى بنِ أبي منصور، وسند بن عليّ، وأبي معشر، وغيرهم وجدوا طولَ بغداد من المشرق مئة درجةٍ وعشر درجاتٍ يريدون من أفق القبَّةِ إلى وَسَط سماء بغداد وذلك يُعرَفُ بساعات وسط الكسوف في المواضع المختلفة المتباعدة، ووَجدَ أبطلميوس -على ما عبَّر عنه ثاون الإسكندراني- طولَ الإسكندرية من المشرق مئة وتسع عشرة درجةً ونصفاً. فإذا طرحنا بعدَ بغداد مِنْ بُعدها بقَي تِسْعُ

دَرجَاتٍ ونصف؛ فقلنا تطلع الشمسُ ببغداد قبل الإسكندرية بثلثي ساعة غير ثُلُثي عُشْرِ سَاعةٍ، وكذلك تخالف البلاد في العُروض. من ذلك: أن ارتفاعَ القطب الشمالي عن أفق صنعاء من بلاد اليمن أربعَ عَشْرةَ درجةً ونصف، وارتفاعه على بغداد ثلاثٌ وثلاثون درجةً وكسر، ومن هذا يطول النهارُ في بلدٍ، ويقصر في بَلَدٍ ومن الدليل على ذلك أن ارتفاعَ سُهيل في وسط سمائه على اليمن ثلاثٌ وعشرون درجةً، وهو بالعراق على خطّ الأفق وبخراسان لا يرُى، ولا تغيبُ بنات نعش هنالك وتغيب باليمن، وأشباهٌ لهذا كثيرةٌ.

قال المسعوديُّ: وقد كان وزيرُ المتوكل عبُيدُ اللّه بنُ يحيى بنُ خاقانَ لَمَّا أَمر المستعين بنفيه إلى برقة وذلك في سنة ٢٤٨ فصار إلى الإسكندرية من بلاد مصر رأى حُمْرَةَ الشمس على علوّ المنارة التي بها وقت المغيب؛ فقدّر أنه يلزمه أن لايفْطِر إذْكان صائماً، أو تغرب الشمس من جميع أقطار الأرض. وذهب عليه أن اللّه عزّ وجلّ إنّما فرض على كلّ قومٍ أن يصوموا إلى أن تغيبَ الشمسُ في بلدهم لأنّ مَغِيْبَها يَختلِفُ

بحسب اختلاف البلدان، فيكون مغيبها في بلاد المشرق قبل مغيبها في بلدان المغرب، كما كان طلوعُها في المشرق قبلَ طلوعها في المغرب؛ لِما قدَّمناه من أقاويل المنجّمين قي ذلك. ويجوز أن يكون ذلك لأسبابٍ استأثر اللّهُ بغيبها، فامر عُبيدُ اللّه إنساناً أن يصعدَ إلى أعالي منارة الإسكندريّة، ومعه حجرٌ وأن يتأمَّلَ موضعَ سقوط قُرصِ الشمسِ، فإذا سقطت رمى بالحجر ففعل الرجل ذلك فوصل الحجر إلى قرار الأرض بعد صلاة العشاء الآخرة فجعل إفطاره بعدَ صلاة العِشاء الآخرة فيما بعد إذا صام في مثل ذلك الوقت. وكان عند رجوعه إلى سُرَّ مَنْ رأى لا يُفطر إلاَّ بعدَ العشاء الآخرة. وعنده أنّ هذا فَرْضُهُ، وأنّ الوقتين متساويان وهذا غايةُ ما يكون من قلّة العلم بالفَرْضِ ومَجاري أمر الشَّرق والغرب.

وقد ذكر أرسطاطاليس في كتاب «الآثار العلوية» أنَّ بناحية المشرق الصيفي جبلاً شامخاً جداً وأنَّ من علامة ارتفاعه أنَّ الشمسَ لا تغيبُ عنه إلى ثلاثِ ساعاتٍ من الليل، وتُشرقُ عليه قبلَ الصبح بثلاثِ ساعاتٍ.

ومنارةُ الإسكندريةَ أحَدُ بُنْيانِ العالم العجيب، بناها بعضُ البطلميوسين من ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيلبس الملك، لِما كان بينهم وبينَ ملوك رومية من الحروب في البرّ والبحر، فجعلوا هذه المنارةَ مرقباً في أعاليها مرآةٌ عظيمةٌ من نوع الأحجار المشِفّةُ يشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها، فكانوا يراعون ذلك في تلك المرآة فيستعدّون لهم قبلَ مرورهم.

وطولُ المنارة في هذا الوقت على التقريب مئتان وثلاثون ذراعاً، وكان طولُها قديماً نحوَ أربعمئة ذراع فَهُدِمتْ على طول الزمان وترادف الزلازل والأمطار؛ لأنّ بلدَ الإسكندرية يُمْطَر، وليس سبيلُها سبيلَ فِسْطاطِ مصر إذْ كان الغالبُ عليها أن لا تُمْطَرَ إلاّ اليسير؛ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ماقال الناسُ في ذلك، والسبب في امتناعه.

وبناؤها ثلاثةُ أشكال: فقريبٌ من النصف وأكثر من الثلث مُربَّع الشكْل بناؤه بأحجارٍ بيض يكون نحواً من مئة ذراع وَعَشْرِ أذرع على التقريب، ثم من بعد ذلك مُثَمَّن الشكل مبنى

بالآجرّ والجِصّ نحواً من نيِّفٍ وستّين ذراعاً وحواليه فضاءٌ يدور فيه الإنسان، وأعلاها مُدَوَّر.

وكان أحمدُ بن طولون أميرُ مصر والإسكندريّة والشأم رَمَّ منه شيئاً، وجعل في أعلاه قُبَّةً من الخشب، المَصْعَدُ إليها من داخلها، وهي مبسوطةٌ مُوَرَّبَةٌ بغيرِ دَرَجٍ. وفي جهةِ الجانب الشرقيّ من المنارة كتابةٌ برصاصٍ مدفونٍ بقلمٍ يونانيّ يكون طول كلّ حرفٍ ذراعاً في عرض شبر، ويكون مقدراها على وجه الأرض نحواً من مئة ذراع، وماء البحرِ قد بلغ أصلَها. وقد كان تهدّم أحدُ أركانها الغربيّة مما يلي البحر فبناها أبو الجيش خُمارُوَيْهِ بنُ أحمد بن طولون، وبينها وبين مدينة الإسكندرية في هذا الوقت نحوُ ميل، وهي على طرف لسانٍ من الأرض قد ركب ماء البحر جنبيه، مبنية على فم مينا الإسكندرية وليس بالمينا القديم لأنّ القديم في المدينة العتيقة لا تُرسى فيه المراكب لبعده عن العمران، والميناء هو الموضع الذي تُرْسَى فيه مراكبُ البحر. وأهلُ الإسكندريةُ يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحواً مِمَّا بينَ

المدينة والمنارة في هذا الوقت، فغلب عليه ماء البحر في المدة اليسيرة، وأنّ ذلك في زيادة.

قال المسعوديّ: وتهدم في شهر رمضان سنة ٣٤٤ نحو من ثلاثين ذراعاً من أعاليها بالزلزلة التي كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشأم والمغرب في ساعة واحدة، على ما وردت به علينا الأخبارُ المتواترة ونحن بفسطاط مصر، وكانت عظيمةً جداً مهولةً فظيعة، أقامت نحو َنصفِ ساعةٍ زمانيّة وذلك النصف من يوم السبت لثماني عَشْرةَ ليلةً خلت من هذا الشهر، وهو اليوم الخامس من كانون الآخر من شهور السريانيين، واليوم التاسع من ديماه من شهور الفرس، والتاسع أيضاً من طوبه من شهور القبط -وقد دخلنا أكثر المواضع المشهورة بكثرة الزلازل وعظمها مثل بلادِ سِيراف من ساحل فارس، وهي بين جبل وبحر، وبلاد الصيمرة من مهرجان قَذَق، وماسبَذان من أرض الجبال، وهي في سفح جبل عظيم يقال له: كُبَر ومدينة أنطاكية من جُنْد قِنّسرين والعواصم، من أرض الشأم وهي في سفح جبل مُطِلٍّ عليها،

وبلاد قومس، وهي كثيرة الزلازل جداً، وتغور أعينٌ وتفور في مواضع أُخَرَ لِعظَم ذلك، فالبلد شديد الاختلال. وبين بلاد قومس، وبين نيسابور جبل عظيم شامخ طويل كثير المياه والأشجار والثّمار والأودية، وفيه خَلْقٌ من العباد يأكلون من تلك الثمار ويأوون إلى كهوف وغِيران هنالك يُقال لهذا الجبل جبل مورجان، ومورجان قرية بقرب هذا الجبل، والجبل بين هذه القرية وبين قرية من أعمال نيسابور تعرف بهفدرة تفسير ذلك سبعة أبواب، وذلك أول عمل خراسان لأن قومس عمل مفرد بين الريّ وخراسان، ومدنها: بسطام، وسمنان، والدامغان. ولها جبل آخر عظيم بينها وبين طبرستان يقال له قارن، ومدينة آمل ويطلّ عليها الجبل العظيم المعروف بدبُاوَنْد ويقال إنه أعلى جبال العالم. وكثير من مدن طبرستان وغير ذلك من البلاد- فلم أر أعظم أمراً من هذه الزلزلة ولا أطول مُكْثاً، وذلك أني تبيَّنْتُ تحتَ الأرضِ كالشيء العظيم يُحاكُّها، ماراًّ تحتها وهازاً ومُحرّكاً لها، كأنه أعْظمُ منها وكأنها كالنائية عنه، ومع دَوِيٍّ عظيمٍ في الجو، وكانت السلامةُ بحمد اللّه شاملةً للناس، والتهدُّمُ قليل. وقد كان خُسِفَ بضياعٍ كثيرة

وقرى وعمائر واسعة من بلاد كشّ، ونَسَف؛ مما يلي سمرقند من أرض خراسان، بزلازل تواترت، كان مبدؤها من نحو بلاد الصين إلى أن اتّصلت ببلاد فرغانة. وهذه البلاد هَلَكَ فيها خلقٌ كثير من الناس فمنها ما صار موضعُها آجاماً ومياها سوداً مُنتنةً؛ ومنها ما صارت كالرماد؛ لا نقلابها في سفوح جبال شاهقة منيعة، وذلك مشهود ببلاد خراسان وغيرها، وقد ذكرنا ما قاله الناسُ من الشريعيِّين، وغيرهم في الزلازل، وحدوثها، والهدّات والخسوف وكونها فيما تقدّمَ من كتبنا.

فإذْ قد ذكرنا الأقاليم السبعةَ، وما قيل في أطوالها، وعروضها، ووصفنا الإقليمَ الرابع وفضله على سائرها وما اتّصل بذلك؛ فلنذكرِ البحار، وكميةَ أعدادها، ومقاديرَ مسافاتها، وغير ذلك من الأخبار عنها.

* * *

ذكر البحار، وأعدادها،

وما قِيل في أطوالها، وعروضها، واتصالها، وانفصالها، ومصّبات عِظام الأنهار إليها وما يُحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها

تنازع من سَلَف وخلَف في البحار، وأعدادها، ومسافاتها، وأطوالها، وعروضها، واتصالها، وانفصالها، وجزرها ومدها، وغير ذلك من أحوالها، ونحن ذاكرون أصحَّ ما نُقِل في ذلك وأشهره ومبيّنوه، إذْ كُنَّا عُنينا بذلك بُرْهَةً من دهرنا، وصرفنا إليه هِمَمَنا مشاهدةً وخبراً، حتى وقفنا منه على ما نظنُّ أنّه استغلق على غيرنا عِلْمُهُ، وَغَرُبَ عليهم فهمُهُ فأولُ ما نبدأ من ذلك بوصف البحر الحبشيّ إذْ كان أعظمَ. ما في المعمور من البحار وأَجَلَّها قَدْراً، وأعظَمَها خَطَراً؛ لاكتناف

الممالك الجليلة إيّاه، وما خُصَّ به من الجواهر النفيسة، وأنواع الطّيب، والعقاقير في قعوره، وجزائره، وشُطُوطه. وهذا حين نبتدىء بذلك على اختصار وإيجاز.

* * *

ذكر الأوّل منها، وهو الحبشيّ

البحرُ الحبشيُّ هو بحر الصّين، والسّند، والهند، والزنج، والبصرة، والأُبُلّة وفارس، وكرمان، وعُمان، والبحرين، والشِّحْر، واليمن، وأَيلة، والقُلْزُم من بلاد مصر، والحبشة. وليس في المعمور بحرٌ أعظمَ منه، وهو مساوٍ في الطُّول لخطّ الاستواء آخذ من أقصى بلاد الحبشان التي في المغرب إلى أقصى بلاد الهند، والصين في المشرق. وطولُه على هذا السمت فيما ذكر من عُنيَ بمِساحة الأرض وتصويرها على مواضعها من العروض والأطوال الفلكيّة ثمانيةُ آلافِ ميلٍ، وعرضُهُ في الشّمال ألفان وسبعمئة، وقيل: ألف وتسعمئة ميلٍ.

وممّن ذهب إلى هذا القول أبطلميوس وغيرهُ ممّن تقدّم عصرُهُ وتأخّر عنه، وآخرِ مَنْ ذهب إلى ذلك في الإسلام

يعقوبُ بن إسحاق الكنديّ في رسالة له في البحار، والمدّ، والجزر، وغير ذلك، وتلميذه أحمدُ بنُ الطيّب في رسالة له أيضاً في منافع البحار والجبال والأنهار. وأدخل أبطلميوس هذا البحر في حدّ المعمور، وذكر أنه ينتهي إلى أرضٍ من الجنوب مجهولة. وذهب آخرون إلى أنّ طولَه أربعةُ آلافٍ وخمسمئة فرسخ في مثلها، فردّ ذلك عليهم أصحابُ القول الأول، وأنكروه؛ لأنّ أربعة آلاف فرسخ وخمسمئة فرسخ ثمانية عشر ألف ميل، إذْ كان الفرسخ أربعةَ أميال بميل ثلاثة آلاف ذراع، فيصير طول هذا البحر ثلاثةَ أرباع منطقة الأرض، وهي أربعة وعشرون ألف ميل، وعرضه ثلاثة أرباع، ويصير الباقي من كرة الأرض المنكشف من ماء هذا البحر جزءاً يسيراً إذا أضيف إلى هذا البحر، وليس الوجود كذلك، والقول الأول أصحُّ وعليه المعمول(١) لِمَا بيّنّا.

ومّما يَصُبُّ إليه من الأنهار العظام المشهورة الفُرات، ومخرجه من الإقليم السادس من ناحية قاليقلا، وكانت من

(١) - في بعض النسخ: المعوّل.

ثغور أرمينية من تحت جبل هنالك يُدعى أفردخمش، ويقطع بلاد الروم ويمرّ بالقرب من مَلَطْيةَ، وسُمَيْساط، وبالس، والرّقة والرّحبة، وهيت، والأنبار ويأخذ منه نهر عيسى الذي ينتهى إلى مدينة السلام. وكان يُسمّى نهر الرُّفيل، والصَّراة، ونهر صَرْصَر، وجميعها تصبّ إلى دجلة، ثم ينقسم الفرات إلى جهتين: قسم منهما يَتوجَّه يسيراً نحو المغرب، يسمّى العلقميّ يمر بالكوفة وغيرها، والقسم الآخر يُسمّى سُوَرا يمرّ بمدينة سُورا إلى النيل والطفوف، ويسقى كثيراً من أعمال السَّواد، ثم ينتهي جميعُ ذلك إلى بطيحة البصرة وواسط التي ينتهي منها إلى هذا البحر في دجلة العوراء التي تدعى بالفارسيّة بَهْمَنْشير وهي دجلة المَفْتَح والأُبُلَّة وعبَّادان. فمسافته من ابتدائه إلى انتهائه خمسمئة فرسخ وقيل: ستّمئة فرسخ.

ودجلة، مخرجها من الإقليم الخامس من عيون بناحية آمدمن الموضع المعروف بحصن ذي القرنين، وتمر بجزيرة ابن عُمَر، وباسُورين، وقبرسابور من بلاد قَرْدَى وبازَبْدَى، وباهَدْرا، وبَلَد، والمَوْصل. ويصبّ فيها الزاب الأكبر فوق

العُمْر المعروف بعمر بارقانا من كورة المرج، وذلك بين الموصل والحديثة من الجانب الشرقيّ على فرسخ من الحديثة ومبدأ هذا النهر من بلاد مُشَنَكْهَرْ. حدهُّ بين آذربيجان وبابَغيش ما بين أرض قطينا، والموصل من عين في رأس جبل هنالك ينحدر، وهو شديد الحمرة ويجري في جبال وأودية وحزونة، ويصفو من حُمرته، ويمرّ بباشزّى، وأرض حَفْتُون إلى أن يصبّ في دجلة على ما ذكرنا؛ فتكون مسافته إلى أن يصبّ إليها نحواً من عشرة أيام.

والزابُ الأصغر فوق السِّنّ على ميلٍ منها في الموضع المعروف بدير ابن كامش، ومخرجه من الموضع المعروف بدينور، والجبال المعروفة بِسَلَق من رساتيق آذربيجان مما يلي شَهْرَزُورَ. ومسافة جَريانه إلى أن يَصُبُّ في دجلة -نَحْوٌ من خمسةَ عَشَرَ يوماً.

ثم تمرّ دجلةُ بمدينة السلام، فاذا خَرَجَتْ عنها صبّتْ إليها أنهارٌ كثيرةٌ من الجانب الشرقيّ منها دَيَالى، ونهربين، والنهروان، ومخرجه من جبال أرمينية وسِيْسَرَ من بلاد

آذربيجان، وشهرزور، وبلاد الصامغان، ثم يجتمع وينتهي إلى الموضع المعروف بباصلوى. وممّا يلي جلولا، وخانقين من طريق خراسان فسُمِّي هناك تامراّ، ويستمدّ من القواطيل الآخذة من دجلة ويصير إلى الموضع المعروف بباجِسْرَى على فرسخين من دَسكرة الملك، وهناك يُسمّى النهروان، ويمرُّ ببلاد بَعْقوبا، ويشقُّ مدينة النهروان، وهي جانبان، وجسر بوران وَعَبَرْتا وبرزاْطِيا، واسكاف بني الجُنيد، ويصبُّ إلى دجلة بناحية جَرْجَرايا، ثم تصير دجلة إلى واسط حتى تصبّ في بطيحة البصرة وتنتهي إلى البحر.

وقد ذكرنا في «كتاب الاستذكار» سبب انخراق دجلة وخروجها عن عمودها، وذلك في أيّام كسرى أبرويز ملك فارس، وكان مجراها في جُوْخَى، وتغريقها طسُّوج الثرثور من بلاد كَسكَر، وغيره حتى صارت بطائح على ما قدمنا. وآثار عمود دجلة إلى وقتنا هذا بين فم الصِّلْح، وبَهَنْدف، وبادَرايا، وباكُسايا، وفامية العراق إلى بلاد باذِبِين، ودبربى، وقُرْقُوب، والطّيب وشابرْزان، والدّرْمكان إلى نهرجور،

وإلى المذار. وقد يصبُّ في الفرات ودجلة أنهارٌ كثيرةٌ مثل: سَرْبَط، وساتِيدَما، وأرْسَنَاس، والزَّرْم، ونهردوشا- وهو بين جزيرة ابن عمر وباسورين، وخابور دجلة ومصبُّه إليها بين باسورين، وقبر سابور، ومخرجه من عين تُعرف بعين البطريق من أرض الزَّوْزَان من بلاد أرمينية ويمرّ بين الجبل الجُودي، وجبل التِّنين وغيره وعليه قصور عليّ بن داود الكرديّ من الرهزاديّة وغيره.

وسَفَّان ومخرجُهُ من ناحية العُمْر، وقارة والجبل المعروف بعلم الشيطان مّما يلي جبل طور عَبْدِين وهو جبَلٌ فيه بقايا الأرمان من السريانيين.

وخابورُ الفرات ومخرجُهُ من رأس العين، وكانت تسمى عين الوردة، ومصبُّه إلى الفرات بناحية قرقيسيا، وغير ذلك من الأنهار، فمقدار مسافة دجلة من ابتدائها إلى انتهائها نحوٌ من أربعمئة فرسخ وقيل: أكثر من ذلك.

ومنها نهرُ مهران السند، ومخرجُهُ من الإقليم الخامس من عيون في أعالي السند، وجبالها من أرض قنّوج من مملكة

بوورة وأرض قشمير، والقندهار، والطافن، حتى ينتهي إلى مدينة المولتان، وتفسير المولتان فرج الذهب[1]. وهناك يسمى مهران، ثم ينتهي إلى بلاد المنصورة، ويصبُّ في البحر على نحو من فرسخين من مدينة الديبل من ساحل السند. بين المنصورة وبين البحر نحوٌ من سبعة أيام وفيه السُّوسمار، وهو التمساح على حسب ما يكون في نيل مصر وزيادته في وقت زيادته، وله بطائح وآجام عظيمة من القنا والقصب نحو من ثلاثمئة فرسخ فيه من جنس من السند يقال لهم المَيْدوَهُم خلقٌ عظيم حزب لأهل المنصورة، ولهم بوارجُ في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة إلى أرض الهند والصين وجدَّة والقُلْزُم، وغيرها كالشواني في بحر الروم.

وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بُحر الجاحظ في كتابه في الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان: أن مخرج مَهْران السند، والنيل من موضع واحد؛ واستدلّ على ذلك باتفاق

---

(١) - في بعض المخطوطات: مرج الذهب، وكذلك وردت في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر.

زيادتهما، وكون التمساح فيهما وأن سبيلَ زراعتهم في البلدين واحد، ولا أدري كيف ذلك وقع له، وقد توجد التماسيح في أكثر أخوار الهند وهي الخلجانات كخور صنْدَابور، وخلجان الزابج وغيرها، وتلحق الناسَ وسائرَ الحيوانات منها الأذيَّةُ على حسب ما يلحق أهل مصر، وحيواناتهم.

وقد يتشعَّبُ من مهران هذا نهرٌ آخر يُسمَّى مهرانَ الصغير فمقدارُ مسافة مهران الكبير من ابتدائه إلى انتهائه نحوٌ من خمسمئة فرسخ وقيل: أكثر من ذلك.

ومنها نهر الهند العظيم المعروف بِجنْجَس، وهو أعظم من مهران، وعليه مساكن كثير من الأمم من أصناف الهند وغيرهم، ومخرجه من جبل بناحية التبُّت لا عمارةَ بينه وبين التبُّت إلى أن يصبَّ في هذا البحر ممَّا يلي الجزيرة المعروفة بجزيرة العُراة من جزائر الهند، فمسافتُهُ من ابتدائه إلى انتهائه أربعمئة فرسخ، وقيل خمسمئة فرسخ. وعلى هذا النهر كان التقاء الإسكندر بن فيلبُّس وفُوُر ملك الهند، لا تناكر بينَ الهند في ذلك.

وغير ذلك من الأنهار العظام كأنهار بلاد الأهواز؛ المشرقان، ودُجَيل، وغيرهما. وأنهار فارس وكرمان والهرمند: نهر سجستان، وغزنين، والداوَر وغير ذلك من بلاد زابلستان وكابل وتيزمكران، والسند، والهند، والصين، وجبال الصغد، وفرغانة، وغير ذلك ممّا أحاط به من الممالك.

* * *

ذكر البحر الثاني وهو الروميّ

والبحرُ الثاني وهو الروميّ هو بحر الرومْ والشأم ومصر والمغرب والأندلس والإفرنجة والصقالبة وورومية وغيرهم من الأمم، طوله خمسة آلاف ميل وعرضه مختلف فمنه ثمانمئة ميل ومنه سبعمئة ميل ومنه ستمئة وأقل من ذلك وأكثر، على حسب مُضايقة البرّ للبحر، والبحر للبر على مرور الأزمان.

وذهب قومٌ إلى أنّ طولَهُ ستة آلاف ميل، وأعرضُ موضع فيه أربعمئة ميل، ومبدؤه خليج آخذ من بحر أوقيانس المحيط يعرف بالزُّقاق معترض بين طنجة، وسبتة من سواحل إفريقية، وبين سواحل جزيرة أم حكيم، وغيرها من سواحل جزيرة الأندلس، عرضُهُ هنالك نحوٌ من عشرة أميال، وجَرْيَتُهُ بيِّنَةٌ؛ يكون من مبدئه إلى أن يتّسع ويعظم نحواً من ثلاثة أيام.

وممّا يصبّ إلى هذا البحر من الأنهار العظام المشهورة النيلُ، ومبدؤه من عين تخرج من جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درج ونصف، وذلك مئة فرسخ وأحد وأربعون فرسخاً وثلثا فرسخ، يكون أميالا أربعمئة ميل وخمسة وعشرين ميلاً، ثم يتشعّب من هذه العين عَشَرةُ أنهار تصبُّ كلُّ خمسةٍ منها في بطيحة من بطيحتين في الناحية الجنوبية وراء خط الاستواء، ثم يتشعّب من كلّ بطيحة منها ثلاثةُ أنهار تجتمع جميعاً إلى بطيحة في الإقليم الأوّل فيخرج من هذه البطيحة نيل مصر فيقطع بلادَ السودان ويمرُّ بمدينة علْوة دار مملكة النوبة، ثم بمدينة دُنْقلة لهم أيضاً، ويخرج عن الإقليم الأوّل حتى ينتهيَ إلى الإقليم الثاني، ويصير إلى مدينة أُسوان من صعيد مصر، وهي أوّل مدن الإسلام ممّا يلي النوبة، ثم يقطع صعيد مصر ويمرُّ بفسطاطها إلى أن يصبَّ في البحر الروميّ من مصابّ كثيرة، وذلك في الإقليم الثالث ومن خط الاستواء إلى مدينة الإسكندرية التي ينتهي أحدُ مصبّات النيل على شاطىء البحر ثلاثون درجة؛ تكون من الأميال ألف ميل وثمانمئة ميل وعشرين ميلاً يكون فراسخ ستمئة فرسخ وستة

فراسخ وثُلُثَي فرسخ، فيكون من مبدئه من جبل القمر إلى منتُهاه في البحر الروميّ سبعمئة فرسخ وثمانية وأربعين فرسخاً وثلثي فرسخ، تكون أميالا ألفين ومئتين وخمسة وأربعين ميلاً.

ومن الناس من يرى أنّ من مبدئه إلى مصبه ألف فرسخ ومئة فرسخ ونيّفاً وثلاثين فرسخاً.

ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج، ومساكنهم إلى أن يتّصل ذلك ببلاد سُفالة الزنج وجزيرة قَنْبَلو، وأهلها مسلمون، وبلاد بَرْبَرا وحَفُوني[1] وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا العلّة في نسبة هذا الجبل إلى القمر، وما يظهر فيه من التأثيرات البيّنة العجيبة عند زيادة القمر، ونقصانه، وما قالته الفلاسفة في ذلك وأصحاب الاثنين من المانوية وغيرهم.

ومنها نهر سُيَحْان، وهو نهر أَذَنَة من الثّغر الشأميّ، ومخرجه من مدينة سَيْحَان من ناحيةَ مَلَطْية من الثغر الجزريّ، وإن كان قد غلب على أكثره في وقتنا هذا الروم والأرمن.

---

(١) - في مروج الذهب: جفوني.

ونهرُ جَيحَان وهو نهرُ المصِّيصَة من الثّغر الشأمي أيضاً، ومخرجه من الإقليم السّابع من عيون وراءَ بلاد مرعش.

وبَرَدانُ نهرُ طرسوس من الثغر الشأميّ ومخرجُهُ من عيونٍ تحتَ العقبة المعروفة بعقبة الأكواخ من جبلٍ ترابيٍّ أحمر مما يلي هرَقْلة من بند القبادق. فإذا جرى نحواً من ميل انقسم قسمين: قسمٍ يمضي إلى هرَقْلة، وقسم يصيرُ إلى طرسوس، فإذا صار على بَريدَين منهما إلى الموضع المعروف بالقطالية صبّ إليه نهرٌ يُعْرَف بالفاتر غزير الماء مخرجُهُ من عقَبةٍ تحت العقبة المعروفة بعقبة البراذع يكون جريانُهُ إلى أن يصبَّ إلى بَرَدَان نحوَ يوم وليلة، وإنّما سُمّي الفاتر بالضدّ لشدّةِ برودته. ثم يشقُّ بَرَدَان مدينةَ طَرَسُوس، ويصبُّ إلى البحر الروميّ على ستّةِ أميالٍ منها.

والأُرُنْطُ: نهر حمص، وحماة، وشيزر، وأنطاكية الخارج من القرية المعروفة باللبوة بين حمص ودمشق يشقُّ بحيرةَ قَدَس، وبحيرة فَاميةَ، ويصبُّ إليه بالقرب من أنطاكية نهرُ الرقيا الخارج من بحيرة جنْدارس.

وغير ذلك من الأنهار العظيمة التي تصبُّ إلى هذا البحر من بلاد الأندلس، والإفرنجة، وبلاد الصقّالبة وروميّة، وسائر بلاد الروم، وإليه يَنْحلبُ كثيرٌ من مياه الشمال من خليج القسطنطينية الآخذ من بحيرة مايطس على ما نذكره فيما يرد من هذا الكتاب.

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا العلّة في ارتفاع الشمال على الجنوب، وكثرة مياهه وقلتها في الجنوب، وما قالته الفلاسفةُ وأصحابُ الاثنين، وغيرهم من الحكماء في ذلك، وما في هذا البحر من الجزائر العظام كجزيرة قبرس، وجزيرة أقريطش، وجزيرة صِقِلّية، وما يليها من جبل البركان، ومنه تخرج عينُ النار التي تُعْرَف بأطمة صقلّية يستضيء بضوء نارها السَّفْرُ على أكثر من مئة فرسخ براً وبحراً في الليل، ويرى في شراره إذا علا لهبه في الجوّ جُثَثٌ كأبدان الناس، وتنعكس إلى البحر، وتطفو فوقَ الماء؛ فهو الحجر الأبيض الخفيف الذي يُحكّ به الكتابة من الدفاتر، والرقوق وغيرها ويعرف بالفنسك، ويُسمّى أيضاً القَيْشُورا، وقد يوجد بنواحي هذه

الأطمة[1] الحجرُ المعروف باليشب النافع لأوجاع البطن والمعدة إذا عُلّق عليها، وللماء الأصفر. وقد يفعل ذلك الحجر المعروف بالبُسَّد، وهو أصل المرجان، وهو من هذا البحر يخرج. وفي هذه الأطمة هلك فرفوريوس صاحب كتاب «أيساغوجي» وهو المدخل إلى كتب أرسطاطاليس في المنطق، وقد ذكر ذلك غيرُ واحدٍ ممَّن تقدَّم وتأخّر منهم: يعقوبُ بنُ إسحاق الكِنديّ، وأحمد بن الطيّب في أوّل مختصره لكتب المنطق.



(١) - في محيط المحيط: الأطيمة: موقد النار.

ذكر البحر الثالث وهو الخزريّ

والبحر الخزريّ هو بحر الخرز، والباب والأبواب، وأرمينية، وآذربيجان، وموقان والجيل، والديلم، وآبسكون وهي ساحل جرجان، وطبرستان وخوارزم وغير ذلك من دور الأعاجم ومساكنهم المطيفة به طوله ثمانمئة ميل وعرضه ستمئة ميل وقيل: أكثر من ذلك. وهو مصرانيّ الشكل إلى الطول ماهو، ومن الناس مَنْ يُسمّيه البحرَ الخراساني لا تصاله ببلاد خوارزم من أرض خراسان وعليه كثيرٌ من بوادي الغُزِّيّة من الترك في مفاوز هنالك، وعليه أيضاً الموضع المعروف بباكُهْ وهي النفّاطة من مملكة شروان ممّا يلي الباب والأبواب؛ ومن هناك يُحَمل النِّفطُ الأبيض، وهناك آطامٌ وهي عيون النيران تظهر من الأرض، وفيه جزائر مقابل النفّاطة فيها عيونٌ للنيران كبيرة، تُرى في الليل على مسافةٍ نائية. وقد ذكرنا في كتاب

«مروج الذهب ومعادن الجوهر» أخبار سائر الآطام ممّا في المعمور من الأرض؛ كأطمة صِقِلِّية المقدَّم ذكرُها وأطمة وادي برهوت من بلاد الشحر وحضرموت، وآطام البحر الخزري، والباب والأبواب، وأطمة آسُك من بلاد الهنديجان، وذلك بين بلاد فارس والأهواز، تُرى بالليل من مسيرة أكثر من أربعين فرسخاً، وأمرها أشهر لكثرة السفر في ذلك الطريق، وأطمة أربوجان ممّا يلي السيروان من بلاد ماسَبَذان وهي المعروفة بحمّة تومان ممّا يلي منجلان، وذلك يُرى على أربعين فرسخاً من بغداد على طريق البَنْدَنِيجين، وأبراز الروز، وكالأطمة العظيمة التي في مملكة المهراج ملك جزائر الزابج، وغيرها في البحر الصينيّ منها كَلَهْ وسَرَبْزَة[1]، والمهراج سِمَةٌ لكل من ملكها وملكه لا يضبط كثرة ولا تحصى جنوده، ولا يستطيع أحد من الناس أن يطوف في أسرع ما يكون من المراكب بجزائره في سنتين، جميعُها عامر قد حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاوِيهْ، فليس لأحدٍ من الملوك ماله وممّا

(١) - كله: فرضة بالهند في منتصف الطريق بين عمان والصين، ويقول كراتشكوفسكي: كله: ميناء بالملايو. وسربزه: ميناء بسومطرة

يُجهَّز من أرضه من ذلك الكافور، والعودُ والقرنفل، والصندل، والجوزبوا، والقاقلة، والكبابة، وغير ذلك. وهذه الأطمة في جبالٍ في أطراف جزائره، فهي بالنهار سوداء؛ لغلبة ضوء الشمس وبالليل حمراء يلحق لهبها بأعنان السماء؛ لعلوّها وذهابها في الجو. ويظهر منها كأشد ما يكون من أصوات الرعود والصواعق.

وربما يظهر منها صوت عجيب مُفْزِع يُسْمَعُ على المسافة النائية يُنْذِر بموت بعض ملوكهم، وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم، فقد عرف بما يُنْذِر من ذلك موت الملوك من غيرهم بطول العادات والتجارب على قديم الزمان، وإن ذلك غير مختلق[1].

وتلي هذه الجبال الجزيرة التي يسمع منها على دوام الأوقات كأصوات العيدان، والسرنايات، والطبول، وسائر أنواع الملاهي المطربة، وكأنواع الرقص والتصفيق يميّز السامع لذلك بين صوت كلّ نوعٍ منها، والبحريّون من أهل سيراف

(٢) – في الأصل: «مختلف» صححناها بما نحسب أنه أوجه للمعنى.

وعمان، وغيرهم ممّن اجتاز بتلك النواحي يزعمون أنّ الدجّال في تلك الجزيرة، وأمرها مشتهر، وغير ذلك من الآطام.

وممّا يصبُّ إلى هذا البحر من الأنهار العظام المشهورة نهر أرتيش الأسود ونهر أرتيش الأبيض، وهما عظيمان يزيد كلّ واحد منهما على دجلة والفرات. وبين مصبّيهما نحوٌ من عَشَرة أيام، وعليهما مشتى ومصيف الكيماكيّة والغُزِّيَّةِ من الترك.

ونهر الكُرّ الذي يجتاز ببلاد تفليس ومدينة صُغْدَبيل من أرض جُرَزان، ثم ببلاد برذعة، ويجتمع مع نهر الرَّسّ الذي هو نهر ورَثان، فيصبّان جميعاً فيه.

ونهر أسبيذروذ ومخرجه من ناحية سِيْسَر وشاه روذ، وهما يجتازان ببلاد آذربيجان والديلم.

ونهرُ الخزر الذي يمرّ بمدينة أتل دار مملكةِ الخزر في هذا الوقت، وكانت دار مملكتهم قبل ذلك مدينة بلنجر. وإليه يصبُّ نهرُ بُرْطاس؛ وبَرْطاس أمّةٌ عظيمة من الترك بين بلاد خُوازرم ومملكة الخزر إلاّ أنّها مُضافة إلى الخزر. تجري في هذا

النهر السفنُ العظام بالتجارات، وأنواع الأمتعة من بلاد خُوارزم وغيرها، ومن بلاد بُرْطاس تُحْمَل جلودُ الثعالب السود، وهي أكرمُ الأوبار وأكثرها ثمناً. ومنها الأحمر والأبيض الذي لا يُفضّل بينه وبين الفَنَك والخلنجيّ. وشرُّها النوع المعروف بالأعرابي. وليس يوجد الأسودُ منها في العالم إلاّ في هذا الصقْع وما قرب منه، ويتَبَاهى ملُوكُ الأمم من الأعاجم بلبس هذه الجلود، ويَتّخذ منها القلانسُ والفراءُ. ويبلغ الأسودُ منها الثمنَ الكثير، وقد يُحمل منه إلى ناحية الباب والأبواب وبرذعة، وغير ذلك من بلاد خراسان، وربّما يُحمل إلى بلاد الجربيّ من أرض الصقالبة لا تّصالها بالجربيّ، ثم إلى بلاد الإفرنجة والأندلس ويُصار بهذه الجلود من السود والحمر إلى بلاد المغرب؛ فيتوهّم المتوهِّمُ أنّها من بلاد الأندلس، وما اتّصل بها من ديار الإفرنجة، والصقالبة، وطبعُها حارّ يابس شديد الحرارة يدلُّ على ذلك مرارةُ لحمه، وجلدُه أشدُّ حراً من جلود سائر الأوبار، وهو يُشَبَّه في مزاجه بالنار لغلبة الحرارة واليبس عليه، يصلح لبسه للمرطوبين والشيوخ، وقد كان المهديُّ في مقامه بالريّ أحبّ امتحانَ

أيّ الأوبار أشدّ حرارة، فعمد إلى عدة قوارير فملأها ماء وشدّ رؤوسهَا بأنواعٍ من الأوبار، وكان ذلك في سنة شديدة البرد كثيرة الثلج، ثم دعا بها حين أصبح؛ فوجدها جامدةً إلاّ ما شُدّ رأسهُ بجلد الثعلب الأسود فإنه لم يجمد، فعلم أنّه أشدُّها حراً ويبساً.

ومنها نهر الخزر، المعروف بأوم، وهو أعظم من دجلة والفرات، والنهر العظيم المعروف بكزِل روذ تفسيرُ ذلك نهر الذئب، وتتحلّب إليه المياه من جبلِ القَبْق، ومصبُّه إلى هذا البحر ممّا يلي الباب والأبواب، وعليه هناك قنطرة عظيمة عجيبة البناء نحوٌ من قنطرة سَنْجَة، وقنطرة سَنْجَة إحدى عجائب العالم وهي بناحية سُمَيْساط من الثغور الجزرية. وسنجة نهر تعرف القنطرة به يصبّ إلى الفرات.

ومنها نهر كالف وهو جَيْحُون نهر بلخ والترمذ وخوارزم، مبدؤه من عيونٍ في الإقليم الخامس وراء الرّباط المعروف ببَدَخْشَان، وهو على نحو عشرين يوماً من مدينة بلخ، وآخر أعمالها من ذلك الوجه، وهذا الرباط ثغرٌ بإزاء

أجناسٍ من الترك يقال لهم أُوخان، وتُبّت وأيغان، حضرٌ وبدوٌ، ويعرف هذا النهر هناك بهذا الجنس أيغان. وتصبُّ إليه أنهارٌ كثيرةٌ وينحلب إليه مياهٌ عظيمة، فيكمل هذا النهر فوق مدينة الترمذ بفرسخين، ويُدعى هذا الموضع «ماله»، ويعظم ماؤه ويكثر ويستبحر، ويأتي الترمذ وهي عاليةٌ راكبةٌ عليه من الجانب الشرقي مقابلة لرباطٍ لبلخ من الجانب الغربي على اثني عَشَر فرسخاً من بلخ، وهذا الموضع أضيق أعبار هذا النهر، وأغزرها ماءً، عرضهُ نحوٌ من ميلين. وقد ينبسط في غير هذا العبر كعبرزَمٍّ، وهو أسفل من عَبْر الترمذ بنحوٍ من أربعين فرسخاً، وزَمُّ مدينةٌ من الجانب الغربيّ بالقرب من هذا العبر بين رمال ودهاس وما قابلها من المشرق، فلا عمارة فيها وهي صحراء تؤدّي إلى بلاد نخشب وسمرقند وغيرها، وعبر آمُوا، وهوأسفل من عبر زمّ بنحو خمسين فرسخاً وآموا مدينة في الجانب الغربي على نحو أربعة أميال من النهر يقابلها من الجانب الشرقيّ منه مدينةٌ يقال لها فربَرْ على ميلين من هذا النهر.

ومن فَرَبْر إلى بُخارى دار مملكة آل إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن أحمد بن سامان خُداه صاحب خراسان ثمانية عشر فرسخاً منها خمسة عشر إلى السور الأعظم المحيط ببخارى وعمائرها، ومن باب السور إلى مدينة بُخَارى ثلاثة فراسخ. بنى هذا السور ملك من ملوك الصُّغْد في سالف الدهر ما نعاً لغارات أجناس الترك ودافعاً لأذّيتهم، وجُدِّد في أيام المهديّ. وقد كان تهدّم على يدَي أبي العباس الطوسيّ أمير خُراسان على ما ذكر سَلْمَويه في كتابه في الدولة العباسيّة وأمراء خراسان.

وعبر خوارزم وهو أسفل من عبر آمُوا بنحوِ سبعين فرسخاً، يُقال إن الإسكندر بن فيلبس الملك قطع عبر التّرمِذ في خمسة أشهر بجسرٍ عقَدَه من خمسمئة سفينة لكثرة جنوده وأتباعه.

ثم يأتي هذا النهر بلادَ خُوارزم ويصبُّ في البحيرة المعروفة بالجرجانيّة، والجرجانية مدينةٌ بالقرب من هذا المصبّ وهي من أعظم البحيرات في المعمور، مسافتها نحو من أربعين يوماً في مثلها، ويخرج من هذه البحيرة أنهار عظيمة تَصُبُّ

في البحر الخزري، إلى هذه البحيرة يصبُّ نهرُ الشّاش، وهو مغيض وجُوَب؛ لا يسقي بلادَ الشاش وإنما سَقْيُهم وشُرْبُهم من نهر عظيمٍ يُعرف بترك يصبّ في النهر، هو ونهر فرغانة ونهر خُجَنْدة أيضاً، ويمرّ ببلاد الفاراب، وقد عظم واستبحر، وتجري فيه السفن إلى هذه البحيرة بأنواع الأمتعة حتى تخرج إلى بلاد خُوارزم من مَصَبّ جيحون.

وهذا النهر يتبحّر فى إبّان زيادته وذلك من أوّل كانون الثاني، فيركب الأرض من الجهة المقابلة لبلاد فاراب لانخفاضها أكثر من ثلاثين فرسخاً عرضاً، والقرى والضياع على رؤوس التلال والروابي كالقلاع، لا سبيلَ لبعضهم إلى بعض إلا في الزواريق.

وسبيل هذا الموضع في الشرب سبيلُ نيل مصر في الزيادة، إلاّ أنّ أوقاتها مختلفة، فيركب الأرض وينبسط عليها مالا يركبه نيل مصر؛ لأن أكثر ما يركب نيل مصر الأرض من جانبيه نحو من فرسخين سيحاً، وفي خلجان.

وقد قيل: إن نهر جَيْحُون ينتهي إلى آجام وبطائح فيغور فيها، وقد قيل إنه يصبُّ في بحر الهند مما يلي كرمان.

وقد دخلنا بلادَ فارس، وكرمان وسجستان صرودها وجرومها فلم نجد لذلك حقيقة؛ لأنّ الأنهار التي تصبُّ ببلاد كرمان إلى البحر من ناحية هرمز ساحل كرمان وغيرها معروفة، فيكون مسافة جريان جَيْحُون على وجه الأرض من مبدئه إلى مصبّه في هذه البحيرة نحواً من أربعمئة فرسخ وقيل أكثر من ذلك، وقيل أقلّ منه.



ذكر البحر الرابع وهو بُنْطُس

والبحر الرابع : وهو بحر بُنْطُس هو بحر البُرْغَر والروس، وغيرهم من الأمم يمتدّ من الشمال من ناحية المدينة التي تدعى لا زقة وذلك وراء القسطنطينية طوله ألف ميل وثلاثمئة ميل في عرض ثلاثمئة ميل، ويتّصل ببحيرة مايطس وطولها ثلاثمئة ميل وعرضها مئة ميل، وهي في طرف العمارة من الشمال، وبعضها تحت القطب الشماليّ، وبقرب منها مدينة ليس بعدها عمارة تُسمّى تُولية ومنها يخرج خليج القسطنطينية الذي يصبّ إلى بحر الروم طوله ثلاثمئة ميل ونحو من خمسين ميلاً على ما نذكره فيما يرد من هذا الكتاب، وجريه وانصبابه في المواضع الضيّقة بيِّنٌ. وماؤه بارد، ومن الناس من يعدّ هذ البحر، وهذه البحيرة بحراً واحداً. ويتّصل هذا البحر من بعض جهاته ببحر الباب

والأبواب من خليج وأنهار عظام هنالك، ولأجل ذلك غلط قوم من مصنّفي الكتب في البحار، ومعمور الأرض، فزعموا أنّ بحر بُنْطُس، وبحيرة مايطس وبحر الخزر شيء واحد.

وممّا يصبّ إلى هذا البحر من الأنهار العظام المشهورة النهر العظيم المسمّى طنايس، مبدؤه من الشمال وعليه كثير من مساكن الصقالبة وغيرهم من الأمم الواغلين في الشمال وغيره من الأنهار الكبار مثل نهر دنبه وملاوة، وهذا اسمه بالصقلبيّة أيضاً، وهو نهر عظيم عرضه نحو من ثلاثة أميال وهو وراء القسطنطينية بأيام عليه دور النامجين والمراوة من الصقالبة، وقد سكنها كثير من البرغر حين تَنصّروا، و قيل إنّ منه يأخذ نهر ترك الذي هو نَهرُ الشّاش المقدّم ذكره.

* * *

ذكر بحر أوقيانس وهو المحيط

فأما البحرُ المحيط الذي هو عند أكثر الناس معظم البحار وعنصرها، وأنّها منه تتشعّب، ويسمّيه كثيرٌ منهم الأخضر، ويُسمّى باليونانية أوقيانُس، وأكثر نهاياته مجهولة عند أبطلميوس وغيره فإنّه يبتدىء من نهاية العمارة في الشمال إلى أن يَصيرَ إلى المغرب، وينتهي إلى نهاية العمارة في الجنوب، وليس له في غربيّه ولا شماليّه نهايةٌ محدودة، ويتّصل ببحر الصين ممّا يلي الزابج، وجزائر المهراج وشَلاهط وهرلج. وفي هذا البحر ممّا يلي مغربه الجزائر المسماة الخالدات، وممّا يلي شماله الجزائر المسّماة برطانية. وهي اثنتا عَشْرةَ جزيرة، وعليه من بعض جهاته كثيرٌ من مدن الأندلس والإفرنجة، ومن جهة أخرى مدن من مدن المغرب ممّايلي بلاد أبي عفير وبصرة

المغرب، ثم مساكن البربر الذين يدعون أصحاب الأخصاص، وكثير من مساكن السودان.

ويصبُّ إليه أنهار عظيمة من بلاد الأندلس والإفرنجة وغيرهم من الأمم منها نهر قرطبة قصبة الأندلس في هذا الوقت ودار مملكة بني أميّة. مبدأ هذا النهر من جبل على نحو ستة أيام من قرطبة يُدعى لينشكه. ويجري في هذا النهر مراكبُ كثيرةٌ إلى قرطبة فإذا فصل عنها صار إلى مدينة شبيلية، وهي على يومين من قرطبة ومن شبيلية إلى مصبّه في هذا البحر يومان، وعلى هذا البحر المحيط ممّا يلي الأندلس جزيرة تعرف بقادس مقابلة لمدينة شذونة من مدن الأندلس، بينها وبين شذونة نحوٌ من اثني عَشَر ميلاً.

في هذه الجزيرة منارة عظيمة عجيبة البنيان على أعاليها عمود عليه تمثال من النحاس يُرى من شذونة، وورائها لِعظَمِه وارتفاعه. ووراءه في هذا البحر على مسافاتٍ معلومة تماثيل أُخرَ في جزائر يُرى بعضُها من بعض وهي التماثيل التي تُدعى الهرقلية، بناها في سالف الزمان هرقلُ الملكُ الجبّار تُنذِر من

رآها أَنْ لا طريقَ وراءها ولا مذهب، بخطوط على صدورها بينة ظاهرة ببعض الأقلام القديمة وضروبٍ من الإشارات بأيدي هذه التماثيل تنوبُ عن تلك الخطوط لمن لا يُحسِنُ قراءتها؛ صلاحاً للعباد، ومنعاً لهم في ذلك البحر من التغرير بأنفسهم.

وأمرُ هذه الأصنام مشهورٌ من قديم الزمان إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٤٥ قد ذكرتها الفلاسفةُ القدماء، وغيرهم ممّن عُني بهيئة الأرض وأخبار العالم، منهم صاحبُ المنطق في كتابه في الآثار العلويّة، وهو أربعُ مقالاتٍ، فقال في المقالة الأولى منه: عند ذكره النهرَ المعروف بطرسيُوس ويسيل إلى أن يبلغ خارجاً من الأصنام التي أقامها هِرَقْلُ الملكُ الجبّارُ.

وذكر ذلك أيضاً في آخر المقالة الثانية من كتاب السماء والعالم، وهو أربع مقالات حين ذكر صغِرَ الأرض فقال: الدليل على صغِرِ الأرض ما يزعمون أنّ الموضع الذي يُدعى أصنامَ هرقل يختلط بأوّل حدّ من حدود الهند، فلذلك قالوا إنّ البحر واحد.

وذكر ذلك أيضاً، وبيَّنه الإسكندرُ الأفروديسيّ في شرحه لكتاب أرسطاطاليس في الآثار العلويّة وهي أكبرُ النُّسخ في الآثار تكون نحواً من خمسمئة ورقة. وقد ذكر أبطلميوس في كتابه في المدخل إلى الصِّناعة الكُريّة أنّ من وراء خَطٍّ الاستواء تحتَ مدار الجدي سُودان مثل السودان التي تَحتَ مدار رأس السرطان من دون خط الاستواء ممّا يلي الشّمال، وأن بحر أوقيانس يأتي من ناحية المشرق الشتويّ، وهو مطلع الجدي، ثم ينعطف من المشرق الشتويّ إلى ناحية الشمال، إلى أن ينتهي إلى المغرب الصيفيّ وهو مغرب السرطان.

وذكر أنه إنّما وقف على هذا من الكتب التي دُوّنت فيها أخبارُ المساكن التي عن جنوب بلاد مصر، وأنّهم وصلوا إلى ذلك بعناية ملوك مصر وإنفاذهم ثِقاتهم إلى تلك النواحي؛ ليعرف من هناك من الأمم.

قال المسعوديُّ: وقد ذهب كثيرٌ من الناس إلى أن تحديدهم لمقادير مسافات هذه البحار إنّما هو على طريق التقريب والتخمين، إذْ كان ذلك لا يُحاط به لعجز البشر عن مشاهدته وبلوغ غاياته، وقد ذكرنا فيما سَمَّينا من كتبنا السالفة

ما قاله صاحبُ المنطق في كتابه في الآثار العلوية ومَنْ تقدَّم عنه وتأخّر في علّة انتقال البحار والأنهار عن مواضعها، وشباب الأرض وهرمها وحياتها وموتها، والكلام في كيفيّة المدّ والجزر السنويّ، والقمريّ الذي هو الشهريّ، ولأيّة علّةٍ صار في بعض البحار أظهرَ وأقوى، كالبحر الحبشيْ وبحر أوقيانس المحيط، وفي بعضها أضعف وأخفى، كبحر الروم والخزريّ وما يطس، على أنه قد يظهر في بحر الروم ممّا يلي المغرب ظهوراً بيّناً حتى إنّ مدينةً في جزيرة من سواحل أفريقية يقال لها: جَرْبَة بينها وبين البحر نحوُ ميل، تخرج مواشيهم غُدُواً حين يجزر الماء وينضب؛ فترعى، ثم تروح عَشِيّاً قبل المدّ. وقول بعض أهل الشرائع إن المدّ والجزرَ من فعلِ ملَكٍ وكّله الله عزّ وجلّ بذلك في أقاصي البحار، يضعُ رِجْله أو بعضَ أصابعه فيها فتمتلىء؛ فيكون المدّ، ثم يرفعها فيرجع الماء إلى موضعه فهو الجرز. وقول من قال منهم: إنّ ذلك لأمورٍ استأثر الله بغيبها لم يُطْلع أحداً من خلقه عليها ليعتبروا بذلك ويستدلّوا على وحدانيّته، وعجيب حكمته. وتنازع الأوائلُ في ذلك من فلاسفة الأمم وحكمائهم أهُوَ من أفعال الشمس،

أم من أفعال القمر عند زيادة نوره فيكون منه المد؟ أم عند نقصانه فيكون الجزر؟ على حسب ما يظهر من أفعاله عند زيادته في أبدان الحيوان من الناطقين وغيرهم من القوّة وغلبة السخونة والرطوبة والكون والنموّ عليها، وأنّ الأخلاط التي تكون في أبدان النّاس كالدّم والبلغم وغيرهما عند ذلك تكون في ظاهر الأبدان والعروق ويزيد ظاهر البدن بلّةً ورطوبة وحسناً، وأن الأبدانَ عند نقصان نوره تكون أضعفَ، والبردُ عليها أغلبَ. وتكون هذه الأخلاط في غَوْر البدن والعروق، ويزداد ظاهرُ البدن يَبَساً، وذلك ظاهر عند ذوي المعرفة والعلم بالطبّ، وما يظهر من أحوال الأمراض في زيادته ونقصانه، وأنّ أبدانَ الذين يمرضون في أول الشهر تكون على دَفْع الأمراض والعلل أقوى، وأبدان الذين يمرضون آخرَ الشهر تكون على دفع العِلل أضعف. وكذلك ما يُعلم من دلالته في أنواع البحران في اليوم السابع من الأمراض، والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين إذْ كان القمر أربعةَ أشكال: شكل التّنصيف، وشكل التّمام، وشكل التنصيف عن التّمام، وشكل المحاق. فإن لكلّ شكلٍ من هذه سبعة أيام

لأنَّه في سبعة أيام ينتصف، وفي الرابع عشر يتمّ، وفي الحادي والعشرين ينتصف، وفي الثامن والعشرين يمتحق، فكذلك البحرانات تصحّ في السّابع والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين، وتصحّ في تنصيفات هذه إذْ كانت هذه الأشكالُ أثبتَ أشكالِ الشيء المنقسم، وغير ذلك من تنازع الناس في كيفية البحران، وأن نتاج سائر الحيوان إذا كان في أول الشهر كان المولود أتمّ وأعظم منه إذا كان في آخره، وما يظهر عند زيادته من النموّ والزيادة في شعر الحيوان وأدمغته والألبان والبيض، وحيض النساء، وكثرة السمك في البحار والأنهار وغيرها، ونموّ الأشجار والبقول والفواكه والرياحين، وسائر النبات وغير ذلك مّما يعلمه أصحاب الفلاحة، ونقصان جميع ذلك عند نقصانه، وكذلك المعادن وزيادتها أوّل الشهر في جواهرها، وحسن بصيصها وصفائها، وأنّ لَسْعَ سائر حشرات الأرض من الحيّات والعقارب، وغيرها، وأفعال سائر السباع تكون في أوّل الشهر أقوى وأشدّ، وفي آخرها أنقص وأضعف، وغير ذلك من أفعاله،

وغير ما لم نأتِ على وصفه، وإنّما نذكر الشيءَ اليسير منبّهين بذلك على الشيء الكثير.

والكواكبُ السبعة التي هي النيّران والخمسة المتحيرّة، وغيرها لها تأثيرات في هذا العالم عند ذوي المعرفة بالنجوم، إلاّ أنّ تأثيرات القمر في العالم الأرضيّ أَبْيَنُ منها لِقربه منه وبعدها عنه، وذلك موجود في كتب الأوائل على الشرح والإيضاح. ولِثابتِ بن قُرَّةَ الحراني كتابٌ جمع فيه ما ذكره جالينوس في سائر كتبه من أفعال النيرّين، وهما: الشمس، والقمر في هذا العالم أفادَنَاه ابنُه سِنانُ بنُ ثابت، وكذلك ذكرنا فيما وصفنا من كتبنا ما خُصّ به كلُّ بحرٍ من البحار من أنواع الجواهر الحيوانيّة منها والمعدنية، والحجرية كاللؤلؤ والياقوت والمرجان، وغيره والأدوية والعقاقير والطّيب وغير ذلك، وما السبب في ملوحة ماء البحار ومرارتها وغِلَظِها وكثافتها، ولأية علّةٍ لا تتبيّن فيها الزيادة مع كثرة موادّها من الأنهار التي تصبُّ إليها، وحملها السفن الثقيلة، حتى إذا صارت إلى العذبِ من الأنهار عُرِف غرقُ بعضها؛ للطافة

العذب وكثافة المالح، إذ كان الغليظ يمنع من الرسوب فيه. وقد استدلّ صاحبُ المنطق في كتاب «الآثار العلويّة» على ذلك بأنّه إن أخذ بيضةً فصيرّها في إناء فيه ماءٌ عذب رسبت فيه، وإن ألقى في الماء ملحاً يغلب عليه وتركه حتى ينحلّ فيه، أو أخذ من ماء البحر فصيَّر البيضةَ فيه وجدها طافيةً. قال ويذكر الملاّحون أنّهم يجدون السفينةَ التي تغرق في الماء العذب أبعدَ رسوباً من التي تغرق في البحر المالح، واستدلّ ببحيرة فلسطين فإنّها شديدةُ المرارة والملوحة، وإنّه إنْ أُخذ إنسانٌ أو دابّةٌ فَشُدَّ وثاقاً، وأُلقَي فيها وُجِدَ طافياً على الماء لخفّتّه عند غِلَظ الماء وثِقَله، وإن غُمِس فيها ثوبٌ وسخ استنقى من ساعتِه لشدة المرارة والملوحة، وإنّه لا يكون فيها شيء من السّمك.

قال المسعوديُّ: وهذه البحيرة التي ذكرها أرسطاطاليس وغيره هي البحيرة المنتنة بحيرة أريحا وزَغُرَ، وقد شاهدناها. وإليها يصبُّ نهرُ الأردنّ الخارج من بحيرة طبريّة، وموادّ بحيرة طبرية من نهرٍ يصبُّ إليها يخرجُ من بحيرة قَدَس وكفرلى، يتحلَّب إلى هذه البحيرة مياه كثيرة من أعمال دمشق ممّا يلي

القَرْعُون والخَيْط وغيره. وإذا شقّ نهرُ الأُردن البحيرةَ المنتنة، وانتهى إلى وسطها متميّزاً من مائها غار هناك فخرج بين كَفَرْ سابا البريد وبين الرملة من بلاد فلسطين من عين عظيمة وهو نهر أبي فُطْرُس يصبُّ في البحر الروميّ يكون مسافته على وجه الأرض بعضَ يوم، وماؤه كالزئبق ثقلاً وعليه الجادّةُ. وإنّما عُرف ما ذكرنا بأشياء أُلقيت في نهر الأُردنّ؛ فظهرت في عين نهر أبي فطرس. مَن امتَحَنَ ذلك بعضُ ذوي العناية بأمور العالم ممّن ملك هذه البلاد في سالف الزَمان فيما قيل. وكذلك ذُكِر في زَرَنْرُوْذَ نهر أصبهان أنه ينتهي إلى رملٍ في آخرِ كورتها؛ فيغور، ثم يظهر بكرمان، ويصبُّ في البحر الحبشي، وأنه إنّما عُرِف بذلك بأنّ بعضَ الملوك السالفة كتب على قَصَبٍ، وطرحه في موضع مَغِيضه، فظهر بنهر كرمان. وقد شاهدناه وهو نهرٌ حَسَن، وللفرس فيه أشعار كثيرة.

وليس في هذه البحيرة المنتنة ذو روح من سمك ولا غيره، ومنها يخرج الحُمر الذي يُسمّى قُفْر اليهود، يُطلى على المناجل، ويُكسح به الكروم؛ ليؤمَنَ من الدود عليها، ولغير

ذلك من العلاجات. ولمخرجه منها وما يظهر من الصوت وعلى أيّ صورةٍ يَظْهر؛ أخبارٌ عجيبة، وفيها وحولها يوجد الحجرُ الأصفر المعروف باليهوديّ المحزّز على شكل البطّيخ وخطوطه.

وذكر أبقراط وجالينوس، وغيرهما أنّه يُفَتِّتُ الحصى المتولّد في الكُلَى دون المثانة إذا بُرِّدَ وسُقِي.

وليس فيما عُرِف من معمور الأرض بحيرةٌ لا يتكوّن ذو روحٍ فيها إلاّ هذه البحيرة.

وبحيرة كَبُوذَان وهي على بعض يومٍ من مدينة أُرْمية وبلاد المراغة وغيرهما من بلاد آذربيجان، وهي أعظمُ وأغزرُ وأمرّ وأملح لا يتكوّن ذو روح فيها أيضاً، وهي مُضافَةٌ إلى قريةٍ في جزيرةٍ في وسطها تعرف بكَبُوْذَان، يسكنها ملاّحو المراكب التي يُركَبُ فيها في هذه البحيرة، وتصبُّ إليها أنهارٌ كثيرة، ومياه من بلاد آذربيجان وغيرها، لم يعرض أحدٌ ممّن ذَكَرْنا لوصفها.

وقد صنّف أحمدُ بنُ الطيّب السرخسيّ صاحبُ يعقوب ابن إسحاق الكنديّ كتاباً حَسَناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها، وكذلك أبو عبد اللّه محمد ابن أحمد الجيهاني وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد صاحب خُراسان، ألّف كتاباً في صِفَةِ العالم، وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة، وأبو القاسم عُبيد اللّه بن عبد اللّه بن خُرْداذبه في كتابه المعروف (بالمسالك والممالك) وهو أَعمُّ هذه الكتب شهرةً في خواصّ الناس وعوامّهم في وقتنا هذا، وكذلك محمد بن أحمد بن النجم ابن أبي عَوْن الكاتب في كتابه المترجم «بالنواحي والآفاق والأخبار عن البلدان»، وكثير من عجائب ما في البرّ والبحر، وغيرهم ممّن لم نسمه. فكلّ استفرغ وُسْعَهُ وبذل مجهوده. وقد يُدرِك الواحدُ منهم مالا يدركه الآخر.

وقد ذكرنا في كتابنا هذا وما سلف قبله من كتبنا التي هذا سابعُها أخبارَ العالم وعجائبه، ولم نُخْله من دلائلَ تَعضُدُها، وبراهينَ توتدها عقلاً وخبراً، وغير ذلك ممّا استفاض واشتهر، وشاهدٍ من الشعر على حَسَب الشيء المذكور وحاجته إلى ذلك.

ونحن وإن كان عصرنُا متأخراً عن عصر مَنْ كان قبلنا من المؤلفين، وأيامُنا بعيدةً عن أيامهم؛ فَلْنرجو أن لا نقصِّرَ عنهم في تصنيفٍ نقصدهُ، وغرضٍ نَؤمُّه. وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء، وقد تشترك الخواطر وتتّفق الضمائر، وربّما كان الآخر أحسنَ تأليفاً، وأتقنَ تصنيفاً لحنكة التجارب وخَشْية التتبُّع والاحتراس من مواقع الخطأ، ومن هاهنا صارت العلوم نامية غيرَ متناهية؛ لوجود الاخر مالا يجده الأوّل، وذلك إلى غير غايةٍ محصورة ولا نهاية محدودة، وقد أخبر الله عزّ وجلّ بذلك فقال: ﴿وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. على أنّ من شِيَم كثيرٍ من الناس الإطراءَ للمتقدّمين، وتعظيم كتُبِ السّالفين، ومدح الماضي، وذمّ

الباقي، وإن كان في كتب المحدَثين ما هو أعظمُ فائدةً، وأكثر عائدةً. وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلّف الكتابَ الكثيرَ المعاني الحسنَ النَظْم، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماعَ تُصغي إليه، ولا الإرادات تُيمِّم نحوهُ، ثم يؤلّفُ ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلُّ فائدة ثم ينحلهُ عبدَ اللّه بنَ المقفّع، أوسهلَ بنَ هارون، أو غيرهما من المتقدّمين ومن قد طارت أسماؤهم في المصنّفين؛ فيقبلون على كتْبِها، ويُسارعون إلى نَسْخِها لا لشيء إلاّ لنسبتها إلى المتقدّمين، ولِما يُداخِلُ أهلَ هذا العصر من حَسَدِ مَنْ هو في عصرهم، ومنافسته على المناقب التي يُخَصُّ بها، ويُعنى بتشييدها. وهذه طائفةٌ لا يعبأ بها كبارُ الناس، وإنّما العمل على ذوي النظر، والتأمّل الذين أعطَوا كلَّ شيءٍ حَقَّه من العدل، ووفّوه قِسْطَه من الحقّ؛ فَلَمْ يرفعوا المتقدّمَ إذْ كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخّر إذْ كان زائداً، فلِمثل هؤلاء تُصنَّفُ الكتب وتدوَّنُ العلوم.

وسنذكر الآن الأممَ السبْعَ السالفةَ في سابق الدهر، ولغاتِهم ومواضع مساكِنهم، وغيرَ ذلك.

* * *

ذكر الأمم السبع في سالف الزمان

ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما بانت به كلّ أمّةٍ من غيرها وما اتّصل بذلك

قد قدّمْنا فيما سلَف من كتبنا ما قاله الناس في بدء النسل، وتفرُّقهم على وجه الأرض، وما ذهب إليه كلُّ فريقٍ في ذلك من الشّرعيّين وغيرهم ممَّن قال بحدث[1] العالم وأبى الانقياد إلى الشرائع من البراهمة وغيرهم، وما قاله أصحابُ القِدَم في ذلك من الهند والفلاسفة وأصحاب الاثنين من المانويّة وغيرهم على تَبايُنِهم في ذلك. فَلْنذكرِ الآنَ الأُمم السبْعَ.

---

(١) - كذا وردت، والمعروف: الحدوث وهو نقيض القدم، والخروج من العدم إلى الوجود

ذهب من عنّي بأخبار سوالفِ الأمم، ومساكنهم إلى أنّ أجَلّ الأمم وعظماءهم كانوا في سوالف الدهر سبعاً يتميّزون بثلاثة أشياء: بَشِيَمهم الطبيعيّة وخِلَقِهم الطبيعيّة، وألسنتهم.

فالفُرس أمّةٌ حدُّ بلادها الجبال من الماهات وغيرها وآذربيجان إلى ما يلي بلادَ أرمينية، وأرّان، والبيلقان إلى دَرْبَنْد، وهو الباب والأبواب، والريّ وطبرستان والمَسْقَط والشّابَران وجُرجان وابرشهر، وهي نيسابور، وهَراة ومَرْو، وغير ذلك من بلاد خُراسان، وسجستان، وكرمان، وفارس، والأهواز، وما اتّصل بذلك من أرض الأعاجم في هذا الوقت وكلُّ هذه البلاد كانت مملكةً واحدة مَلِكُها مَلِكٌ واحد، ولسانها واحد، إلاّ أنّهم كانوا يتباينون في شيء يسيرٍ من اللّغات.

وذلك أنّ اللغة إنّما تكون واحدةً بأن تكون حروفُها التي تُكْتَبُ واحدةً، وتأليف حروفها تأليفٌ واحد، وإن اختلف بعد ذلك في سائر الأشياء الأُخَر كالفهلويّة، والدريّة، والآذريّة، وغيرها من لُغات الفُرس.

الأُمَّةُ الثانية: الكلدانيّون، وهم السريانيون، وقد ذُكروا في التوارة بقوله عزَّ وجلَّ لإبراهيم «أنا الربُّ الذي انجيتُك من نارِ الكلدانيين لأجعلَ هذه البلادَ لكَ ميراثاً».

وذكرهم أرسطاطاليسُ في كتابه الذي رسمه بسياسة المدن، وهو كتابٌ ذكر فيه سياسةَ أُممٍ ومُدُنٍ كثيرةٍ من أُمم ومدن اليونانييّن، وغيرها ويُسمَّى باليونانية «بوليطيا» وعدد الأمم والمدن التي ذَكَرَ مئة وسبعون، وفي غيره من كتبه، وأبطلميوس وغيرهما بهذا الاسم، أعني الكلدانييّن.

وكانت دارُ مملكتهم العظمى مدينةَ كَلْوَاذَى من أرض العراق، وإليها أُضيفوا، وكانوا شعوباً وقبائلَ، منهم: النونَويُّون، والأَثُوريُّون، والإرمان، والأردوان، والجرامقة، ونبطُ العراق، وأهل السواد. وقيل: إنّما سُمُّوا نَبَطاً؛ لأنّهم من ولَد نبيط بن باسور بن سام بن نوح، وقيل: إنّما سُمّوا بذلك لا ستنباطهم الأرَضينَ والمياه، وقيل: لمعانٍ غير ذلك. وغيرهم من الشعوب والقبائل وقيل: إنَّ الإرمان إنّما سُمُّوا بذلك لأنَّ عاداً لما هلَكت قيل: ثمودُ إرَم؛ فلما هلكت ثمود

قيل لبقايا إرَم إرمان، وهم النبط الإرمانيّون. وكذلك ذكر ابنُ الكلبيّ وغيره من علماء العرب بأخبار سوالف الأمم.

وكانت بلادُ الكلدانيين العراقَ، وديارَ ربيعة وديار مُضَر، والشأم، وبلاد العرب اليوم، وبرّها ومَدَرها: اليمن، وتهامة، والحجاز، واليمامة، والعَروض، والبحرين، والشِّحْر، وحضرموت، وعمان، وبرّها الذي يلي العراق، وبرّها الذي يلي الشأم.

وهذه جزيرة العرب كانت كلُّها مملكةً واحدة يملكها مَلِكٌ واحدٌ، ولِسانُها واحدٌ سريانيّ، وهو اللّسانُ الأوّل، لسانُ آدمَ، ونوح، وإبراهيم عليهم السلامُ، وغيرهم من الأنبياء فيما ذَكَر أهلُ الكتب.

وإنّما تختلفُ لغاتُ هذه الشعوب من السريانيين اختلافاً يسيراً على حسب ما ذكرنا من حال الفرس. والعبرانيّةُ منها والعربيّة أقربُ اللّغات بعد العبرانية إلى السريانيّة، وليس التفاوت بينهما بالكثير.

وقيل: إنّ أوّلَ مَنْ تكلّم بالعبرانية إبراهيمُ الخليل عليه السلام بعد أن خرج من قريته المعروفة بأوركشد من بلاد كُوثَى

من خُنَيْرَث، وهو إقليمُ بابل، وصار إلى حرّان من أرض الجزيرة، وَعبَرَ الفرات في مَنْ كان معه إلى الشأم فتكلّم بها فسُمِّيَتْ العبرانيّة؛ لحدوثها عند عبوره، إضافة إلى العَبْر، وبها أُنزلت التوارةُ. غيرَ أنّ للإسرائيليين بالعراق لغةً سُريانيّةً تُعرف بالتَّرْجُوْم يُفسِّرون بها التوارةَ من العبرانيّة الأولى؛ لوضوحها عندَهم وقربِ مأخذها، ولفصاحة العبرانيّة وتعذّر فهمها على كثيرٍ منهم.

ولا تنازعَ بينَ النزاريّة، وهم: ربيعةُ ومُضَرَ الصّريحان من ولد إسماعيل، وإياد، وأنمار -على ما فيها من التنازع- بنو نزار بن مَعدّ بن عدنان بن أدّ بن أدد بن مقوّم بن ناخور بن تيرخ ابن يعرب بن يشجب بن نابت بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم.

وقيل: إنّه نزار بن معدّ بن عدنان بن أدّ بن أدد بن يامر ابن يشجب بن يعرب بن الهميسع بن صابوح بن نابت بن قيذار ابن إسمعيل. وبينَ اليمانيّة وهم حِمْيَرُ، وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وغيرهم من جُرْهُم، وحضرموت ابني عابر.

وبينَ الإسرائليين وغيرهِم، أنّ إبراهيمَ الخليل كان سرياني ّ اللّسان، وأنّه إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن ساروغ بن أرعوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متُّوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلائيل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم يجتمع مع اليمانّية في عابر.

وأكثر نُسّابِ اليمانّية وذوو المعرفة منهم يذهبون إلى أنّ أوّلَ من تكلّم بالعربيّة يعربُ بن قحطان، وأنّه إنّما سُمِّي بذلك لإعرابه عن المعاني، وأنّ لسانَ قحطان لم يكن عربياً بل على اللّسان الأوّل لسانِ سام بن نوح وغيرهم، وأنّ إسماعيل بن إبراهيم إنّما تكلّم بالعربيّة حين نشأ في العماليق ولد عملاق ابن لاود بن إرم بن سام بن نوح، وجرهم مع هاجر بمكّة.

ولا خلافَ أيضاً بينَ النزاريّة، وهم ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وبين الإسرائيليّن، وهم بنو إسحاق بن إبراهيم أنّ ابراهيمَ لم يكن عربياً ولا إسحاق ابنه، وأن ابنه إسماعيل أوّلُ من نطق بالعربيّة، وتكلّم بها.

ولا خلافَ بينَ الجميع من النزاريّة واليمانيّة في أن هوداً وصالحاً كانا عربيّين أُرْسِلا إلى عاد وثمود، وأنّهما قبل إبراهيم الخليل، وإنْ لم يكن لهما ذكرٌ في التوراة.

قال المسعوديُّ: وقد ذهب فريقٌ من أخباريّي اليمانيَّةِ ونسَّابهم ممَّن قَدُمَ وغَبرَ إلى أنَّ الملك أفضى بعدَ عاد إلى يقطن، وهو قحطان بن عامر واستشهدوا بقول علقمة ذي جَدَن:

ومُلْكُ قَحْطانَ مُلْكُ عَادٍ وسوف تُفْنِيهمُ الخطُوبُ

ومنهم من رأى أنّه قحطان بن هود بن عبد اللّه بن الخلود بن عاد بن عوض ابن ارم بن سام بن نوح؛ واسمه في التوراة الجبّار بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح واحتجُّوا لذلك بقول الشاعر:

وأبو قَحْطانَ هُودٌ ذو الحِقِفْ

ومنهم من ذهب إلى أنَّ هُوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشد. ونُسَّاب ولد نزار بن معدّ، وبعضُ اليمانيّة؛ كهشام بن محمد بن السائب الكلبيّ، والشرقيّ ابن القطاميّ، ونصر

ابن مزروع الكلبي، وغيرهم - يقولون: قحطان بن الهميسع ابن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم.

ويحتجُّون لذلك بما رواه الهيثمُ بنُ عديّ الطائيّ، وهشامُ بنُ محمّد بن السّائب الكلبيّ عن أبيه محمّد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عبّاس: أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مرّ على فتيةٍ من الأنصار يتناضلون فقال: «ارمُوا يابني إسماعيل فإنّ أباكم كان رامياً، ارمُوا فأنا مع ابن الأَدْرَع» -(رجل من خزاعة)-، فألقى القومُ نبالَهم، وقالوا: يارسولَ اللّه مَنْ كُنْتَ معه فقد نَضَلَ؛ فقال: «ارموا وأنا معكم جميعاً».

وسائرُ اليمانيّة تأبى ذلك، وتذهب إلى أنّه قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح على ما قدّمنا، ويقولون هذا من أخبار الآحاد، وليس من الأخبار المتواترة، القاطعة للعذر، الموجبة للعلم والعمل. ولو صحّ لكان معنى قوله صلى اللّه عليه وسلم: ارموا يا بني إسماعيل. على الأمّهات من ولد إسماعيل. وقد أخبر اللّه عزّ وجلّ عن المسيح أنه من ذُرِّيَّة آدم مع إخباره أنّه خُلِقَ من غير أبٍ ولو أخرجه

مُخْرجٌ من ولد آدم؛ لأنَّه لا أبَ له لكان كاذباً. وإنّما نُسب إلى آدم من جهة أمه. والقوم أعرف بأنسابهم ينقله الباقي عن الماضي قولاً، وعَمَلاً موزوناً إنّهم من ولَد قحطان بن عابر لايعرفون غيرَ ذلك.

ومنهم من رأى أنّ حِمْيَرَ بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أقْدَمُ من عاد، واحتجُّوا بقول الخلجان بن الوهم، وكان من ملوك عاد. وكان جنادة بن الأصَمّ العاديّ رأى في منامه أنّ وَفْدَ عادٍ إلى الحرَم هلكوا، فبلغ ذلك الخلجان فقال:

أفي كُلِّ عامٍ بِدْعةٌ تُحدِثُونها
وَرؤْيا على غير الطَّريقِ تُعَبَّرُ
فإنّ لِعادٍ سُنَّةً يَحْفظُونَها
سَنَخْنا[1] عليها ما حَيِينا ونُقْبَرُ
وإنّا لَنَخزى من أُمورٍ تَسُبُّنا
بها جُرْهُمٌ فين يَسُبُّ وَحِمْيَرُ

(١) - كذا وردت، وسنخ في العلم: رسخ فيه

وأخبار حِمْيَر وكهلان أخبارٌ قديمة سلفت كثيراً من الأمم الماضيـة، وتقـادم بهـا الدهرُ، وترادفت عليـهـا الألـوف من السنين، وقـال الناس في ذلك فأكثروا. وإنّما يُرْجعُ في أكثر ذلك إلى عَبِيد بن شَرْيَة الجُرْهُميّ، ورواة أهل الحيرة وغيرهم.

والكلامُ بينَ اليمانيّة والنزاريّة يكثر، والخطوب تطول، وهو بابٌ كبير، والكلام فيه كثير. ومَنْ ضَمِنَ الاختصارَ، لم يَجُزْ له الإكثار. وقد بسطنا الكلامَ فيه وأتينا على أكثر ما قيل في ذلك، وحجاج الفريقين، وافتخار بعضهم على بعض منثوراً ومنظوماً، وغير ذلك في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهُور السّوالف» وفي كتاب «الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار» وإنّما نذكر في هذا الكتاب لُمَعاً جوامعَ، ننبّه بها على ما قدّمنا، ونشرف بها ما سَلَف من كُتُبنا، إذْ كان مَبنيّاً عليهاو وسُلّماً إليها.

والأمّةُ الثالثة: اليونانيّون، والروم، والصقالبة، والإفرنجة، ومن اتّصل بهم من الأمم في الجربيّ وهوالشمال، كانت لغتُهم واحدةً، ويملكهم مَلِكٌ واحدٌ.

والأمّةُ الرّابعة: لُوبيةُ منها مصر، وما اتّصل بذلك من التيمن وهو الجنوب، وأرض المغرب إلى بحر أوقيانس المحيط لغتُهم واحدة، ويملكهم مَلِكٌ واحدٌ.

والأمّةُ الخامسة: أجناسٌ من الترك الخزلخيّة، والغزُّ وكَيْماك، والطُّغُزْغُز، والَخزَر، ويدعون بالتركيّة «سَبِير» وبالفارسية «خزران». وهم جنسٌ من الترك حاضرة، فعرف اسمُهم فقيل: «الخزر» وغيرهم. لغتهم واحدة، وملكهم واحدٌ.

والأمّة السّادسة: أجناسُ الهند والسّند، وما اتّصل بذلك. لغتُهم واحدةٌ، ومَلِكُهم واحدٌ.

والأمّة السّابعة: الصينُ والسّيلَي، وما اتّصل بذلك من مساكنِ ولَدِ عامور بن يافث بن نوح، مَلِكُهم واحدٌ، ولغتُهم واحدةٌ.

ثم كثُر النسلُ، وتجيّلت الأجيال، وتشعبّتْ الشُّعوب والقبائل، وافترقت اللّغات وتفرّعت، وتجنّست الأُمم وتنوّعَتْ، وتباينوا في الآراء، والعِبادات، والمساكن، والمناسك.

فهذه الأممُ السبعُ كانت متميّزة بعضها من بعض. لكلّ أمّةٍ منها مَلِكٌ على حياله، قد جمعهم عبادةُ الأصنام؛ كلّ أمّة منها يعظمون أصناماً، جعلوها مثالاً لآلهةٍ غيرِ الآلهة التي كان يجل مثلها غيرُهم من الأمم، تمثيلاً بما علا من الجواهر العلوية، والأجسام السمائية؛ التي هي الأشخاص الفلكيّة من السبعة؛ النيِّريْن، وهما: الشمسُ والقمر، والخمسةُ وهي زُحل، والمشترِي، والمرّيخ، والزهرة، وعطارد، وغيرها من ذوات التأثير في هذا العالم الأرضي.

وكانت شرائعُ كلّ أمةٍ بحسب مناسكهم، وحَسَبَ الجهات التي منها معايشُهم، وشِيَمهم الطبيعيّة التي فُطروا عليها، ومَنْ يُجاورهم من سائر الأمم.

قال المسعوديُّ: وقد ذكرنا في كتاب «الاستذكار، لِما جرى في سالف الأعصار» الذي كتابُنا هذا تالٍ له ومبنيٌّ عليه -الاجتماعاتُ السبعة المشهورة لحكماء هؤلاء الأمم السبع في سالف الدهر، اجتمع في كلّ مجمع منها سبعةُ حكماء في أعصار مختلفة، وأوقات متباينة عند حوادث وأحوال أوجبت

اجتماعهم، فجرى لهم فنونٌ من البحث والنظر، وضروب من الحِكَم والعِبرَ، بما يحدث في الدهر من الغِيرَ، بتنقُّل الدول وتَغيُّر الملل، والكلام في العالم ما هو؟ وكيف هو؟ ولِمَ هو؟ وما علّته ومعلولُه وظاهِرُه وباطِنُهُ، وحقائقه واختراع الأجسام، وإنشائها، وإلى ماذا يؤول هو بعد فنائها؟ وغير ذلك؛ من فنون الفحص، وضروب البحث.

فإذْ قد ذكرنا الأمم السبع، ومساكنهم، ولغاتهم، وآرائهم، وما اتّصل بذلك، فَلْنذكرِ الآنَ الفرسَ، وملُوكَهم وأعدادَهم، وما ملَكُوا من السنين.

* * *

ذكر ملوك الفرس

على طبقاتهم من جيومرت، وهو الأول من ملوكهم إلى يزدجرد بن شهريار آخرهم، وعِدّة ما ملكوا من السنين

جملة سنيّ ملوك الفرس الأولى على طبقاتهم، والطوائف والفرس الثانية، وهم الساسانيّة، أربعة آلاف سنة ومئة وأربعون سنة وخمسة أشهر ونصف.

وقد ذهب كثيرٌ ممّنْ عُني بأخبار الفرس، وملوكها، وطبقاتها إلى أنّه قد كانت فتَرات في ملك الفرس الأولى، مقدارها من السنين ثلاثمئة سنة وإحدى وثلاثون سنة.

من ذلك الفترة بين ملك جيومرت وأوشهنج مئتا سنة وثلاث وعشرون سنة.

والفترة بين مُلْك أوشهنج وطهمورث مئة سنة وثمان سنين، فإذا أضيفت سنوّ هذه الفترات إلى ما ذكرنا من السنين صار الجميع أربعة آلاف سنة وأربعمئة وإحدى وسبعين سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

* * *

ذكر الطبقة الأولى

من ملوك الفرس الأولى

أَوَّلُهم جيومرت كِلشاه، وتفسيرُ ذلك مَلِكُ الطّين، وإليه ترجع الفرسُ في أنسابهم[1]، وهو عندهم آدم أبو البشر، وأصل النسل. ملك أربعين سنة، وقيل ثلاثين، وذلك في الهزاريكه الأولى من بدء النسل، وتفسيز ذلك الألف سنة. وكان ينزل إصطخر فارس.

اوشهنج ملك أربعين سنة

طهمورث ملك ثلاثين سنة

جم ملك سبعمئة سنة وثلاثة أشهر

---

(١) – كذا وردت في الطبعة الأوربية، وفي بعض النسخ: أنسابها.

البيوراسب، وهو الضحّاك ملك ألف سنة، والفرس تغلو فيه، وتذكر من أخباره أنّ حيّتين كانتا في كتفيه تَعتريانه لاتهدأان إلاّ بأدمغة الناس، وأنه كان ساحراً يُطيعه الجنّ والإنس، وملك الأقاليم السبعة، وأنه لمّا عَظُم بَغْيُهُ وزاد عتُوُّه، وأباد خلقاً كثيراً من أهل مملكته؛ ظهر رجل من عوامّ الناس، وذوي النُّسك منهم من أهل أصبهان إسكاف يقال له: «كابي» ورفع رايةً من جلودٍ علامةً له، ودعا الناس إلى خَلْع الضحّاك وقَتْله، وتَمليك أفريذون، فاتّبعه عوامٌّ الناس وكثيرٌ من خواصّهم.

وسار إلى الضحاك، فقبض عليه وأنفذه أفريذون إلى أعلى جبل دُباوَنْد بين الريّ وَطَبرِستان، فأُودع هناك وإنه حيٌّ إلى هذا الوقت، مُقيّدٌ هناك، في أخبار يطولُ ذِكْرُها، قد شرحناها في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وعَظُم ابتهاجُ الناس بما نال الضحّاكَ بِجَوْره وسوءِ سياسته، وتيمّنوا بتلك الرّاية؛ فَسُمِّيتْ «دِرَفْش كابيان» إضافةً إلى كابي صاحبها، والدِّرَفْش بالفارسيّة الأولى الراية وبهذه الفارسية

«إشفى الخرْز» وحُلّيت بالذهب وأنواع الجواهر الثمينة، وكانت لا تظهر إلاّ في حروبٍ عظيمة، تُنشر على رأس الملك أولَيّ عهده، أو مَنْ يقومُ مقامه.

فلم تزل مُعظّمةً عند جميع ملوكهم إلى أنْ وجّه بها يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس من الساسانية مع رستم الآذريّ لحرب العرب بالقادسية في سنة ١٦ على ما في ذلك من التنازع. فلما هُزِمتِ الفرسُ وقُتِلَ رُستم، صارت هذه الراية إلى ضِرار بن الخطاب الفهريّ، فَقُوّمتْ ألفي ألف دينار، وقيل إنّ أَخْذَها كان يومَ فتح المدائن، وقيل يومَ فتح نَهاوَنْد، وكذلك في سنة ١٩ وقيل في سنة ٢١.

فلما تهيّأ على الضحّاك من كابي ومَنْ اتّبعه؛ أَكْثَرَ أردشير في عهده التحذيرَ لِمنْ بعدَهُ من الملوك من التهاون بما يكونُ من نوابغ العوامْ ونُسّاكهم من التجمّع والترؤّس، وأنّ ذلك إذا أُهْمِلَ فتفاقم آل إلى انتقال الملك، وزوال الرسوم.

وكذلك فعل أرسطاطاليُس -في تحذيره الإسكندر في كثيرٍ من رسائله- وغيرهُما من ذوي المعرفة بسياسة الدّين والملك.

واليمانيَّةُ من العرب تَدَّعى الضحاك وتَزْعُم أنَّه من الأزد، وقد ذكرته الشعراء في الإسلام، فافتخر به أبو نواس الحسن بن هانىء، مولى بنى حكم بن سعد العشيرة بن مالك ابن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، في قصيدته التي هجا فيها قبائل نزار بأسرها وافتخر بقحطان وقبائلها، وهي قصيدته المشهورة التي أطال الرشيد حَبْسَه بسببها، وقيل إنَّه حَدَّه لأجلها وأولّها:

لَسْتُ لـدارٍ عفَتْ وغيَّرهـا ... ضَرْبانِ من قَطْرِها وحَاصِبِها

فقال فيها مفتخراً باليمن وذاكراً للضحَّاك:

فنحن أُربابُ ناعطٍ ولنا ... صنعاءُ والمِسْكُ في محارِبها
وكان منّا الضحَّاكُ يَعْبُدُه ال ... خابلُ والطيرُ في مَسَارِبِها[1]

وفيما يقولُ يهجو نزاراً:

واهْجُ نِزاراً وأفرِ جِلدتَها ... وكَشِّفِ السِّتْرَ عن مَثَالِبِها

(١) - الخابل: الجنّ

وقد ردّ عليه قصيدتَه هذه جماعةٌ من النزاريّة، منهم رجلٌ من بني ربيعة بن نزار، قال يذكر نزاراً ومناقِبَها، واليمنَ ومثالِبَها في قصيدةٍ له أولها:

دعْ مدحَ دار خبا وانتهى عهدُ معدٍّ بزَعْمِ عاتبها

فقال:

فامدحْ مَعداً وافخر بمنصبها الـ
ـعالي على الناسِ في مناصبها
وَهتِّك السِّتْرَ عن ذَوي يَمَنَ
أولادِ قحطَانَ غَيْرَ هائبها

وذكر أبو تمام الضحّاكَ في قصيدة له يمدح الأفشين، ويُشَبِّهُهُ بأفريذون ويذكرَ بابكَ، ويشبِّهُهُ بالضحّاك هذه أولها:

بَذَّ الجِلادُ البذَّ فهو دَفينُ ما إنْ به غيْرُ الوحوشِ قَطِينُ

فقال:

بل كان كالضحّاكِ في سَطَواته بالعالَمينَ وأنتَ أفريذونُ

وقد ذهب كثيرٌ من ذوي المعرفة بأخبار الأمم السَّالفة، وملوكها إلى أنَّ الضحَّاك كان من أوائلِ ملوكِ الكلدانيّين النبط.

أفريذون ملك خمسمئة سنة.

* * *

ذكر الطبقة الثانية

من ملوك الفرس الأولى وهم بَلاَن، معنى ذلك العلويون

أولُهم مَنوشَهر ملك مئة سنة وعشرين سنة، والفرسُ تُعظِّم أمرَهُ وترفع من شأنه لأمورٍ ذكروها، ومعجزات وصفوها، وبينه وبين أفريذون ثلاثةَ عَشرَ آباء. وهو من ولد ايرج بن أفريذون، وكان له سبعة أولاد إليهم ترجع أكثر شعوب فارس في أنسابها، وسائر طبقات ملوكها، وهو كالشجرة للفرس في النسب، وكذلك الأكراد عند الفرس من ولد كُرد بن اسفَنْديار بن منوشهر؛ منهم البازنجان والشوهجان، والشاذنجان، والنشاورة والبوذيكان واللُّريّة والجورُقان والجاوانية، والبارسيان، والجلالّية، والمُستْكان والجابارقة، والجُروغان والكيكان، والماجُرداْن والهذبانّية وغيرهم ممَّن بزموم فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان،

وإصبهان، وأرض الجبال من الماهات؛ ماه الكوفة، وماه البصرة، وماه سبَذان والايغارَيْن، وهما: البُرجْ، وكَرجَ أبي دلُف، وهمذان وشهرزور، ودراباذ، والصامغان، وآذربيجان، وأرمينية وأرّان والبيلقان، والباب والأبواب، ومن بالجزيرة والشأم والثغور.

وقد ذهب قومٌ من متأخّري الأكراد وذوي الدّارية -منهم مَنْ شاهدناهم فيما ذكرنا من البلاد- إلى أنهم من ولَد كرد بن مرد بن صعصعة بن حرب بن هوازن.

ومنهم من يَرى أنّهم من ولد سبُيْع بن هوازن، وحرب. وسبُيْع عند نُسّاب مُضَر درَجا فلا عقبَ لهما[1]، وإنّما العقبُ لهوازن من بكر بن هوازن.

ومن الأكراد من يذهب إلى أنّهم من ربيعة ثم من بكر ابن وائل، وقعوا في قديم الزمان -لحروبٍ كانت بينهم- إلى أرض الأعاجم، وتفرّقوا فيهم، وحالت لُغتُهم، وصاروا شعوباً وقبائل.

(١) - درج فلان: مات ولم يخلف نسلاً.

قال المسعوديُّ : وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا سائرَ من سكن البدوَ والجبال، في المشرق والمغرب والشّمال والجنوب؛ من العرب والأكراد والجت والبلوج والكوج، وهم القُفْص ببلاد كرمان، والبربر بأرض إفريقية والمغرب من كُتامة، وزويلة ومزاتة ولواتة ،وهوارة وصنهاجة وأوربة ولْمطة وغيرهم، من بطون البربر وشعوبهم، والفيرة والبُجَة وغيرهم من الأمم المخّيمة .

وقيل : إنّه ملك بعدَ منوشهر سَهْمُ بن أمان بن أثفيان بن نوذر بن منوشهر ستّين سنةً، ثم فراسيات التركيّ اثنتي عشرة سنة، ثم غلبه زَوّ، وملك ثلاث سنين، وكَرشاسْب ثلاث سنين .

* * *

ذكر الطبقة الثالثة

من ملوك الفرس الأولى، وهم الكيانيّون، تفسير ذلك الأعزاء.

أَوّلهم كَيقُباذ ملك مئة سنة وعشرين سنة.

وكَيْقاوس مئة سنة وخمسين سنة.

وكَيْخسرو ستين سنة.

وكَيْلهْر اسْب مئة سنة وعشرين سنة.

وكَيْشْتاسْب مئة سنة وعشرين سنة أيضاً. ولثلاثين سنة خلت من مُلْكه أتاه زرادشْت بن بورشَسْب بن اسبيمان بدين المجوسيّة؛ فقَبِلَها، وحَملَ أهلَ مملكته عليها، وقاتل عليها حتى ظهرت.

وكانوا قبل ذلك على رأي الحنفاء وهم الصائبون، وهو المذهب الذي أتى به بوذاسْب إلى طهمورث، وهذه كلمة

سريانية عُرِّبت وإنَّما هي «حنيفوا» وقيل جيء بحرف بين الباء والفاء، وأنّه ليس للسريانيين فاء. وذكر أن الصَّابئين نُسِبوا إلى صابي متوشلخ بن إدريس، وكان على الحنيفيّة الأولى وقيل إلى صابي بن ماري، وكان في عصر إبراهيم الخليل عليه السلام، وغير ذلك من الأوقايل مّما قدّمنا شرحَه فيما سلف من كتبنا.

وجاءه زرادشت بالكتاب المعروف «بالأَبَسْتا» وإذا عُرِّب أُثبِتتْ فيه قاف فقيل: «الأبستاق» وعدَدُ سوره إحدى وعشرون سورة، كلّ سورة في مئتين من الأوراق. وعدد حروفه وأصواته ستّون حرفاً وصوتاً، لكلّ حرفٍ وصوت صورة مفردة منها حروف تتكرّر، ومنها حروف تسقط؛ إذْ ليست خاصّةً بلسانِ الأبستا.

وزَرَادُشْت أحدثَ هذا الخطّ، والمجوس تُسمّيه «دين دبيره» أي كتابة الدّين. وكُتِبَ في اثني عشر ألف جِلْد ثور بقضبان الذهب حَفْراً باللغة الفارسية الأولى ولا يُعلم أحدٌ اليوم يعرف معنى تلك اللغة، وإنما نُقِل لهم إلى هذه الفارسيّة

شيءٌ من السور فهي في أيديهم يقرؤونها في صلَوَاتهم «كأشتاذ، وجِترَشْت، وبانيست وهادُوخت» وغيرها من السّور. في جِترَشْت الخبرُ عن مبدأ العالم ومنتهاه، وفي هادوخت مواعظ.

وعمل زَرَادُشْت للأبستا شرحاً سمَّاه «الزنّد» وهو عندهم كلامُ الربّ المنزَل على زرادشت، ثم ترجمه زرادشت من لغة الفهلويّة إلى الفارسيّة.

ثم عمل زرادشت للزنّد شرحاً سماّه «بازند» وعملت العلماءُ من الموابذة والهرابذة لذلك الشرح شرحاً سَمُّوهُ «بارده» ومنهم من يُسمّيه «أكرده» فأحرقه الإسكندر لَمَّا غَلَبَ على ملك فارس، وقتل دارا بن دارا.

وأحدث زرادشت خَطّاً آخر تسمّيه المجوسُ «كشن دبيره» تفسيرُهُ: كتابة، الكلّ يكتب به سائر لغات الأمم، وصياح البهائم، والطير، وغير ذلك، عددُ حروفه وأصواته مئة وستّون، لكلّ حرفٍ وصوت صورةٌ مفردةٌ.

وليس في سائر خطوط الأمم أكثر حروفاً من هذين الخطّين، لأنّ حروفَ اليوناني وهو المسمّى الروميّ في هذا الوقت أربعةٌ وعشرون حرفاً؛ ليس لهم حاء ولا خاء ولا عين ولا باء ولا هاء؛ وحروف السريانّي اثنان وعشرون، والعبرانّي هو السرياني غيرَ أن حروفَهُ مُقَطَّعةٌ.

ومنها مالا يشبه صورتُهُ صورةَ السريانّي والحِمْيَريّ، وهو قَلَمُ حِمْيَرَ المعروف بالمسند يقرب من السرياني، وحروف العربي بالخطّين تسعةٌ وعشرون حرفاً، وما عدا ذلك من حروف الأمم يقرب بعضُها من بعض.

وللفرس غيرُ هذين الخطّين اللذين أحدثهما زرادشت خمسةُ خطوط منها ما تَدْخُله اللغةُ النبطية، ومنها مالا تدخله، وقد أتينا على شرح جميع ذلك، وما ذكروا له من المعجزات والدلائل والعلامات، وما يذهبون إليه في الخمسة القدماء عندهم «أورمزد» وهو الله عز وجل و «أهرمن» وهو الشيطان الشرير، و «كاه» وهو الزمان، و «جاي» وهو المكان، و «هوم» وهو الطّيبة(١) والخمير، وحِجاجهم لذلك، وعلّة تعظيمهم

(١) – في طبعة الصاوي: الطينة والخميرة.

للنيّرين، وغيرهما من الأنوار، والفرق بين النار والنور، والكلام في بدء النسل، وما كان من «ميشاه» وهو مهلا بن كيومرت، ومن «ميشاني» وهو مهلينه بنت كيومرت. وأنّ الناس من الفرس يرجعون في أنسابهم إليهما، وغير ذلك من دياناتهم، ووجوه عباداتهم ومواضع بيوت نيرانهم فيما سمّينا من كتبنا.

ومتكلّمو الإسلام من أصحاب الكتب في المقالات، ومَنْ قَصَدَ إلى الردّ على هؤلاء القوم ممّن سلف وخلَف يحكون عنهم أنهم يزعُمون أنّ اللّه تفكّر فحدَثَ من فكره شرٌّ وأنّه الشيطان، وأنه صالحه وأمهله مدّةً من الزمان يفتنه فيها، وغير ذلك من مذاهبهم ممّا تأباه المجوس، ولا تنقاد إليه، ولا تقرّ به.

وأرى أن ذلك حكايةٌ عن بعض عوامّهم ممّن سُمِعَ يَعتقدُ ذلك فَنُسِب إلى الجميع وبهمن ملك مئة سنة واثنتي عشرة سنة، وخُماني ابنته ثلاثين سنة، ودارا الأكبر بن بهمن اثنتي عشرة سنة ودارا بن دارا أربع عشرة سنة وغلب الإسكندر ملكهم ست سنين.

قال المسعوديّ: وقد ذكرنا في آخر الجزء السابع من كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» لأيّة علّةٍ كثّرت الفرسُ سنيّ هؤلاء الملوك وأسرارهم في ذلك، وحروبهم مع ملوك الترك، وتُسمّى تلك الحروبُ «بيكار» معنى ذلك الإجهاد، وغيرهم من الأمم وحروب رستم بن دستان واسبندياذ[1] ببلاد خراسان وسجستان وزابلستان وغير ذلك ممّا كان من الكوائن والأحداث في أيامهم.

وذكرنا في كتابنا في «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة» تنازعَ الناس في هؤلاء الفرس الأولى أهُمُ الكلدانيون؟ أم المُلْكُ أفضى إليهم عنهم؟ وقول من قال إن الكلدانيّين إنّما زال ملكهم بالأثوريين ملوك الموصل، بعد ما كان بينهم من التحزُّب والحروب التي أفنتهم؛ ومن قال إنّ أول مملكة كانت في إقليم بابل بعد الطّوفان ملك نمرود الجبار ومَنْ تلاه من النماردة. وكذلك هو في التوارة، وغير ذلك من التنازع في الأمم الذين

---

(١) – وردت في طبعة الصاوي: اسفنديار.

بعدت عنا أعصارُهم، وتقطّعت أخبارهم، وقد نفى اللّه عز وجل الإحاطة بعلم أحوال القرون الخالية والأمم السالفة عمّن سواه، لِتقادُم زمانها، وبُعْدِ أيامها فقال سبحانه ﴿ألم يأتِهِمْ نَبأ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نوح وعادٍ وثمودَ والّذينَ منْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلاّ اللّه﴾

* * *

ذكر ما أدركه الإحصاء من ملوك الطوائف

وهي الطبقة الرابعة من ملوك الفرس وجملة ما مَلَكُوا من السنين

كانت ملوك الطوائف نحواً من مئة ملك، فرسٌ ونَبَطٌ وعرب، من حدّ بلاد أثور وهي الموصل إلى أقصى بلاد الأعاجم، وكان المعظَّمين منهم، والذين ينقاد الباقون إليهم الأشْغانيّون، وهم من ولد أشغان بن أش الجبّار بن سِيَاوُخْش ابن كيقاوس الملك، وكانوا ينزلون في الشّتاء العراق، وفي الصيف الشيز من بلاد آذربيجان، وفيها إلى هذا الوقت آثار عجيبة من البنيان والصّور، بأنواع الأصباغ العجيبة من صور الأفلاك والنجوم والعالم وما فيه من برّ وبحر وعامر، ونبات وحيوان، وغير ذلك من العجائب.

ولهم فيها بيت نار معظّم عند سائر طبقات الفرس يقال له «آذَرْخُش» و «آذر» أحدُ أسماء النار بالفارسيّة و «الخش» الطيّب.

وكان الملك من ملوك الفرس إذا ملك زاره، زاره ماشياً تعظيماً له، وتُنذر له النذور، وتُحمل إليه التحف والأموال، وغير ذلك، من البلاد، كالماهات، وأرض الجبال.

ولم يُعَدّ من ملوك الطوائف في التواريخ والسير إلاّ الأشغانيّون؛ لما ذكرنا من عِظَم شأنهم واتّساق ملكهم.

وكان أوّل مَنْ يُعَدّ منهم أشك بن أشك بن أردوان بن أشغان بن أش الجبّار بن سِياوُخْش بن كيقاوس الملك؛ ملك عشر سنين. وسابور بن أشك ستّين سنة. وجوذرز بن أشك عشر سنين. بيزن بن سابور إحدى وعشرين سنة. جوذرز بن بيزن تسع عشرة سنة. نرسى بن بيزن أربعين سنة. هرمز بن بيزن تسع عشرة سنة. أردوان الأكبر اثنتي عشرة سنة. خُسْرَو ابن أردوان أربعين سنة. بلاش بن خُسْرَو أربعاً وعشرين سنة، أروذان الأصغر ثلاث عشرة سنة.

فهذه جملة ما أدركه الإحصاء من ملوك الطوائف وسني ملكهم، وهم أحدَ عَشَرَ ملكاً ملكوا مئتي سنة وثماني وستّين سنة .

وقد كانت لهم ملوك لم تعرف أسماؤهم، ومدة سنيّ مُلْكهم، ولم يُذكروا في شيءٍ من كتب الفرس وغيرها من كُتُب سير الملوك؛ لا ضطراب أمر الملك في تلك الأعصار، والتنازع الواقع من اختلاف الكلمة، والتحزُّب، وغلبة كلّ واحد منهم على صقُعه، ولِما نحن ذاكروه في آخر هذا الباب من فعل أردشير بابكان .

والصحيح عندَ من عُنيَ بأخبار سوالف الأمم وملوكهم أنّ مُدّةَ ملوك الطوائف بعد قتل داريوش وهو دارا بنُ دارا إلى قيام أردشير بن بابك خمسمئة سنة وثلاث عَشْرةَ سنة . وذلك أنّ من أول السنة التي مَلَك فيها الإسكندر بنِ فيلبُّس الملك المقدوني إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة، ألف سنة ومئتين وسبعاً وستّين سنة، فإذا أسقط من ذلك ما بين سنة ٣٤٥ وسنة ٣٢ للهجرة، وهي السنة التي قُتل فيها يزدجر بن شهريار الملك ، وذلك ثلاثمئة وثلاث عشرة سنة .

وما ملكت الفرس من السّاسانية من السنين وهو أربعمئة وتسع وثلاثون سنة كان الذي يبقى بعد ذلك من السنين منذ قَتْل الإسكندر لداريوش، وهو دارا بن دارا إلى قيام أردشير بن بابك خمسمئة سنة وثلاث عشرة سنة، وهي مدّة ملك ملوك الطوائف.

وقد ذكرنا جميع ما قيل في ذلك على الشرح والإيضاح في كتابنا في «أخبار الزمان» وفيما تلاه من الكتاب الأوسط، ثم في الجزء السابع من كتاب: «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في النسخة الأخيرة، التي قَرَّرْنا أمرها في هذا الوقت على ما يجب من الزيادات الكثيرة، وتبديل المعاني، وتغيير العبارات. وهي أضعاف النسخة الأولى التي ألّفناها في سنة ٣٣٢. وإنّما ذكرنا ذلك لا ستفاضة تلك النسخة وكثرتها في أيدي الناس، ثم كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف». ثم في كتاب «ذخائر العلوم وما جرى في سالف الدهور»، ثم في كتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار» الذي كتابنا هذا تالٍ له ومبنيٌّ عليه، وهو سابعها. وكلٌّ واحدٍ من هذه الكتب تالٍ لما قبله ومبنيٌّ عليه، وخَصصنَا

كلّ كتاب منها بتلاقينَ وعبارات مّما لم نَخْصُصْ به الآخر؛ إلاّ مالا يَسَعُ تَرْكُهُ.

وبين الفرس وغيرهم من الأمم في تأريخ الإسكندر تفاوتٌ عظيمٌ، وقد أغفل ذلك كثيرٌ من الناس، وهو سرٌّ دِيانيّ ومُلوكيّ من أسرار الفرس لا يكادُ يعرفه إلاّ الموابذةُ والهرابذةُ، وغيرهم من ذوي التحصيل منهم والدراية؛ على ما شاهدناه بأرض فارس وكرمان وغيرهما من أرض الأعاجم. وليس يوجد في شيءٍ من الكتب المؤلّفة لأخبارِ الفرس وغيرها من كتب السّير والتواريخ، وهو أنّ زرادشت بن بورشسب بن أسبيمان ذكَر في الأبستا -وهو الكتاب المنزل عليه عندهم- إنّ مُلْكَهم يضطربُ بعد ثلاثمئة سنة، ويبقى دينهم. فإذا كان على رأس ألفِ سنة ذهب الدينُ والمُلْكُ جميعاً.

وكان بينَ زرادشت والإسكندر نحوُ من ثلاثمئة سنة، لأنّ زرادشت ظهر في مُلْك كَيْشْتاسْب بن كيلُهْراسْب؛ على ما قدمنا من خبره فيما سلف من هذا الكتاب؛ وأردشير بن بابك حاز الملك وجمع الممالك بعد الإسكندر بخمسمئة سنة

وبضع عشرة سنة؛ فنظر فإذا الذي بقي إلى تمام الألف سنة نحو من مئتي سنة، فأراد أنْ يمدّ الملكَ مئتي سنة أخرى؛ لأنّه خشيَ إنْ تَمّتْ مئتا سنة بعده أن يتركَ الناس نُصْرةَ الملك، والذبّ عنه؛ ثقةً بخبرَ نبيّهم في زواله؛ فَنَقَصَ من الخمسمئة سنة والبضع عَشْرة سنة التي بينه وبين الإسكندر نحواً من نصفها، وذكر من ملوك الطوائف من ملك هذه السنين، وأسقط من عَداهم، وأشاع في المملكة أنّ ظهوره واستيلاءَهُ على ملوك الطوائف، وقَتْلَه أردوان أعظمهم شأناً، وأكبرهم[1] جنوداً إنّما كان في سنة مئتين وستّين بعد الإسكندر؛ فأوقع التاريخ بذلك وانتشر في الناس.

فلهذا وقع الخلافُ بينَ الفرس، وغيرهم من الأمم، واضْطربَ تأريخ سنيّ ملوك الطوائف لهذه العلّة.

وقد ذكر ذلك أردشير بن بابك في آخر عهده الذي أورثه مَنْ بعده من الملوك من ولده في سياسة الدين والملك فقال «ولولا اليقين بالبوار النازل على رأس الألف سنة لظننت أني قد خلّفت فيكم من عهدي. ما إن تمسّكْتُم به؛ كان علامةً

(١) - كذا وردت، وأحسبها: أكثرهم.

لبقائكم ما بقيَ الليلُ والنهار، ولكنّ الفناءَ إذا جاءت أيامهُ. أطعتم أهواءكم، واطّرحتم آراءكم، ومَلّكْتم شِراركم، وأذللتم خيارَكم».

وذكر ذلك أيضاً تنشر موبذ أردشير الداعي إليه والمبشّر بظهوره في آخر رسالته إلى مَاجُشْنَس، صاحب جبال دُبَاوَنْد، والريّ، وطبرستان، والديلم، وجيلان، فقال:

«ولولا أنّا قد علَمنا أنّ بليّةً نازلةً على رأس الألف سنة لقلنا إنّ ملك الملوك قد أحكَم الأمرَ للأبد، ولكنّا قد علمنا إنّ البلايا على رأس الألف سنة، وأنّ سببَ ذلك تركُ أمر الملوك، وإغلاقُ ما أَطلق، وإطلاقُ ما أغلق؛ وذلك للفناء الذي لا بدّ منه، ولكنّا وإن كنّا أهلَ فناء فإنّ علينا أنْ نعملَ للبقاء، ونحتال له إلى أَمَدِ الفناء. فكنْ من أهلِ ذلك، ولا تُعِنِ الفناءَ على نفسِك وقومكَ؛ فإنّ الفناءَ مُكْتَفٍ بقُوّته عن أنْ يُعَانَ، وأنت محتاجٌ إلى أن تُعِينَ نَفْسَك بما يَزِينُكَ في دار الفناء، وينفعُكَ في دار البقاء، ونسأل اللّه أنْ يجعلَك من ذلك بأرفعَ منزلةٍ وأعلى درجة».

* * *

ذكر ملوك الفرس الثانية

وهم الساسانية، وهي الطبقة الخامسة من ملوكهم

كان أولهم أردشير بن بابك بن ساسان بَابَك من ولد بهمن بن اسبندياذ[1] بن كيبشتاسب بن كيلهراسب، وهو الذي أزال ملوك الطوائف، ويُسمَّى مُلْكُه «مُلْك الاجتماع» مَلَكَ أربعَ عشرة سنةً وشهوراً، ثم زهد في الملك وسلّمه إلى ولده سابور، وتفرّد بالعبادة. وبَعُدَ مُلْكُه مُذْ قتل أردوان الملك، وكان من أعظم ملوك الطوائف بالعراق. وقد ذكرنا السبب في مبدأ ظهور أردشير، وخبر داعيه تنشر الزاهد. وفي الناس من يُسمِّيه دوشر، وكان أفلاطونّي المذهب من أبناء ملوك الطوائف، أفضى مُلْك أبيه إليه بأرض فارس، فَزهِدَ فيه، وكيف دعا إلى أردشير وبشّر بظهوره، وبثّ الدعاة في البلاد لذلك ووطّأ له الامر، حتى اجتمع له الملك، واستظهر على

---

(١) - في مروج الذهب: اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف

جميع ملوك الطوائف، ولِتنشر رسائلُ حِسان في أنواع السِّياسة الملوكيّة والدِيانيّة يُخبر عن أردشير وحاله، ويعتذر عنه ممّا فعل في مُلكه من أمور أحدثها في الدين والملك، لم تُعْهَد لأحد من الملوك قبله، وأنّ ذلك هو الصّلاح لِما تُوجبه الأحوال في ذلك الزمان.

منها رسالته إلى ماجشنس المقدّم ذكرها، ورسالته إلى ملك الهند وغيرهما من رسائله.

الثاني: سابور بن أردشير. مَلَكَ إحدى وثلاثين سنة وستّةَ أشهر، وفي أيامه كان «ماني» وإليه تضاف «المانويّة» من أصحاب الاثنين.

الثالث: هرمز بن سابور، ملك سنة وعشرة أشهر.

الرابع: بَهْرام بن هرمز، ملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر، وقَتَلَ ماني وعِدّةً من متّبعيه وذلك بمدينة سابور فارس.

الخامس: بَهْرام بن بهرام، مَلَكَ سبعَ عشرة سنة وقيل: ثماني عشرة.

السادس : بهرام بن بهرام بن بهرام، ملك أربع سنين وأربعة اشهر.

السابع : نرسي بن بهرام بن بهرام، ملك تسع سنين وستة أشهر

الثامن : هرمز بن نرسي، ملك سبع سنين وخمسة أشهر.

التاسع : سابور ذو الأكتاف بن هرمز؛ ملك اثنتين وسبعين سنة.

العاشر : أردشير بن هرمز؛ ملك أربع سنين.

الحادي عشر : سابور بن سابور ذي الأكتاف، ملك خمس سنين وأربعة أشهر.

والثاني عشر : بهرام بن سابور، ملك إحدى عشرة سنة.

والثالث عشر : يزدجرد الأثيم بن سابور، ملك إحدى وعشرين سنة.

الرابع عشر: بهرام جُور بن يزدجرد، ملك ثلاثا وعشرين سنة، وهو الذي نشأ عند ملوك الحيرة وبُنَي له الخوَرْنَق؛ لأمورٍ قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا وكان فصيحاً بالعربيَّة وله بها شعر صالح.

الخامس عشر: يزدجرد بن بهرام جُور، ملك ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام.

السادس عشر: فيروز بن يزدجرد، ملك سبعاً وعشرين سنة، وقتله اخشنوار ملك الهياطلة.

السابع عشر: بَلاش بن فيروز ملك أربع سنين.

الثامن عشر: قباذ بن فيروز، ملك ثلاثاً وأربعين سنة، وفي أيامه كان «مزدق» الموبذ المتأوّل كتاب زرادشت المعروف بالأبستاق، والجاعل لظاهره باطناً بخلاف ظاهره، وهو أوّل مَنْ يُعَدُّ من أصحاب التأويل والباطن والعدول عن الظاهر في شريعة زرادشت، إليه تُضَاف المزدقية.

والتاسع عشر: أنوشروان بن قُباذ ملك ثماني وأربعين سنة، وقَتَل مزدقاً ومتّبعيه. وقد أتينا على الفَرْق بين مذهب

مزدق، وما كان يذهب إليه في التأويل، وبين ما ذهب إليه ماني، والفرق بين ماني ومَنْ تقدَّمه من أصحاب الاثنين، كابن ديصان ومرقيون وغيرهما، وما ذهبوا إليه جميعاً في الفاعلين، وأنّ أحدهما خيِّر محمود مرغوب، والآخر شرِّير مذموم مرهوبٌ منه. والفرق بين هؤلاء جميعاً، وما يذهب إليه الباطنية أصحاب التأويل في هذا الوقت في كتاب: «خزائن الدين وسر العالمين».

وأنوشروان أول من سنّ رسوم الخراج، وبين وضائعه. وكان فيما سلف مُقاسمة. وقد كان أبوه قباذ شرع في ذلك في آخر أيامه ولم يُتّمه. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «الاستذكار، لِما جرى في سالف الأعصار» في باب ذكر السَّواد، ومساحته، ووصف طساسيجه، وقسمته، والعراق وحدوده من الأرض، ووصف نهاياته في الطول والعرض.

والعشرون: هرمز بن أنوشروان ملك اثنتي عشرة سنة، وخالف عيه بهرام جوبين الرازيّ؛ فآل ذلك إلى أن سُمِلَ هرمز، ولا يعلم فيمن قبله وبعده مِنْ ملوك الفرس مَن سُمِلَ غيرهُ.

والحادي والعشرون: خسرو أبرويز بن هرمز، ملك ثماني وثلاثين سنةً، وقتله ابنه شيرويه بن أبرويز.

والثاني والعشرون: شيرويه بن أبرويز قَاتِلُ أبيه، واسمه قباذ ملك ستة أشهر.

والثالث والعشرون: أردشير بن شيرويه ملك سنة وستة أشهر.

الرابع والعشرون: شهْربَراز ملك أربعين يوماً. وقد أتينا على خبره وسبب مقتله ومقتل غيره من فرسان الفرس وشجعانهم على طبقاتهم من الملوك وغيرهم ممَّن أجمع على تقديمه وتفضيله وشجاعته ومقاماته المشهورة وأيامه المذكورة في كتاب لنا ترجمناه بكتاب: «مقاتل فرسان العجم» مُعارضةً لكتاب أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى في كتابه «مقاتل فرسان العرب».

والخامس والعشرون: كسرى بن قباذ، ملك ثلاثة أشهر.

السادس والعشرون: بوران بنة كسرى أبرويز، ملكت سنةً وستَّة أشهر، وكان ملكها في السنة الثانية من الهجرة وفيها

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حين بلغه تمليكُ الفرس إيّاها وما بينهم من التّحَزُّب والفتن «لا يُفلحُ قومٌ يُدبّر أمرَهُم امرأة».

السابع والعشرون: فيروز جشنس بنده، ملك ستة أشهر.

الثامن والعشرون: أَزْرُمِيدُخْت بنت كسرى أبرويز. ملكت ستّة أشهر، وكان خُرُّهرمز الآذري أصبهبذ خراسان، وهو أبو رستم صاحب القادسيّة بالحضرة فطمع فيها وراسلها في الاجتماع معها فواعدته ليلاً، وأمرت صاحبَ الحرسِ بالفتك به ففعل ذلك، وكان رستم يخلف أباه بخراسان، وقيل بآذربيجان وإرمينية، فلمّا بلغه قتلها لأبيه سار إليها فقتلها به، وذلك في السنة العاشرة من الهجرة.

التاسع والعشرون: فَرُّخْزاد خُسْرُو بن أبرويز، ملك سنة.

الثلاثون: يزجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جُور بن

يزدجرد الأثيم بن سابور الأصغر بن سابور الأكبر ذي الأكتاف ابن هرمز بن نرسي بن بَهْرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك ملك عشرين سنة، وهو آخر ملوكهم والمقتول بمرو من بلاد خراسان سنة ٣٢ في خلافة عثمان بن عفان.

وكانت للفرس مراتبُ أعظمها خمسٌ، هم وسائط بين الملك وبين سائر رعيته فأوّلها وأعلاها «الموبذ» تفسيره حافظ الدّين؛ لأنّ الدّين بلغتهم «مُو» و «بذ» حافظ وهو موبذان مُوبذ: رئيس الموابذة. وقاضي القضاة ومرتبته عندَهُم عظيمة نحو من مراتب الأنبياء والهرابذة دونَ الموابذة في الرئاسة.

والثاني الوزير واسمه «بُزُرْجفْرَمَذار» تفسير ذلك: أكبر مأمور.

والثالث «الإصبهبذ» وهو أمير الأمراء، وتفسيره حافظ الجيش. لأن الجيش «إصْبَهْ» و «بَذْ» حافظ على ما رتبنا.

والرابع «دَبِيْربذ» تفسيره حافظ الكتاب.

والخامس هو «تخشه بذ» تفسيره حافظ كلّ من يكدّ بيديه كالمهنة والفلاّحين والتجار وغيرهم، ورئيسهم ومنهم من يُسمّيه «واستريوش».

وكـان هؤلاء المدبّرين للملك والقُوّام به والوسـائط بين الملك وبين رعيتـه. فـأمّا «المرزبان» فـهـو صـاحب الثغـر لأنّ «المرز» هو الثـغر بلغتهم «وبان» القيِّم، وكانت المرازبة أربعة للمشرق، والمغرب، والشمال، والجنوب؛ كل واحد على ربُع المملكة.

وللفـرس كتـاب يقـال له «كـهنامـاه» فيه مراتب مملكة فارس، وأنها ستمئة مرتبة على حسب ترتيبهم لهـا وهذا الكتـاب من جملة «آئين نامـاه» تفسيـر «آئين نامـاه» كتـاب الرسوم، وهو عظيم في الألوف من الأوراق، لا يكاد يوجد كاملاً إلاّ عند الموابذة وغيرهم من ذوي الرئاسات، والموبذ لهم في هذا الوقت المؤرّخ به كتابنا وهو سنة ٣٤٥ بأرض الجبال والعراق، وسائر بلاد الأعاجم إنماذ بن أشرهشت، وكان الموبذ قـبله إسـفنديار بن أذرباد بن أنميـذ الذي قـتله الراضي بمدينة السلام في سنة ٣٢٥. وقد أتينا على خبره وقصّة مقتله، وما ذكر من سببه مع القرمطي سليمان بن الحسن بن بهرام الجنّابي صاحب البحرين في ذلك في أخبار الراضي من كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

وقد تنازع من عُني بأخبار الملوك والأمم في أنساب الفرس، وتسمية ملوكهم ومُدَّة ما ملكوا، ولم نذكر من ذلك إلاَّ ما ذكرتْهُ الفرسُ دون غيرهم من الأمم كالإسرائليين واليونانيين والروم؛ إذْ كان ما يذهبون إليه في ذلك خلافَ ما حكته الفرس. وكانت الفرسُ أُحقَّ أَنْ يُؤخذَ عنها وإن كان أخبارهم قد دَرست، ومناقبهم قد نُسيت، ورسومهم قد انقطعت؛ لمرّ الزمان، وتتابع الحدثان فلا نذكر منها إلاَّ اليسير. وكانوا أهلَ العزّ الشّامخ، والشّرف الباذخ، والرئاسة والسياسة، فرساناً في الوغى، صبّراً عند اللقاء، أدّت إليهم الأمم الاتاوات، وانقادت إلى طاعتهم خَشية صولتهم، وكثرة جُنودهم.

وقد أتينا على تنازع الناس في أنساب فارس، وتفرع أقاويلهم في ذلك في الجزء السابع من «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر».

وللبابليّين ملوكٌ قد ذُكروا في كثيرٍ من الكتب، والزيجات في النجوم مثل النمرود، ومن تلاه من النماردة وسنحاريب، وبخت نصرّ، ومَنْ كان بعده من ولده وغيرهم

لم نعـــرض لذكـــرهم في هذا الكتِـــاب للتنازع الواقع في أعـدادهم، وتسـميتـهم وسنيّ مُلْكهم، وتقـادم أيامـهم، والفرس تَذْكر أن هؤلاء الملوك البابليين إنما كانوا خلفاء لملوكهم الأولى، ومـرازبةً على العـراق، وما يليـه من المغرب حيث كـانت دار مملكتـهم بلخ إلى أن انتقلوا عنهـا ونزلوا المدائن من أرض العراق، وكان أولُّ من فعل ذلك خماني ابنة بهمن بن اسبندياذ.

قال المسعودي: ورأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣ عند بعض أهل البيوتات المشرَّفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علومٍ كثيرة من علومهمْ وأخبار ملوكهم، وأبنيتهم وسياساتهم، لم أجدها في شيء من كتب الفرس «كخداى ناماه» و «آئين ناماه» و «كهناماه» وغيرها مصوَّر فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعةٌ وعشرون ملكاً، منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان، قد صُوِّرَ الواحدُ منهم يومَ ماتَ شيخاً كان أو شاباً وحليته، وتاجه، ومخطّ لحيته، وصورة وجهه، وأنهم ملكوا الأرض أربعمئة سنة وثلاثاً وثلاثين سنة

وشهراً وسبعة أيام، وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صَوَّروه على هيئته، ورفعوه إلى الخزائن كي لا يخفى على الحيّ منهم صفةُ الميت. وصورة كلّ ملك كان في حرب قائماً، وكلّ من كان في أمرٍ جالساً، وسيرة كلّ واحدٍ في خواصّه، وعوامّه، وما حدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة. وكان تأريخ هذا الكتاب أنه كُتب ممّا وُجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣ ونُقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسيّة إلى العربية.

فكان أوّل ملوكهم فيه أردشير شِعارهُ في صورته أحمر مُدَنَّر، وسراويله لون السماء وتاجه أخضر في ذهب[١]، بيده رمحٌ وهو قائم.

وآخرُهم يزدجر بن شهريار بن كسرى أبرويز شعاره أخضر موشّى، وسراويله موشّى لون السماء وتاجه أحمر، قائم بيده رمح، معتمد على سيفه، بأنواع الأصباغ العجميّة التي لا يوجد مثلها في هذا الوقت والذهب والفضة

(١) – في إحدى النسخ: من ذهب.

المحلولَين، ونحاسه محكوك، والورق فرفيري اللون عجيب الصبّغ، فلا أدري أورقٌ هو أم رِقٌ؟ لحسنه وإتقان صنعته.

وقد أتينا على جملٍ من ذلك في الجزء السابع من «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر» الحاوي لأخبار الفرس الأولى وهم الكيانيّون، والطوائف من الأشغان، والأردوان وغيرهم، والساسانيّة وطبقاتهم، وأنسابهم وملوكهم إلى يزدجرد بن شهريار آخرهم، ومن أَعْقبَ منهم ومَنْ لم يُعقب، وسيرهم وحروبهم وحِيَلهم ومكايدهم فيها، وكيفيّة غَلَبتهم على العراق وزوال ملك النبط، الأردوان منهم، والأرمان وضروب سياستهم الديانيّة والملوكيّة الخاصّة منها والعامّة، وعهودهم وخُطبهم ورسائلهم، ومبلغ سنّي ملكهم وشعارهم، وما كان من الكوائن والأحداث في أعصارهم. ومبدأ دين المجوسيّة وظهورها، وخبر «زرادشت» نبيّهم، وما جاء به، وخطوطهم السبعة التي كانوا يكتبون بها، وأحرف كلّ خطٍّ منها، ولِمَ أُفْرِدَ؟ وأعيادُهم من النواريز والمهرجان، وعلّة كلّ نوروز منها، وغير ذلك من الأعياد، والعلّة في

إيقادهم النيران وصبّهم المياه، وشدّهم الكساتيج في أوساطهم كشدّ النصارى الزنانير، وأسباب الملك وحاجة الناس إلى الملوك والتدبير والحوادث المنذرات بزوال الملك من فارس إلى العرب، وما كانوا يروونه عن أسلافهم ويتوقّعونه من الدلائل والعلامات في ذلك واحتراس ملوكهم عن وقوعه، وضروب آئينهم[1] من المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن، وغيرها وأحكامهم في خواصّهم وعوامّهم وما بنوا من المدن وكوّروا من الكور، وحفروا من الأنهار وأثرّوا في الأرض من عجيب البنيان وبيوت النيران، والعلّة في عبادتهم إياها، وما قالوه في مراتب الأنوار، والفرق بين النار والنور؛ وأضداد الأنوار ومراتبها؛ ومرات ذوي الرئاسات الملوكيّة والديانيّة من المرازبة والإصبهبذين والهرابذة، والموابذة، ومَنْ دونهم، ورايات الفرس، وأعلامهم، وتشعُّب أنسابهم، وما قال الناس في ذلك، والبيوت المشرّفة فيهم من أبناء الملوك وغيرهم، والشهارجة والدهاقين، والفرق بينهم وبين من

(١) – كذا وردت في الطبعة الأوربية وصحّحها الصاوي: آنيتهم

سكن منهم في السواد وغيره من البلاد قبل ظهور الإسلام وبعده إلى هذا الوقت المؤرخ.

وما تذكره الفرس في المستقبل من الزمان وينتظرونه في الآتي من الأيام من عَوْد الملك إليهم ورجوعه فيهم وظهوره عليهم. وما يذكرون من دلائل ذلك ونذاراته بتأثيرات النجوم وغيرها من الأمارات والعلامات، كظهور المنتظَرين عندهم كبهرام هماوند وسشياوس وغيرهما، وما يكون من قصصهم، وما يحدث في الأرض من الآيات، ووقوف الشمس نحواً من ثلاثة أيام وغير ذلك، وذلك إلى مدّةٍ حدّوها وأوقات قرّورها، رأينا الإضراب عن ذكرها في هذا الكتاب.

وقول من قال منهم بعد ظهور الإسلام إن الفرسَ من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل، وما استشهدوا به على ذلك من أشعار ولد معد بن عدنان في افتخارهم بالفرس على اليمانيّة. وأنهم من ولد أبيهم إبراهيم، كقولِ جرير بن الخطَفَى التميميّ مفتخراً لنزار على اليمن:

أبـونـا خـلـيـلُ الـلّه لا تـنُـكـرونـه

فـأكـرِمْ بإبـراهيـمَ جَـدّاً ومَـفْـخَـرا

وأبناءُ إسحاقَ الليوثُ إذا آرتَدَوا

حـمـائـلَ مـوتٍ لا بـسينَ الـسَّنوَّرا

إذا افتخروا عدُّوا الصَّبَهْبَذَ منْهَـمُ

وكسرى وعدّوا الهُرْمُزانَ وقَيْصَـرا

أبـونـا أبـو إسـحـاقَ يَجْمعُ بيـننا

أبٌ كـان مَـهْـديّاً نـبـيّاً مُطَـهَّـرا

ويـجـمـعنا والـغُرَّ أبـنـاءَ فـارس

أبٌ لا نُبـالـي بـعـدَهُ مَنْ تـأَخّـرا

أبـونـا خـلـيـلُ الـلّـهِ والـلّـهُ ربُّنا

رَضِـينـا بمـا أعْـطـى الإلـهُ وقـدّرا

وكقول إسحاق بن سويد العدويّ، عديّ قريش :

إذا افتخرتْ قحطانُ يوماً بسؤددٍ

إنى فَخْرُنا أعلى عليها وأسْودا

ملكناهم بَدْءاً بإسحاقَ عمّنا

وكانوا لنا عَوْداً على الدهر أعبُدا

ويجمعنُا والغرَّ أبناءَ فارس

أبٌ لا يبُالي بَعْدَه مَنْ تفَرّدا

وكقول بعض النزاريّة :

وإسحاق وإسماعيل مدّا

معالي الفخرِ والحسَبَ اللُّبابا

فوارسُ فارسٍ وبنو نزارٍ

كِلا الفرْعَيْنِ قد كَبُرا وطابا

وإنّ الفرس قد كانت في سالف الدهر تقصد البيتَ الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل عليه السلام بابنه .

وإنه عندهم أجلّ الهياكل السبعة المعظمة، والبيوت المشرّفة في العالم. وإنّ رجلاً تولّى فأعطاه المدّة والبقاء، واستشهدوا بقول بعضِ العرب في الجاهلية:

زَمْزمتِ الفرسُ على زَمْزَمٍ وذاك في سالفها الأقدمِ

وقول من قال منهم إنّ منوشهر الذي ترجع إليه الفرس جميعاً في أنسابها هو منشخر بن منشخرباغ، وهو يعيش بن ويزك، وويزك هو إسحاق بن إبراهيم الخليل واستشهادهم بقول بعض شعراء الفرس في الإسلام مفتخراً:

أبونا ويْزَكٌ وبه أُسامي إذا افتخر المُفاخِرُ بالولادهْ
أبونا ويزكٌ عبدٌ رَسُولٌ له شَرَفُ الرّسالةِ والزّهادَهْ
فَمَنْ مثلي إذا افتخرتْ قُرومٌ وبيتي مِثْلُ واسطةِ القِلادَهْ

وقول من قال منهم جميعاً: إن المُلْك سينقَلُ من ولَد إسماعيل إلى ولد إسحاق، وهذا هو الأغلب على باطنة عصرنا من أصحاب التأويل مع مَنْ ينازعهم، هل ذلك في ولد العيص؟ أم في المصْطَفَين من ولَد آلِ عمران؟.

ولذوي المعرفة منهم في ذلك ألغازٌ ورموز وأعراض، وغير ذلك من أخبارهم والغُرَر من أيامهم، مما أخذنا[1] عن علمائهم، كالموابذاة والهرابذة وغيرهم من ذوي المعرفة بأخبارهم بأرض العراق وخوزستان، وفارس، وكرمان وسجستان، والماهات وغير ذلك من أرض الأعاجم، ونقلناه من الكتب الصحيحة المشهورة عندهم.

وكتاب «مروج الذهب» يشتمل على الأخبار عن بدء العالم وأوليّته، وأقاويل الأمم في ذلك من أصحاب القِدَم والحدث، وما احتجّ به كلٌّ فريق منهم لقولهم على تباينهم. والخلق وتفرقهم على الأرض، والأنبياء، وشرائعهم، والملوك وسيرهم وسياساتهم، والأمم وآرائهم ونحلهم وشيمهم وأخلاقهم ومساكنهم، من أخبار العرب والفرس والسريانيين واليونانيين والروم والهند والصين وغيرهم من الأمم ومَنْ كان فيهم من الأطبّاء والحكماء والفلاسفة القدماء.

---

(١) - في بعض النسخ: بما أخبرناه.

والنواحي والآفاق، والأرض وشكلها وقسمتها، وما على ظهرها من عجيب البنيان والعامر منها والغامر، والأفلاك وهيأتها والنجوم، وكيفيّة تأثيراتها في هذا العالم الأرضيّ.

ووصف الأقاليم السبعة ومقاديرها، وأطوالها، وعروضها، والبحار وخلجانها والمتّصل منها والمنفصل، وما فيها وحولها من العجائب، وما كان من الأرض برّاً فصار بحراً، وبحراً فصار برّاً على مرور الأزمان وكرور الدهور، وعلّة ذلك وسببه الفلكّي والطبيعيّ، والأنهار ومبادئها ونهاياتها.

وأخبار الأمم الداثرة والممالك البائدة، وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبيّنا صلى اللّه عليه وسلم. ومولده، ومبعثه، وهجرته، ومغازيه، وسراياه، وسواربه، إلى وفاته. والخلفاء، والملوك من بعده، وكتّابهم، ووزرائهم، والغرر من أخبارهم، وما كان من الكوائن والأحداث والحروب في أيامهم إلى سنة ٣٤٥ في خلافة المطيع، وهومُجزّأً على ثلاثمئة وخمسة وستّين جزءاً، فإذا

اجتمع كانت سِمَتُهُ كتابَ «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وإذا افترق كان كلُّ جزءٍ منه كتاباً قائماً بنفسه، مضافاً إلى ما اشتمل عليه وأُفرد له.

* * *

ذكر ملوك اليونانيين ومدّة ما ملَكوا من السنين

عِدّة ملوكٍ اليـونانيين من فـيلبُّس أبي الإسكندر، إلى قلوبطرة آخـرهم ستّةَ عَشَرَ ملِكاً، وجـملة ما ملَكـوا من السنين مـئتـا سنة وثلاث وتسعـون سنة وثمـانيـة عشـر يومـاً، وذلك موجود في قانون ثاون الإسكندراني وغيره.

وقد ذهب قومٌ ممّن عنُي بأخبار سيرَ الملوك وتواريخ الأمم إلى أنّ عِدّةَ مـا ملَكَوا من السنين ثلاثـمئة سنـة، وثلاث سنين. وقيل في عِدّة مُلوكهم، ومدّةِ سنيِّهم أكثرُ من ذلك وأقلّ، غيرَ أن الأشْهَرَ ما ذكرناه.

وكان أولَ من يُعَدُّ من ملوك اليونانيين في التاريخ المقدّم للحنفاء، والقوانين، والزيجات في النجوم، وغيرها فيلبسُ

أبو الإسكندر، ملك سبع سنين وكان لليونانيين قبله ملوكٌ سلَفَوا يتنازع في أعدادهم وسِماتهم، ومدَّة ما ملكوا من السنين.

الثاني: ابنه الإسكندر الملك، ملك خَمْسَ عشرة سنة: تسعاً منها قبلَ قَتْلِه دار بن دارا، وستّاً بعد قتله إياه على ما في ذلك من التنازع في مدة ملكه بين المجوس والنصارى وغيرهم، وأفضى الملك إليه وله ستٌّ وثلاثون سنةً، والعوامُّ تُكثِرُ من سنّيه وهذا هو المعوَّلُ عليه.

الثالث: أبطْلَميوس أورنداس، ملك سبع سنين.

الرابع: أبطلميوس الكصندرس ملك اثنتين وعشرين سنة، وهو الذي نُقِلت له التوراة، نقلها اثنان وسبعون حَبْراً بالإسكندريّة من بلاد مصر من اللغة العبرانية إلى اليونانية، وقد ترجم هذه النسخةَ إلى العربي عِدّةٌ ممّن تقدّم وتأخّر؛ منهم حنينُ بنُ إسحاق، وهي أصحُّ نُسَخِ التوارة عِندَ كثير من الناس.

فأمّا الإسرائيلون من الأَشْمَعَث، هم الحشر، والجمهور الأعظم، والعنانيّة، وهم ممّن يذهب إلى العدل والتوحيد؛ فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانيّة التوراة، والأنبياء، والزبور، وهي أربعةٌ وعشرون كتاباً.

وترجمتُها إلى العربيّة على عِدّةٍ من الإسرائليين المحمودين عندهم قد شاهدنا أكثرَهم منهم: أبو كثير يحيى بن زكرياء الكاتب الطبراني أشمعثيّ المذهب، وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمئة، ومنهم سعيد بن يعقوب الفيوّميّ أشمعثي المذهب أيضاً، وكان قد قرأ على أبي كثير، وقد يفضّل تفسيرَهُ كثيرٌ منهم، وكانت له قصص بالعراق مع رأس الجالوت داود بن زكي من ولد داود واعتراض عليه، وذلك في خلافة المقتدر. وتحزّب من اليهود لأجلهما. وحضر في مجلس الوزير عليّ بن عيسى وغيره من الوزراء والقضاة، وأهل العلم لفصل ما بينهم وترأس الفيوميّ على كثيرٍ منهم، وانقادوا إليه، وكانت وفاته بعد الثلاثين والثلاثمئة، ومنهم داود المعروف بالقومسّي، وكانت وفاته سنة ٣٣٤، وكان مقيماً ببيت المقدس، وإبراهيم البغداديّ ولم أشاهدْها.

وقد كانت جرت بيننا وبين أبي كثير ببلاد فلسطين والأردن مناظرات كثيرة في نسخ الشرائع والفرق بين ذلك، وبين أعبدا، وغير ذلك، وبين يهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الثناء تلميذ ثابت بن قُرَّة الصابىء في الفلسفة والطب في الرقة من ديار مضر، وبين سعيد بن علي المعروف بابن أشلميا بالرقة أيضاً، وكذلك بينَ مَنْ شاهدنا من متكلّميهم بمدينة السلام مثل يعقوب بن مَرْدَوَيْه ويوسف بن قيوما.

وآخر من شاهدنا منهم ممّن تقدم إلينا من مدينة السلام بعد الثلاثمئة إبراهيم اليهوديّ التستريّ، وكان أحذق من تأخّر منهم في النظر، وأحسنهم تصرّفاً فيه.

الخامس: أبطلميوس الأريب، ملك سبعاً وعشرين سنة.

السادس: أبطلميوس محبّ أخيه، ملك ستّاً وعشرين سنة.

السابع: أبطلميوس الصانع، ملك خمساً وعشرين سنة.

الثامن : أبطلميوس محبّ أبيه ، ملك سبع عشرة سنة .

التاسع : أبطلميوس الظاهر ، ملك أربعا وعشرين سنة .

العاشر : أبطلميوس محبُّ أمّه ، ملك عشرين سنة .

الحادي عشر : أبطلميوس الحوّال ، ملك ثلاثاً وعشرين سنة .

الثاني عشر : أبطلميوس المخْلِص ، ملك سبع عشرة سنة .

الثالث عشر : أبطلميوس الكصندرس أيضاً ، ملك عشرين سنة .

الرابع عشر : أبطلميوس قسّاس ، ملك ثمانية عشر يوماً .

الخامس عشر : أبطلميوس ديونسيوس ، ملك تسعاً وعشرين سنة .

السادس عشر : قلوبطرة بنة أبطلميوس ، ملكت اثنتين وعشرين سنة ، وكانت حكيمةً ، ولها كتبٌ في الرُّقية وغيرها ،

وليس أبطلميوس القلوذي صاحب كتاب المجسطي، وغيره من الكتب من هؤلاء البطْلَميُوسين، ولم يكن مَلِكاً.

وقد بيّنا ذلك في كتاب أخبار ملوك الروم الأولى فيما يرد من هذا الكتاب في ملك أنطونيوس بيوس مجملاً وفيما تقدّمه من الكتب مشروحاً.

وأتينا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» على أخبار اليونانيين، وأنسابهم، وآرائهم، وديارهم، والتنازع في بدء أنسابهم، ومن قال إنّهم من ولد يونان بن يافث بن نوح، ومن قال بل هو يانون بن أرعوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، ومن قال بل هو يانون بن عابر أخو قحطان بن عابر، ومن ذهب إلى أنّهم من ولد أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وأنهم إخوة الروم وغير ذلك من الأقاويل، وكيفية غلبة الروم عليهم ودخولهم في جملتهم حتى زال اسمهم، وانقطع ذكرهم. ونسب الجميع إلى الروم بغلبة أوغسطس الملك عليهم عند خروجه من رومية ومسيره إلى الشأم ومصر. وتنازع الناس في

الفلاسفة كفيثاغورس، وثاليس، وانبدقليس، والرواقيّين وأصحاب الأصطوان، وأميروس، وأرسيلاوس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطاطاليس، وثاوفرسطس، وثامسطيوس، وأبقراط وجالينوس، وغيرهم من الفلاسفة والأطبّاء أرومٌ هم أم يونانيون؟ وما ذكرنا من الشواهد من كتبهم أنهم يونانيّون، وقول من قال إنهم رومٌ، وسِيرَ ملوكهم، وحروبهم، وأخبار الإسكندر، وسيره، ومسيره في مشارق الأرض، ومغاربها، وما وَطيء من الممالك، ولقي من الملوك، وبنى من المدن، ورأى من العجائب. وأخبار الردم وهو سدّ يأجوج ومأجوج، وما كان بينه وبين معلّمه أرسطاطاليس بن نيقوماخس، صاحب كتب المنطق وغيرها -وتفسير «أرسطاطاليس» الغداء التام، وقيل تام الفضيلة لأنّ أرسطو هو الفضيلة، وطاليس تام، وتفسير «نيقوماخس»: قاهر الخصم- من الرسائل والمكاتبات في ضروب السياسات الملوكية والديانيّة، وغير ذلك، تنازع الناس في الإسكندر أهو ذو القرنين أم غيره؟ وما قيل في ذلك وما كان من أخبار خُلفائه بعده كأنطيخس الباني مدينة أنطاكية وإلى اسمه أضيفت، فَعَرَّبتها العرب؛ فسمّتها

أنطاكية، وكسلْيقس الباني مدينةَ سلوقية وغيرهما، وما كان بينهم وبين من كان بالأسكندرية من بلاد مصر من الحروب. وأخبار الفلاسفة وآرائهم الإلهيّين منهم والطبيعيّين، ومَنْ قُتِل منهم، وما كانوا عليه من الآراء إلى عهد سقراطٍ وأفلاطون وأرسطاطاليس من الفلسفة المدنيّة، وما أحدثوه من الآراء خلافاً على من تقدَّم ومباينة للفلسفة الأولى الطبيعية التي إليها كان يذهب فوثاغورس، وثاليس الملطي، وعوامّ اليونانيين، وصابئو المصريين الذين بقيّتهم في هذا الوقت صابئو الحرّانيين. وقد ذكر ذلك أرسطاطاليس في كتابه في الحيوان، وهو تسع عشرة مقالة، فقال: ولمّا كان مُنْذُ عشرين سنةً من زمن سقراط مال الناسُ عن الفلسفة الطبيعيّة إلى الفلسفة المدنيّة، وما ذهب إليه سقراط ومَنْ رأى رأيه ممّن سمّيناه في الموجود الأوّل الذي اقتبَستِ الموجوداتُ وجودَها عنه وكيف يفيضُ عليها بجوده، وكيف حصلت الموجودات عنه، وعلى أيّ شيء هي سبب وجودها، وغاية لها، وعلى أيّ جهة ينبغي أن يعتقد، وكيف ترتيب مراتبها في الوجود؟ وكيف ارتبط بعضها ببعض؟ وبأي شيء ارتبطت وائتلفت؟ ومن أي شيء

موادها؟ وما جواهر الأجسام الطبيعية التي تحتوي عليها الأجسام السمائية؟ وهي الأجسام الهيولانيّة، وما مراتب الروحانيين، وما فُوّض إلى كلّ واحد منهم من التدبير؟ ونفس الإنسان وكم قُواها وما فعل كلّ واحدٍ منها ومراتب بعضها في بعض، وإحصاء جمل أعضائها ومراتبها؟ وأي القوى هي الرئيسة، وما مراتبها، ومن انتهى في الرئاسة، وأيّها المخدومة وأيّها الخادمة؟ وكيف يحدث العقلُ في الإنسان، وكيف فعلَ العقل الفعّال في الحرّ الناطق، وتنازع الناس في السّعادة المطلوبة التي لها كون الإنسان، وما الشقاء الذي يصير إليه إذا حاد عن طريق السعادة؟ وذكر المنام وأصناف الرؤيا، ولأي جزءٍ من أجزاء النفس ذلك، وما الرؤيا الصادقة؟ ومن أين تحصل للنفس؟ وكيف صارت الصادقة تدلّ وعلى أي جهةٍ تدلّ؟ وكيف الطريق إلى علم عبارة الرؤيا، وما الحاجة إلى الاجتماعات الإنسانية؟ وأصناف الاجتماعات وهي التي بها يتعاونون على بلوغ أغراضهم التي إليها يأتمون، وأيها عُظْمى وأيّها وسطى وأيّها صغرى؟ وما الاجتماع المدني الذي يكون في المدينة الفاضلة، وما المدينة الفاضلة؟ وما مراتب أجزائها؟

ومراتب رئاساتها؟ وكيف صارت منزلةُ أجزاء هذه المدينة منزلة أعضاء الحيوان من الحيوان؟ فإنهم يتعاونون على تكميل السعادة للإنسان كما يتعاون أعضاءُ الحيوان على تكميل حياة الحيوان؟ وكيف ينبغي أن يكون مَلِكُ هذه المدينة ورئيسها الأول؟ وأي علامات وشرائط ينبغي أن يكون فيه من مولده، وفي صبائه وحداثته يُرشَّح بها لملك المدينة الفاضلة، والفضائل التي يصير بها سائساً كاملاً ورئيساً فاضلاً، وبأي آداب وصناعاتٍ يؤدّب فتمكن فيه حتى تحصل له مهنة الملكية الفاضلة؟ وفي أي الأمم يوجد ذلك في الأغلب؛ وفي أيّها في النادر؟ وهل هو جزء من أجزاء المدينة، أم غيرها، على ما في ذلك من التنازع بين أفلاطون وأرسطاطاليس؛ على حسب ما ذكره أفلاطون في كتاب «الفحص عن ملك المدينة الفاضلة» الذي هو الفيلسوف في الحقيقة. وذكره أرسطاطاليس في كتابه في «السياسة المدنيّة» وعدد أجزاء هذه المدينة ومثلها الطبيعية، وكيف ينبغي أن تكون الرئاسات؟ التي تتبع الرئيس الأول في هذه المدينة، وبماذا تكمل وتلتئم تلك الرئاسات؟ وكم أصناف المدن المضادّة للمدينة الفاضلة؛ كالمدن الجاهليّة، والمدن

الضالّة، والمدن الفاسقة، ومراتب ملوكهم ورئاساتهم، ونحو ماذا يؤمّون، وعلى بلوغ أيّ غَرَضٍ يتعاونون؟ وما أصناف السّعادات التي تصير إليها أنفس أهل المدينة الفاضلة في الحياة الآخرة وأصناف الشقاء التي تصير إليها أنفس أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة في الحياة الآخرة؟ وما الأشياء التي ينبغي أن يعلَمَها ويعمل بها أهل المدينة الفاضلة باشتراك وعلى العموم لينالوا بها السعادة الكاملة المطلوبة، وما العلامات التي يتميّز بها أهلُ المدينة الفاضلة من باقي الأمم والمدن المضادّة لهم وما ينبغي أن تكون عليه أحوال أهل المدينة الفاضلة متى لم تكن لهم مدينة تخصّهم وكانوا غرباء في المدن المضادّة لمدينتهم. وذكر الأصول الفاسدة التي منها تفرّعت أصناف الآراء والاجتماعات والمدن والرئاسات الجاهليّة والأصول الفاسدة التي منها تنشأ أصناف الأراء والاجتماعات، والمدن والرئاسات الضالة، وقولهم في الأوائل التي بها وجودُ سائر الموجودات وهي الأول أكملها وجوداً إذْ لم يكن وجودُه لأجل غيره ووجود كلّ ما سواه لأجله، والأشياء منه لا هو منها، اقتبست وجودَها من وجوده، فهو كلّ الأشياء، وليست

الأشياء هو، ومعرفته الواجبة أنْ لا طريق إليه إلاّ منه، ولا سبيل إليه إلاّ به إذْ كانت العلّة لا يدركه معلول، ولا محدث قديماً ولا مخلوق خالقاً، والثواني التي تليه في الوجود ومراتبها بحسب مراتب الأجسام السمائيّة وعددها على عددها. والعقل الفعال، والنفس، والصورة، والهيولى، وأن باقي الموجودات هي الأجسام، وأجناسُها ستّة: الجسم السمائي، والحيوان الناطق، والحيوان غير الناطق، والنبات، والأجسام الحجريّة، وهي المعدنيّة، والاستقصات الأربعة، وهي: النارُ، والهواءُ، والماءُ، والأرضُ.

وما ذهبوا إليه في العقل الأول والثاني، والنفس وما تحت ذلك من الطبائع، وأن العقل هو العلّة المتوسطة بين اللّه عز وجل، وبين خلقه، والسبب الذي شَرُفت به النفس الناطقة في عالمها، والمرآة التي بها تنظر إلى محاسنها ومساويها، وبها تتأمّل صُوَرَ مَهالكها ومَناجيها. وقولُهم في النفس الناطقة وغيرها من النفوس كالنزاعيّة والتخيُّليّة والحسّية والبهيميّة، وما يرتبط منها بالأجسام السمائيّة، التي هي على أعدادها

ومقسومة عليها، وأن النفس الناطقة جوهرٌ بسيط من جوهر الحيّ الذي لا يموت، وأن موتها انتقالها من جسم إلى جسم، وأنها إذا فارقت البدن عاينت كلّ ما في العوالم، ولم يخفَ عليها خافية، وأنّ غَرَضَها وغايتها القصوى السعادة واللّحاق بعالم العقل، وهي الإنسان على الحقيقة والعلّة في نزولها من عالم العقل إلى عالم الحس، حتى نَسِيتْ بعد الذّكر، وجَهِلتْ بعد العلم، وقول من رأى ذلك منهم، ولأية عِلَّة صار الإنسان العالم الصغير، وما اجتمع فيه وشبّه به من سائر الأشياء، وما الاتصال والنسبة بين العوالم، عند من ذكرنا قوله؟

وما ذهب إليه أرسطاطاليس في أزلية العلّة والمعلول، وذكره ذلك في المقالة الأولى من كتابه في «سمع الكيان» وفي المقالة الثامنة منه أيضاً، وهو ثماني مقالات، وفي كتاب: «السماء والعالم» وهو أربع مقالات، وفي كتاب «ما بعد الطبيعة» وهو ثلاث عشرة مقالة.

وقول سائر أهل الشرائع مع تنازعهم وغيرهم من أصحاب القِدَم في المعاد بعد مفارقة النفوس الأجساد؛ وقول

أصحاب التأويل وغيرهم في الروح اللطيف غير المحسوس، والكثيف المحسوس، وغير ذلك من حدودهم المؤيَّد منها، والمقصود، وسائر الآراء والنحل.

قال المسعوديّ: وأرسطاطاليس هو تلميذ أفلاطون. وأفلاطون تلميذ سقراط، وسقراط تلميذ أرسيلاوس، في الطبيعيات -دون غيرها من العلوم- وتفسير «أرسيلاوس» رأس السباع، وأرسيلاوس تلميذ أنكساغورس.

وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» الفلسفة وحدودها، والأخبار من كمّية أجزائها، وما ذكره فوثاغورس. وثاليس الملطي، والرواقيون، وأفلاطون، وأرسطاطاليس وغيرهم. وتنازعهم في ذلك وصفة الفليسوف الذي يجب له في الحقيقة هذا الاسم، ويطلق عليه، وكيفية سيرته وأخلاقه وأوصافه وصورته. ومراتب الفلسفة، وعلى ماذا استقرّت، وكيف وقعت التعاليم بها إلى هذا الوقت، وإلى ماذا انتهت، والغرض من كتب المنطق ووصفها والحاجة التي دعت إلى تأليف كتب المنطق،

وما المنفعة التي تُستفاد منها. ولِمَ صارت ثمانية كتب. وما العلة في هذا الترتيب، وما الغرضُ المقصود في كل واحد منها، وما الأشياء التي ينبغي أن يَبتدىء بالنظر فيها مَنْ أراد قراءة كتب المنطق. وفي أيّ صنفٍ من الصناعات تدخل صناعةُ الفلسفة. وكم حدودُها. وإلى مَنْ يُضاف كل حدّ منها من الفلاسفة، ومن أيّ الجهات استُخرجت حدودّها. وما معنى كلّ حدٍّ منها. وكم أقسامُ الفلسفة الأولى والثواني. ولِمَ قُسِمتْ بهذه القسمة، وجرت قسمتُها هذا المجرى؟ ولأيّة علّةٍ ابتدىء بالفلسفة المدنيّة من سقراط، ثم أفلاطون، ثم أرسطاطاليس، ثم ابن خالته ثاوفرسطس، ثم أُوذيمس، ومن تلاه منهم واحداً بعد آخر، وكيف انتقل مجلسُ التعليم من أثينة إلى الإسكندرية من بلاد مصر، وجعل أوغسطس الملك لما قَتَل قلوبطرة الملكة التعليمَ بمكانين الاسكندرية وروميـة، ونقل تيدوسيوس الملك الذي ظهر في أيامه أصحابُ الكهف التعليمَ من رومية، وردهُّ إياه إلى الإسكندرية؟ ولأيّ سببٍ نُقل التعليمُ في أيام عمر بن عبد العزيز من الإسكندرية إلى أنطاكية، ثم انتقاله إلى حرّان في أيام المتوكل؟ وانتهى ذلك في

أيام المعتضد إلى قُويرى، ويوحنا بن حيلان، وكانت وفاته بمدينة السلام في أيام المقتدر، وإبراهيم المروزيّ، ثم إلى أبي محمد بن كرنيب وإلى بشر متّى بن يونس تلميذَي إبراهيم المروزيّ، وعلى شرح متّى لكتب أرسطاطاليس المنطقيّة يُعوِّلُ الناسُ في وقتنا هذا، وكانت وفاتُه ببغداد في خلافة الراضي، ثم إلى أبي نصر محمد بن محمد الفارابيّ تلميذ يوحنا بن حيلان، وكانت وفاته بدمشق في رجب سنة ٣٣٩.

ولا أعلم في هذا الوقت أحداً يُرجَعُ إليه في ذلك إلاّ رجلاً واحداً من النصارى بمدينة السلام يُعرف بأبي زكرياء بن عديّ، وكان مبدأ أمره ورأيه وطريقته في درس طريقة محمد بن زكرياء الرازي، وهو رأي الفوثاغوريين في الفلسفة الأولى على ما قدّمنا.

فلنذكرِ الآن ملوكَ الروم على طبقاتهم، والصّابئين منهم والمتنصّرة. وجملة ما ملكوا من السنين، وما كان من الحوادث العظيمة في أيامهم وبلادهم وغير ذلك من أخبارهم.

* * *

ذكر ملوك الروم

على طبقاتهم من الحنفاء وهم الصائبون والمتنصّرة وعِدَّتُهم، وجملة ما ملكوا من السنين

عِدَّةُ ملوك الروم جميعاً من غائيوس قيصر أوّل ملوكهم إلى قسطنطين بن لاون بن بسيل الملك عليهم في هذا الوقت وهو سنة ٣٤٥ في خلافة المطيع ثمانية وسبعون مَلِكاً. من ذلك الملوك الصَّابئون المسمَّون بالحنفاء قبل النصرانية أربعون ملكاً، والمتنصّرة من قسطنطين بن هيلانى إلى قسطنطين بين لاون هذا ثمانيةٌ، وثلاثون مَلِكاً.

وجملة ما مَلَكَوا من السنين تسعمئة وستٌّ وستّون سنةً وشهر من ذلك الصابئون ثلاثمئة وأربع وسبعون سنة وثلاثة أشهر، والمتنصّرة إلى ملك قسطنطين بن لاون خمسمئة وإحدى وتسعون سنة وعشرة أشهر.

* * *

ذكر الطبقة الأولى
من ملوك الروم، وهم الصابئون

كان أَول من يُعَدّ ممن ملك منهم برومية غائيوس قيصر ملك ثماني عَشْرةَ سنة، وقد كان ملك بها قبله ملوكٌ أولهم روملس وأرمانوس، البانيان لها المعروفان بابني الذئبة، وإلى اسمهما أضيفت رومية، وأضيف الروم إلى اسمهما، وغيرهما من الملوك، غير أن غائيوس أول من يُعَدُّ في التاريخ القديم.

وقيل إن أوّل من مَلَك الروم رُهْماساطوخاس وهو جائيوس الأصفر بن روم ابن سملاحين بن هريا بن علقا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

الثاني من ملوك رومية: يوليوس، ملك أربع سنين وأربعة أشهر.

والثالث: أوغسطس وتفسير «أوغسطس» باللغة الإفرنجية الأولى الضياء وسُمّي «قيصر» تفسير ذلك بهذه اللغة شُقّ عنه، وذلك أنهم ذكروا أنّ أمّه ماتت وهي مُقْرِبٌ به؛ فَشُقّ عنه بطنُها واستُخرج، وصار ذلك كالسِّمة لكثيرٍ من ملوكهم. واشتهر ذلك عنهم فسمّتْهم العربُ بالقياصرة، ملك ستاً وخمسين سنةً وخمسة أشهر.

وأكثر من عُني بأخبار مُلوك الروم وتواريخهم؛ بأوغسطس يبتدىء؛ لأنّه أول ملك من ملوك الروم خرج عن مدينة رومية دار مملكته وسيّر جنوده براً وبحراً، فاستولى على ملك اليونانيين ومصر والشام، وقتل قلوبطرة، آخر ملوك اليونانيين، فاجتمع له ملك الروم، واليونانيين، وزالت رسوم اليونانيين فسُمِّي الجميعُ رُوْماً، وذلك لاثنتي عشرة سنة خلت من مُلْكه، وولّى هيرودس بن أنطيقوس على أورشلم وهي بيت المقدس وجبل يهودا وجبل الجليل.

ولاثنتين وأربعين سنة خلت من مُلْكه كان مولدُ المسيح عليه السلام ببيت لحم من بلاد فلسطين، يوم الأربعاء لستٍّ بقينَ من كانون الأول.

وكـانت مـريمُ يومَ ولدته بنتَ ثلاث عـشـرة سنة عند النصارى، وكان جميعُ عمرها إحدى وخمسين سنةً منها بعدَ رفْعِ المسيح ستُّ سنين.

فكان من آدم إلى مـولده عندهم خـمـسـةَ آلاف سنة وخمسمائة سنة وست سنين، ومن زوال ملك قلوبطرة آخر من مَلَكَ اليونانيّين على ما قدمنا في هذا الكتاب إلى مولده ثلاثون سنة.

الرابع: طيباريوس قيصر، ملك ثلاثاً وعشرين سنة، وهو الذي بنى مدينة طبريّة من بلاد الأردن من أرض الشأم، وإلى اسمه أُضيفت فعربّتها العربُ حين افتتحت البلاد فقالت طبرّية.

ولخمس عشرة سنة خلت من مُلْكِه عُمِّدَ أيشوعُ الناصريُّ عند النصارى في نهر الأردن، وكان المعمِّدَ له ابنُ خالته يحيى بن زكرياء، ولذلك سُمّيَ يحيى المعمدانيّ.

واسم أمه صابات وكان أكبرَ من أيشوع بستّة أشهر، ولسبع عشرة سنة خلت من ملكه وهي سنة ٣٤٢ للإسكندر

ابن فيلبُّس الملك كان عند النصارى صَلْبُ أيشوع الناصريّ، وذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من آذار، وهو عندهم منه في مثل اليوم الذي أهبط فيه آدم من الجنة، ومات عندهم، ودُفِنَ وقام وانبعث من بين الموتى حيّاً، وصعد إلى السماء وله ثلاثٌ وثلاثون سنة، ولا يصعد عندهم إلى السماء إلاّ من نزل منها.

وكان فصحُ اليهود في هذه السنة يومَ السبت لسبعٍ بقين من آذار، وفصح النصارى إلى قيامة المسيح يوم الأحد لستٍّ بقين من أذار، والصعود يوم الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من نيسان.

والنصارى تصوم يوم الأربعاء، لأنّ أيشوع وُلِد فيه، والجمعة لأنه صُلِبَ فيه عندهم تطّوعاً لا فريضةً.

الخامس: غائيوس بن طيباريوس ملك أربع سنين، وقَتَلَ أصْطَفَنُوس رئيس الشمامسة والشهداء عند النصارى، ويعقوب أخا يوحنّا بن زبدى في خَلْقٍ كثيرٍ من النصارى.

السادس: قلوذيوس بن طيباريوس، ملك أربع عشرة سنة، وفي أوّل سنةٍ من مُلْكه قتل أغريفوس عامله على الإسرائيليّين، يوحنا بن زبدى أحد التلاميذ، وحبس شمعون

الصّفا، ثم خلّص شمعون الصفا من الحبس، وصار إلى مدينة أنطاكية، والنصارى يدعونها مدينة اللّه، ومدينة الملك، وأم المدن، لأنها أول بلد أُظهِر فيه دينُ النصرانية، وبها كرسيُّ بطرس ويسمى: شمعون، وسمعان، وهو خليفة أيشوع الناصري والمرأس على سائر التلاميذ الاثني عشر والسبعين وغيرهم، فشرع بطرس في بناء الكنيسة المعروفة في أنطاكية بالقُسْيان إلى هذا الوقت.

وفي السنة الثالثة من ملكه دخل شمعون الصفّا مدينةَ رومية، سُقِّفَ بها ودبّرها سنين، ودانت امرأةُ الملك، وكان اسمُها فروطانيقي ويقال لها: بطريقيّةُ النصرانيّة، وصارت إلى أورْشلَيم وهي بيت المقدس، فأخرجت الخشبة التي تظنّ النصارى أنّ المسيحَ صُلب عليها، ويسمُّونها صليبَ المسيح. وكانت في أيدي اليهود، قد منعوا النصارى منها، فأخذتها منهم وردّتها على النصارى وقوّت أمرهم.

ونحن ذاكرون لُمعا من أخبار هذه الخشبة وإلامَ آل أمرُها في قصة هيلاني أم قسطنطين فيما يردُ من هذا الكتاب، وإنْ كنا قد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا.

السابع: نيرون بن قلوذيوس ملك ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، ولثلاث عشرة سنةً خلت من مُلْكه قتل بطرسَ، وبولسَ بمدينة رومية، وصلبهما مُنَكَّسين وذلك بعد أيشوع باثنتين وعشرين سنة.

وقد أتينا على خبر بطرس بمدينة رومية مع سيمن المصري، الذي تسميه النصارى جميعاً إلاَّ الأرِيُوسِيَّة «الساحر» وكان صحب أيشوع، ثم خالفهم فيما سلف من كتبنا.

وفي السنة الثامنة من ملكه وَثَبتِ اليهودُ بأروشلم، فيما ذكرت النصارى على يعقوب بن يوسف أخي أيشوع الناصريّ عندهم في الجسميّة، وكان أولَ أساقفة بيت المقدس، وألقوه على رأسه من أعلى الهيكل فماتَ لامتناعه من الرجوع إلى مذهبهم، ومقامه على دين النصرانيّة، ودفن إلى جانب الهيكل، وهدموا البِيْعةَ، وأخذوا خشبة الصليب وخشبتي اللّصَّيْن فدفنوها في قبر واحد.

وفي أيام هذا الملك فيما قيل كان مارينوس الحكيم صاحب كتاب جغرافيا في صورة الأرض وشكلها، وبحارها،

وأنهارها، وعامرها، وغامرها، وقد ذكره أبطلميوس القلوذيّ في كتاب جغرافيا في صورة الأرض وشكلها أيضاً وأنكر عليه أشياء ذكرها.

الثامن: غلباس، مَلَكَ سبعة أشهر.

التاسع: أوثون، ملك ثلاثة أشهر.

العاشر: بيطاليس ملك ثمانية أشهر.

الحادي عشر: أسباسيانوس، ملك تسع سنين وسبعةَ أشهر، ووجّه بابنه طيطوس في السنة الثانية من ملكه إلى أورشلم لخلافٍ كان منهم عليه؛ فَحصَرها وافتتحها عَنْوةً، وقتل أكثر أهلها من اليهود، والنصارى وخَرَّب الهيكل. وكان عِدَّةُ من قُتِل من الإسرائيليّن فيما ذُكر نحواً من ثلاثة آلاف. وعَمَّ الأذى اليهود والنصارى في أيامه.

الثاني عشر: طيطوس بن أسباسيانوس ملك سنتين وثلاثة أشهر. وفي أوّل سنةٍ من مُلكه أظهر مرقيون مقالته وهي القول بالاثنين الخير، والشرّ، وسعد ثالث بينهما. وكان ابناً لبعض الأساقفة ببلاد حرّان، وإليه تُنسب المرقيونيّة من أصحاب الاثنين.

الثالث عشر : دومطيانوس بن أسباسيانيوس ملك خمس عشرة سنة ، وعشرة أشهر .

الرابع عشر : نرواس قيصر ، ملك سنة وخمسة أشهر .

الخامس عشر : طرايانوس قيصر ، ملك تسعَ عشرة سنة ، وفي السنة السادسة من ملكه كانت وفاة يوحنا التلميذ بمدينة أفسيس بعد أن كتب الإنجيل في جزيرةٍ من جزائر البحر .

السادس عشر : إيليا أذريانوس ، ملك عشرين سنة وقَتلَ من اليهود بأورشلم وجبل يهودا وجبل الجليل وغيرها من أرض الشأم مقتلة عظيمة لخلافٍ كان منهم عليه ، وكذلك من النصارى وخَرَّب أورشلم ، وهو آخر ُخَرابها ، فلما مضى من ملكه ثمانُ سنين عَمَّرهاوسماها إيليا ، فصارتْ سمةً لها إلى هذا الوقت ، وأسكنها جماعةً من اليونانيّين والروم .

وبنى على الأقرانيون المقبرة هيكلاً عظيماً للزُّهْرة ، وبنى نحو الهيكل الذي يُدعى البهاء برجاً عظيماً ، وجعل على أعلاه لوحاً من الرّخام مكتوباً فيه بالذهب اسم الملك إيليا ، وهذا

البرج إلى هذا الوقت وهي سنة ٣٤٥ يُسَّمى محرابَ داود، وهو متَّصل بسور المدينة، وإنّما بُنى بعدَ داود بمئتين من السنين. وكان بنياناً عظيماً سبعَ طبقاتٍ فَهُدّم من أعاليه. وفي أيامه كان ساقندس الفيلسوف الصامت، وقد أتينا على خبره مع هذا الملك وغيره وإشارته ورموزه في «كتاب الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار».

السابع عشر: أنطونينوس بيوس، ملك اثنتين وعشرين سنة. قال المسعودي: وفي أيامه كان أبطلميوس القلوذيّ صاحب كتاب المجسطيّ، وجغرافيا، والمقالات الأربع والقانون الذي عمل عليه ثاون الإسكندرانيّ، وكتاب الأنوار، وكتاب الموسيقى، وإن لم يذكر العودَ فيه؛ فذلك دليل على أنه حَدَثَ بعده. وغير ذلك مّما أضيف إليه من الكتب وهو بطلاماوس بلغتهم وقيل: إنه من ولد قلوذيوس السادس من ملوك الروم على ما قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب، وكانت أرصاده التي أرّخ بها المجسطي في ملك أنطونينوس هذا، وذلك موجود في المقالة التاسعة من هذا الكتاب. وقد أدرك

جالينوس عصره وشاهده في حال صباه، وجالينوس يعينه في كثير من أقاويله وأرصاده لمخالفته إبَّرخَس صاحب الأرصاد القديمة، وقد غلط كثيرٌ من الناس ممّن يدّعي المعرفة بأخبار حكماء الأمم وفلاسفتهم والملوك ومَنْ كان منهم في أعصارهم فجعلوه بعض ملوك اليونانيين بعد الإسكندر المسمَّيْن بهذا الاسم، وأنه أبو قلوبطرة الملكة الحكيمة آخر من ملك من ملوك اليونانيين المقدَّم ذكرُها فيما سلف من هذا الكتاب، وذكروا أموراً أيَّدوا بها قولهم هذا، قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا.

قال المسعوديّ: ومن أدلّ الدلائل على بُطلان قولهم أن أبطلميوس ذكر في النوع الثامن من القول الثالث من كتاب المجسطي أنه رَصَدَ الشمس بالإسكندرية؛ فوجد الاعتدال الخريفيّ في اليوم السابع من الشهر الثالث من شهور القبط سنة ٨٨٠ لبخْتَنَصَّر. فإذا نظرنا ما بين ملك بخت نصَّر إلى غَلَبَة الإسكندر لدارا وهو أربعمئة سنة وتسعٌ وعشرون سنة وثلاثمئة وستة عشر يوماً، ومن غلبته إياه إلى زوال ملك

قلوبطرة آخر من ملك من اليونانيين الملقبين بالبطلميوسين الذين ملكوا بالإسكندرية بعد الإسكندر بِغَلَبَة أوغسطس ملك الروم على ملكها على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب مئتا سنة وستّ وثمانون سنة وثمانية عشر يوماً، ومنذ غلبة أوغسطس إلى وفاته أربع وأربعون سنة، وملك بعده من ملوك الروم إلى أنطونينوس الذي ذكرنا أنّ أبطلميوس كان في أيامه من السنين مئة سنة وثلاثاً وعشرين سنة وسبعة أشهر، فمنذ ملك بخت نصرّ إلى ملك أنطونينوس هذا على هذه المسافة ثمانمئة واثنتان وثمانون سنة، وثمانية أشهر، وأربعة عشر يوماً، وجدنا ذلك موافقاً لما حكيناه عن أبطلميوس من تاريخ رصده.

الثامن عشر : مرقس، ويُسمّى أورلليوس قيصر ملك تسع عشْرة سنة، وفي ملكه أظهر أبرديَّصان مقالته، وكان أسقفاً للرها من بلاد الجزيرة وإليه تضاف الدّيصانيّة من أصحاب الاثنين، وتفسير «أبرديَّصان» وهي كلمة سريانية : ابن النهر، والنهر هناك معروف بديْصان إلى هذا الوقت على

باب من أبواب الرها يعرف بشاعا مصبُّه إلى ناحية حلوان، ثم ينتهي إلى نهر البليخ، وإنَّما يجري شهوراً، وينقطع في القيظ، وله كنيسة على هذا النهر مما يلي الباب يُعَيِّد لها النصارى عيداً في السنة. وقيل إنَّه كان منبوذاً أُصيب على شاطىء هذا النهر؛ فأُضيف إليه.

التاسع عشر: قوموذوس بن أنطونينوس ملك اثنتي عَشْرة سنةً، وفي أيامه كان جالينوس تاج الأطباء، وإمامهم في عصره الذي به يقتدون، وعلى كتبه يعولّون، والمفسّر لكتب أبقراط، والمخلص لها بمدينة أبرغامس من أرض اليونانيين، وقد ذكر ذلك جالينوس في كتابه في أخلاق النفس في فهرست كتبه. وبين الإسكندر، وقوموذوس الملك هذا خمسمئة سنة ونيّف.

قد بيّن ذلك جالينوس في كتابه في الأخلاق أيضاً، فينبغي أن يكون لجالينوس إلى وقتنا هذا، وهو سنة ١٢٦٧ للإسكندر، وسنة ٣٤٥ للهجرة سبعمئة سنة ونيّفاً على التقريب. وكان جالينوس بعد المسيح بنحو مئتي سنة وقد كان دينُ النصرانية ظهر في الروم واليونانيين وغيرهم في أيامه.

وذكر جالينوس المتديّنين من النّصارى في كتابه في جوامع كتاب أفلاطون في السياسة؛ لأنه كان متديّناً بذلك. وبين جالينوس وبين أبقراط نحوٌ من ستمئة سنة لأن أبقراط كان قبل الإسكندر بقريب من مئة سنة في أيام أرطخشت من ملوك الفرس الأولى، وأرى أنه بهمن بن اسبندياذ بن كيبْشتَاسب بن كيلُهْراسب.

وقد ذكر ذلك جالينوس في تفسير كتاب إيمان أبقراط وشرحه له وترجمه حنين ين إسحاق، فحكى أن أرطخَشْت هذا وجَّه إلى عامله على مدينة قوس من أرض اليونانيين -وهم يومئذ في طاعته- يأمره بدفع قناطيرَ من المال إليه، وحمله إليه مكرَّماً؛ لأنه نال من الفرس في ذلك الوقت داءٌ يقال له الموتَان، فامتنع أبقراط من ذلك لأنِّه لم يَرَ من العدل إشْفاءَ الفرس؛ وهم أعداءُ اليونانيين.

قال المسعوديّ: والبقارطة ثلاثة: أبقراط هذا صاحبُ الكتب المصنَّفة في الطبّ التي ترجمها، وشرحها جالينوس، وغيره ككتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة، وهو كتاب الأمراض الحادثة وكتاب ماء الشعير وهو كتاب تدبير

الأمراض، وكتاب ابتديما، وهو كتاب الأهوية والبلدان، وغير ذلك من الكتب المنسوبة إليه من السُّنن وغيرها. وهو من ولد سقلابيوس وكان مُعَظَّماً في اليونانيين وله هيكل، وسقلابيوس هذا من وَلَد أبلُّون، وكان مُعَظَّماً لحكمته. له أيضاً هيكل في بعض الجزائر كان يُحَجُّ إليه في أيام اليونانيّين قبلَ ظهور النَّصرانية، وقد ذكره أفلاطون في كتابه المسمّى فادُن في النفس.

والاثنان الباقيان من البقارطة من أولاده أيضاً لأنّه كان لأبقراط الكبير ابنان أحدهما يقال له: تاسلوس، والآخر دراقن. وكان لكلّ واحدٍ منهما ابن سمّاه باسم جَدّه أبقراط. ذكر ذلك غيرُ واحدٍ ممَّن تَقَدَّم وتأخَّر، منهم حنين بن إسحاق في كتابه في الأسطقسات على رأى جالينوس على طريق المسألة والجواب إلى ابنيه إسحاق وداود.

العشرون: برطينقس قيصر، ملك ثلاثة أشهر.

الحادي والعشرون: يوليانوس قيصر، ملك شهرين.

الثاني والعشرون: سورس، ملك سبع عَشْرةَ سنة، وشمل اليهودَ والنصارى في أيامه القتلُ والأذى والتّشريدُ، وسار إلى بلاد مصر فبنى بالإسكندرية هيكلاً عظيماً سمّاه هيكل الآلهة.

الثالث والعشرون: أنطونيوس، مَلَكَ ستّ سنين.

الرابع والعشرون: مقرينوس ملك سنةً وشهرين.

الخامس والعشرون: أنطونيوس الثاني، ملك أربعَ سنين.

السادس والعشرون: الاكصندرس، ويلقّب ماماس، ملك ثلاثَ عَشْرةَ سنةً.

السابع والعشرون: مقسميانوس، ملك ثلاثَ سنين.

الثامن والعشرون: بوبينوس، ملك ثلاثةَ أشهر.

التاسع والعشرون: غرديانوس، ملك ستّ سنين.

الثلاثون: فيلبّس قيصر، ملك ستّ سنين ودُعي إلى دين النّصرانية فأجاب، وترك ما كان عليه من مذاهب الصابئين

واتَّبعه على ذلك كثيرٌ من أهل مملكته؛ فآل ذلك إلى تحزُّبهم، واختلاف كلمتهم في الدّيانة. وكان فيمن خالفه عليه بطريقٌ من بطارقته يقال له: داقيوس، فقتَل فيلبّس، واستولى على الملك.

الحادي والثلاثون: داقيوس، ملك سنتين، وتتبَّع النَّصارى، فقتل منهم مَقْتلةً عظيمة، ومنه هرب الفتيةُ أصحاب الكهف، وهم في جبلٍ من جبال الروم يُعرف بخاوس شرقيّ مدينة أفسيس، وهو على نحوِ ألفِ ذراعٍ منها، وكانت هذه المدينة على بحر الروم، فبعد البحرُ عنها في هذا الوقت، وخربت وأحدثت مدينة على نحوِ ميلٍ منها.

قال المسعوديّ: وقد ذكرنا في كتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار» الذي كتابُنا هذا تالٍ له في أخبار ملوك الروم تنازعَ الناس في أصحاب الكهف والرّقيم، ومواضعهم وهل هم أصحابُ الرّقيم، أم هؤلاء غيرهم؟ ومَنْ قال منهم إنّ الرّقيم بالُهوته، وهي خارمي من بلاد الروم بين عَمُّوريَّة ونيقية، وكيفية تزاور الشمس في حال طلوعها

وغـــروبهـــا عـن الـكـهـف، والعلّة في ذلك على الشـــرح والإيضـاح، ومـا كـان من توجيـه الواثق لمحـمـد بن مـوسى بن شاكر المنجّم إلى هناك، وما شاهد.

قال المسعـوديّ: وللنّاس ممّن عُني بهيئة الفلك، وعلم النواحي والآفاق، وتأثيرات الأجسام السماويّة في هذا العالم في كيفيّة ازورار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشّمال كلامٌ كثيرٌ، من ذلك أنّ كُلّ بيتٍ يستقبل بابه الشمال في البلدان الخارجه عن مدار السرطان إلى ناحية الشمال، وكلّ بلد عرضه أكثر من أربع وعشرين درجة، فإنّ الشـمسَ إذا طلعت أخـذت عن يمين البـاب، وإذا تـوسّطت السمـاءَ كـانت على ظهر البيت، وإذا غَرُبتْ أخذت عن ذات الشّمـال. وهذا الصُّقْع الذي فيـه الكهف واغلٌ في الشّمـال وبابُ الكهف مستقبلٌ الشّمال، وذكر هؤلاء أن مدينة أفسيس التي هي مـدينةُ أصحاب الكهف في الأقليم الخامس، طولها من المغرب سبعٌ وخمسون درجة تامّة، وعرضها ثمانٌ وثلاثون درجـة. ويمكن أن يكون اللّه عزّ وجلّ خلق لهم هذا الكهف

مستقبلَ الشّمال على ما ذكرنا تكْرِمةً لهم، وليجعلهم آيةً للعالمين. وقد أخبر اللّه عزّ وجلّ عن ذلك بقوله: ﴿وترَى الشَّمْسَ إذا طَلَعتْ تزَاورُ عن كَهْفِهمْ ذاتَ اليمينِ وإذا غرَبَتْ تَقْرِضهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ في فَجْوةٍ منه، ذلكَ من آياتِ اللّهِ مَنْ يَهْدِ اللّه فَهوَ المهتد ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لهُ ولَيّاً مُرْشِداً﴾.

الثاني والثلاثون: غليوس قيصر ملك سنتين وكان شريكَهُ في الملك أخوه يوليانوس.

الثالث والثلاثون: غالينوس قيصر ويلقب والاريانوس ملك خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً.

الرابع والثلاثون: قلوذيوس الثاني ملك سنةً، وفي أيامه كان ظهور ماني، وإليه أضيفت المانويّة من أصحاب الاثنين، وقد تقدَّم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار ملوك الفرس الثانية وهم السَّاسانيّة في ملك سابور بن أردشير، وما كان من مَقْتَله في ملك بهرام بن هرمز بن سابور مجملاً وفيما سلف من كتبنا مفصّلاً مشروحاً، وقول أصحاب المانويّة إنه الفارقليط الذي وعد به المسيح، وما ذكر ماني من

ذلك في الجبلَّة، وفي كتابه المترجم بالشابرقان، وفي كتاب سِفرْ الأسفار، وغيرها من كتبه، والحِجاجُ بين سائر أصحاب الاثنين من المانويّة، والديصانيّة، والمرقيونية، وغيرهم من الفلاسفة في المبادىء الأُوَل، وغير ذلك. وقد ذكر ماني في كثير من كتبه المرقيونيّة والديصانيّة وأفرد للمرقيونيّة باباً في كتابه المترجم بالكنزوللديصانية باباً في كتابه سِفرْ الأسفار، وغير ذلك من كتبه.

إنما ذكرنا ذلك دلالةً على أنّهما كانا قبله، إذْ كثيرٌ مِمَّن لا علمَ له بأرباب الآراء والنحل والمذاهب والملل يعتقد أنَّهما كانا بعده.

الخامس والثلاثون: أورلليوس بن قلوذيوس ملك ستّ سنين.

السادس والثلاثون: طاقطوس وعاضده على الملك أخوه فوروس ملكا تسعةَ أشهر.

السابع والثلاثون: بروبس، ملك تسعَ سنين.

الثامن والثلاثون: قاروس، ملك سنتين وخمسةَ أشهر.

التاسع والثلاثون: دقلطيانوس، ملك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً.

الأربعون: مقسيميانوس وشاركه في الملك مقسنطيوس بن مقسيميانوس فاقتسما المملكة بعدَ خُطُوبٍ كثيرة وحروب عظيمة قد ذكرناها في كتاب «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة» فتملَّك مقسيميانوس على الشأم وما يلي بلاد الجزيرة ومواضع من أرض الروم، وتملَّك مقسنطيوس على مدينة رومية وما اتَّصل بذلك من أرض الإفرنجة، وتملك معهما على بلاد بوزنطيا وما يليها قسطنس أبو قسطنطين.

ثم هلَك قسطنس فأفضى أمرُ المملكة إلى ولده قسطنطين المعروف بأمّه هيلاني، وكانت له مع مقسيميانوس ومقسنطيوس برومية وغيرها حروب طويلة إلى أن هلك مقسنطيوس، وخلع مقسيميانوس نفسه، وكانت مدة ملكهما نحواً من تسع سنين.

قال أبو الحسن عليّ بْنُ الحسين بن علي المسعوديّ: فهذه الطبقة الأولى من ملوك الروم الذّين كانوا على دين الصَّابئة، وهي الحنيفيَّة الأولى، وهم أربعون ملكاً وفي زيج

ثاون الإسكندراني أنَّ عِدَّةَ الملوك من أوغسطس إلى قسطنطين ابن هيلاني تسعةٌ وعشرون ملكاً، وسبيل هؤلاء الملوك من أوغسطس إلى قسطنس أبي قسطنطين سبيلُ ملوكِ الفرس الأولى، والطوائف من جيومرت إلى أردشير. مضطرب تاريخُهم متنازَعٌ في أعدادهم غير مُحَصَّلةٍ أوقاتُهم، وإنَّما يُعَوَّلُ على تاريخ ملوك الروم من قسطنطين المُظْهِر لدين النَّصرانية والمحارب عليها كما تُعَوِّل الفرسُ في تاريخ سنيّها، وتحصيل أيّام ملوكها مُذْ ملك أردشير بن بابك، على أنَّا لَمْ نألُ جهداً في تحصيل أعداد ملوكهم ومدَّة أيامهم، ونحن ذاكرون الطبقةَ الثانية من ملوك الروم المتنصِّرة قبلَ ظهورِ الإسلام، وبعده إلى هذا الوقت المؤرَّخ به كتابُنَا وهو سنة ٣٤٥.



ذكر الطبقة الثانية من ملوك الروم

وهم المتنصِّرة وتأريخهم وأعدادهم. وما كان من الكوائن والأحداث العظام الديانيَّة والملوكيَّة في أيامهم

أولُ ملوك هذه الطبقةَ قسطنطينُ بنُ قسطنس يُعرف بأمه هيلاني، وإليها يُنْسَبُ على ما قدَّمنا، مَلَكَ اثنتين وثلاثين سنةً، وثلاثة أشهر.

وهو الذي أظهر دينَ النَّصرانية وحارب عليها حتى قُبِلتْ وانتشرت في البلاد إلى هذه الغاية. وقد ذكرنا في كتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار» التنازعَ في سبب تَنصُّره وتَركُه ما كان عليه من مذاهب الحنفاء، وما قالت الحنفاءُ في ذلك من ظهور الوضَح في جسمه وإجماعهم على خلعه، إذ كان في أصل دياناتهم وواجب عباداتهم أنَّ مَنْ كان به ذلك لا يصلح للملك، وأنَّه ما يَلِ من فشى فيه دينُ

النصرانية، واستظهر بهم وبخاصتّه وصنائعه على مَنْ خالفه، وأظهر النّصرانية، إذْ كان غيرَ محظور فيها تمليكُ مَنْ به ذلك، وقول من قال منهم: إنَّه كتم ما ظهر به وأفشاه إلى بعض وزرائه ممّن كان يُخفي النَّصْرانية، وأعلمه أنّه يخشى خَلْعَهَ عن الملك، فضمن له القيام بكفايته ذلك، وأنفذ عدّةَ عساكر إلى مَنْ حوله من الأعداء مرّةً بعد أخرى، بأسماء الأصنام السّبعة التي كانت على أسماء الكواكب السّبعة، ومثالات لها من النيِّرين والخمسة.

وكان الصابئون يُقرِّبون لها القرابين، ويعتكفون على عبادتها، بعد أن جعلها في غاية الضّعف؛ فعادت منكوبةً مهزومة، فأظهر الإزراءَ بها، والتنقُّص لِمنْ يرى عبادتها، وأشار عليه حينئذٍ بالانتقال إلى النصرانية ففعل.

وما ذهب إليه النصارى من أنّ السّببَ في ذلك ظهورُ صليبٍ له نُوريّ في السماء في نومه في حالِ حربه مع ملك برجان، وأنّه قيل له: استنصِرْ به على عدوك تُنصَرْ عليه، وأنّه ركّب مثالَ ذلك على رؤوس الأعلام كالأسنّة فظهر على عدوّه بعدَ أن كانوا الظّاهرين عليه، فدان بها حينئذٍ.

وقـولُ من قـال منهـم : إنَّه رأى ذلـك في يَقَظَتِهِ ، وغـيـر ذلك من أقاويل الفريقَيْن على الشَّرح والإيضاح .

ولثـلاث سنينَ خلت من مُلْكه بنى مـدينةَ القـسطنطنيَّة على الخليج الآخذ من بحر مـايطس ، ويُعرف في هذا الوقت ببحر الخزر إلى بحر الروم والشأم ومصر ، وذلك في الموضع المعروف بطابلا من صُقْع بوزنطيا وبالغ في تحصينها وإحكام بنائها ، وجعلها دارَ مملكةٍ له أضيفت إلى اسمه ونزلها ملوكُ الروم بعده إلى هذا الوقت ، غيرَ أن الرّوم يسمُّونها إلى وقتنا هذا المؤرّخ به كتابُنا «بولِنْ» وإذا أرادوا العبارة عنها أنَّها دارُ الملك لعِظَمها قالوا : «استَن بولِن» ، ولا يدعونها القسطنطينيّة وإنما العـربُ تُعـبِّر عنهـا بذلك . والقـسطنطينيّة من الأرض الكبيرة المتَّصلةِ برومية وبلاد الإفرنجة والصَّقالبة والأندلس ، وغيرهم من الأمم الواغلين في الشمال ، واتَّصل ذلك بالمشرق كأرض الترك وغيرها من خراسان إلى الهند والصين ، والخليج الآخذ من بحر مايطس الذي يُعرف بالخزريّ ، يُحيط بها من ثلاثِ جهاتها ويصبُّ في البحر الروميّ ، وقيل : إنه يُحيط بها

من جهتين: المشرق، والشمال، وجانباها: الغربيُّ والجنوبيُّ في البرّ.

وطولُ الخليج ثلاثمئة وستون ميلاً، وقيل وثلاثون، عليه ستُّ عَدَوات لمن يُريد من دار الإسلام إليها ممَّا يلي الثغورَ الشأمية والجزريّة وغيرها.

فالعَدْوةُ الأولى تُعرف بأقروبلى عرضُ الخليج هناك ميلٌ، وعلى هذا الموضع نزل سابور الجنود بن أردشير، وحاصر القسطنطينيّة، وبنى هناك بيتَ نارٍ، واشترط على الروم عند انصرافه بقاءه، فلم يزل ذلك البيت قائماً إلى أيام المهديّ فخرب، ثم نزل عليه بعده أنو شروان بن قباذ ملك الفرس في بعض غزَوَاته فأجرى إلى ما هناك نهراً ونَصَب عليه أرحاء، وأرادَ سكْرَ هذا الموضع من الخليج بالحجارة، وجرَّبَ الرمل ليعبرُ عليه، فغلبه الماء لشدّة انصبابه من البحر الخزريّ إلى الروميّ، الذي هوبحرُ الشأم ومصر.

والعدْوةُ الثانية يقال لها الأفقاطي، تكون من هذه العدوة على نحو من ثلاثين ميلاً، وعرضها من الجانب الشأمي إلي ذلك الجانب تسعة أميال ومن هذه العدوة تعبر عساكر الرّوم إذا أرادوا الخروجَ إلى دار الإسلام.

والعَدُوة الثـالثـة تُعـرف بسنكـرة، وبينهـا وبين عـدوة الأفقاطي نحوٌ من ثلاثين ميلاً، يكون عرضُ هذه العدوة اثني عشر ميلاً وهذه العدوةُ تقرب من مدينة نيقية.

والعدوة الرابعة تعرف بفيلاس بينها وبين عدوة سنكرة نحو من ثمانية أميال، يكون عرضُ هذه العدوة من الجانب الشأميّ إلى ذلك الجانب، وهو بند تراقية نحواً من أربعين ميلاً، ومن هذه العدوة يُعدى بأسارى الرُّوم إذا أرادوا بهم الفداءَ إلى اللامس، لأنَّها عدوةٌ عريضةٌ يرهُبون بها الأسرى.

والعدوة الخامسة تعرف بلبادو، وبينها وبين عدوة فيلاس نحوٌ من عشرين ميلاً، يكون عرضُ هذه العَدُوة من الجانب الشأميّ إلى ذلك الجانب، وهو بند تراقية نحواً من عشرين ميلاً، وقد حاصر القسطنطينيّةَ في الإسلام من هذه العدوة ثلاثة أمراء آباؤهم ملوكٌ وخلفاء، أولّهم يزيدُ بن معاوية بن أبي سفُيان، والثاني مَسْلَمةُ بنُ عبد الملك بن مروان، والثالث هارون الرشيد بن المهديّ.

والعَدْوة السَّادسة تعرف بابدو، وهي فَمُ الخليج الصابّ في بحر مصر والشأم ومبدؤه من بحر مايطس المسمَّى بحرَ

الخزر، وعرضُه في المبدأ نحوٌ من عشرةِ أميالٍ. وهناك مدينةٌ للرّوم تُعرف بِمسنَّاة تمنع من يَرِدُ في ذلك البحر من مراكب الكوذ كانه وغيرهم من أجناس الرُّوس، والروم تُسمّيهم «رُوسيا» معنى ذلك: الحُمْرُ.

وقد دخل كثيرٌ منهم في وقتنا هذا في جملة الرّوم، كدخول الأرمن والبرغر، وهم نوع من الصقّالبة والبجناك من الأتراك، فَشَحنوا بهم كثيراً من حصونهم التي تلي الثغورَ الشأميّة وجعلوهم بإزاء برجان وغيرهم من الأمم المتأبّدة لهم والمحيطة بملكهم، وأبدو مدينةٌ على هذا الخليج ممّا يلي الشأم والجزيرة لا من جانب القسطنطينيّة.

ومن هذه العدوة إلى القسطنطينيّة مئتا ميل روميّة، تكونُ أميالاً بأميالنا نحو مئةٍ وعشرين ميلاً، وأبدو جبلان: جبلٌ من هذا الجانب من عمل الأبسيق، وجبل من ذلك الجانب من عمل تراقية، وكان على هذين الجبلين حرسٌ على كل جبلٍ عشرون رجلاً يحرسون المراكبَ إذا دخلت وخرجت ويفتّشونها.

وكانت فيه سلسلةٌ تُفتح وتُغلق في عمودَي حديدٍ من هذا الجانب إلى ذلك الجانب هو باب الخليج الذي يُحاصر به القسطنطينيّة حين كان للمسلمين أسطولٌ يغزونهم من الثغر الشأمي والشأم ومصر. و «الأسطول» كلمةٌ روميّةٌ سمة للمراكب الحربيَّة المجتمعة.

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السبّبَ في كيفيّة بناء القسطنطينيّة، والتنازع في ذلك، وقول من قال إنّ ما وراء الخليج كان من أرض برجان، فاحتال قسطنطين على مَلِك برجان؛ لعلمه بالموضع وحصانته حتى أذِنَ له في بنائها، وما يُذَمُّ من خِصالها وهوائها ومائها وتربتها، وأنَّ الخيلَ لا تَنْزو بها، ولا تصهل لِما يلحقها من الربو؛ لنداوة البلد وعفونته، وقيل: إنّ ذلك لِطَلّسْم[1] فيها، وغير ذلك من أخبارها.

ولعشرينَ سنةً خلت من مُلْكِ قسطنطينَ كان «السنهودس» الأول بمدينة نيقية[2] من بلاد الروم تفسير ذلك:

---

(١) – رقية، أو خطوط تستخدم لدفع الأذى. (يونانية معربّة).

(٢) – نيقية أو أنيقية: من أعمال استنبول على البرّ الشرقيّ.

مجمع، وهو القُدّاس. حضر هذا المجمع ألفان وثمانية وأربعون أُسْقُفاً مختلفو الآراء، فاختير منهم ثلاثمئة وثمانية عشر أُسْقُفاً ومتفقين غيرَ مختلفين فحرموا أريوس الإسكندراني[1]، وإلى اسمه أضيفت الأريوسيّة من النصارى، ووضعوا في هذا المجمع الأمانة التي يتّفق عليها سائر النصارى من الملكّية، واليعقوبيّة والعباد وهم: النسطوريّة، ويذكرونها كلّ يومٍ في القُدّاس. ولهم أربعون كتاباً فيها السُّنن والشرائع، واتّفقوا على أن يكون فِصْحُ النّصارى يومَ الأحد الذي يكون بعدَ فصح اليهود، وألاّ يكونَ فِصْحُ اليهود مع فصح النّصارى.

وكان المقدّمَ والرئيسَ في هذا المجمع الإسكندرُ، بطريرك الإسكندريّة من بلاد مصر وهو بالروميّة «بطريركس» تفسيرة: رئيس الآباء فخفّف، وحضر أسطاث بطريرك أنطاكيَة، ومارقس أُسْقُفُ بيت المقدس، ويوليوس بطريرك

(١) - كاهن اسكندريّ زعم أن الكلمة غير مساوٍ للآب في الجوهر، فحرمة المجمع النيقاوي وذلك سنة ٣٢٥م.

رومية، وكان هذا الاجتماع في اليوم التاسع عشر من حزيران سنة ٦٣٦ للإسكندر الملك وقيل: إنها السنة التاسعة عشرة من مُلْك قسطنطين، وكثير من النصارى يعدُّ ذلك من شمعون بن قلوفا فأخفاها بلبّه(١)، وبنت هيلاني بإيليا الكنسية المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صُبْحُهُ الفصح، وكنيسة قسطنطين وديارات كثيرة للنساء والرجال على الجبل المطّل على مدينة بيت المقدس المعروف بطور زيتا وهو بإزاء قِبلة اليهود، وعُمِّرت مدينة إيليا عِمارةً لم يكن قبلها مثلَها، ولم يزل ذلك عامراً إلى أن أخربته جنودُ الفرس حين غلبت على الشأم ومصر وسبت مَنْ كان في تلك الدّيارات وغيرها قبل ظهور الإسلام، وذلك في مُلْكِ كسرى أبرويز ملك فارس والملك على الروم يومئذٍ فوقاس على ما نحن ذاكروه فيما يرد من هذا الكتاب جُمَلاً وقد سلف في كتبنا مشروحاً.

والأطوار المقدّسة للنصارى أربعة، فأوّلها طور سينا الذي كلّم اللّه موسى عليه، وأُنزلت عليه التوراةُ وهو على أيّامٍ

(١) - العبارة غير واضحة، وقد صححها الصاوي: فأضافها إليه.

من مَدِينة القُلْزم، وعلى يوم وبعض آخرَ من رايَةَ من ساحل بحرِ القُلْزُم.

والثاني: هو طور هارون وهو على أيامٍ من جبل طور سينا.

والثالث: طور زيتا على ما ذكرناه.

والرابع: طور الأردن بين فلسطين وطبريَّة جميعها للملكيّة من النَّصارى والأطوار: الجبال.

وبنت هيلاني كنيسةَ حمص، وهي إحدى عجائب العالم على أربعة أركان، وكنيسة الرَّهاء من بلاد ديار مضر وهي إحدى عجائب العالم الأربع المذكورة، وكانت هيلاني من بلاد الرَّهاء من قريةٍ تُعْرفُ بتلِّ فَخَّار إلى هذا الوقت المؤرَّخ به كتابنا هذا، على طريق آمد وقد أتينا على خبرِ أبي قسطنطين، والسّبب في تزوجُّه بها عند مشاهدته إيَّاها، والعجائب الأربع: جامع دمشق، ومنارة الإسكندرية، وقنطرة سَنْجة، وهذه الكنيسة، وقد أغفل قومٌ من مصنّفي الكتب في التواريخ والسّير من النصارى فزَعموا أن خروج

هيلاني أمّ قسطنطين إلى الشأم كان لسبع سنين من مُلْك ابنها قسطنطين، وهذا غلطٌ متفاحش لأنّ قسطنطين دان بالنصرانيّة بعد مُضيّ عشرين سنةً من مُلْكه.

قال المسعوديّ: ولقسطنطين أخبارٌ وسِيَرٌ وسياسات في المُلْك والدّين، وسَيْرٌ في الأرض وحروب قبل تنصُّره وبعده. وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان» من الأمم الماضية، والأجيال الخالية، والممالك الدائرة، وما تلاه من الكتاب الأوسط وفي النسخة الأخيرة من كتاب «مروج الذهب، ومعادن الجوهر» وفي كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدُّهور السّوالف» وفي كتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار». وإنّما نذكر في هذا الكتاب لُمَعاً من ذلك، لِيكونَ مُنَبِّهاً عليها ومدخلاً إليها.

الثاني: من المتنصِّرة قسطنطين بن قسطنطين بن هيلاني. ملك أربعاً وعشرين سنة، وكان أبوه قسطنطين عهد إليه بالملك في حياته وولاّه القسطنطينية، وولّى أخاه قسطنس أنطاكية والشأم ومصر والجزيرة وجعل مقامه بأنطاكية وولّى أخاه

قسطوس رومية وما يليها من بلاد الإفرنجة والصقالبة وغيرهم من الأمم، وأنزله رومية وأخذ على أخويه هذَيْن العهودَ والمواثيق بالانقياد لأخيهما قسطنطين؛ فاستقام مُلكُه إلى أن هلك.

الثالث: يوليانوس ابن أخي قسطنطين بن هيلاني ملك سنتين، وكان يُخفي الصَّابئيَّة في أيام عَمِّه وابن عمِّه، فلما ملك أظهرها وارتدَّ عن دين النَّصرانيَّة، وخَرَّب الكنائس، وردَّ التماثيل الَّتي جعلها الصَّابئون مثلاً للجواهر العلُويَّة، والأجسام السمائيَّة التّي هي وسائط بين العلّة الأولى عندهم وبين الخليقة في العبادات، وقَتَل من النصارى خَلْقاً كثيراً، وجعل عقويةَ من لم يرتدَّ إلى الحنيفيّة القتلَ، وكان يأخذ مَنْ عاد إلى الحنيفيّة بالقاء اللُّبان على النَّار والأكل من ذبيحة الحنفاء وغير ذلك، وكان عظيم السَّطْوة كثير الجنود.

قال المسعوديّ: وسار إلى أرض العراق في مُلْكِ سابور بن أردشير، فهلك بسهمٍ غَرْبٍ أصابه. وقد أتينا على خبره وخبر سابور الجنود ملك بابل وما كان بينهما من الحروب في

الجزء السابع من «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر» في أخبار الفرس في مُلْك سابور. والروم تسمّيه «باربديس» تفسير ذلك: المرتّد، والصابئة: «أوسيبوس» تفسير ذلك: المؤمن التقيّ. والنصارى جميعاً يتبرّؤون منه. ومنهم من يدعوه «البُزْتاط».

الرابع: يوبيانوس، ملك سنةً وكان خليفة يوليانوس المقتول ومعه في عسكره، ففزعوا إلى تمليكه عليهم فأبى إلاّ أنْ يرجعو إلى النّصْرانيّة، فأجابوا إلى ذلك فردّ دين النصرانية، وانصرف بجيوش الروم عن العراق بعد قِصَصٍ كانت له مع سابور ومهادنة قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا.

الخامس: والنطيوس، ملك اثنتي عَشْرَةَ سنةً وخمسةَ أشهر.

السادس: والنس، ملك ثلاثَ سنين وثلاثة أشهر.

السابع: والنطيانوس، ملك ثلاث سنين وأربعة أشهر، وعاضده على ملكه غراطيانوس فهلك قبله.

الثامن: تدوس الكبير وتفسير «تدوس»: عَطيَّة اللّه. ملك تسع عَشْرة سنةً، وفي ملكه كان السنهودس الثاني وهو المجمع بمدينة قسطنطينيّة من بلاد بوزنطيا. اجتمع فيه مئة، وخمسون أُسْقُفاً، فلعنوا مقذونس وأشياعه مع البطارقة الذين بَعْدَه قالوا بمقالته. وكان المقدّم في هذا المجمع طيموثاوس بطريرك الإسكندرية، ومليطيوس بطريريك أنطاكية، وقورلّس بطريريك بيت المقدس. وفي هذا المجمع بُطْرِك وهو أوّلُ بطريرك لبيت المقدس، وإنّما كانوا أساقفة وكانت البطارقة أصحاب الكراسي الأربعة.

أوّلُها مدينة رومية وهي لبطرس رئيس الحواريّين وخليفة أيشوع.

الثاني: الإسكندريّة من بلاد مصر، وهي لمرقس أحد أصحاب الأناجيل الأربعة.

والثالث: قسطنطينيّة من بلاد بوزنطيا، وكان أوّل بَطْريرك لها مطروفانس رتّبه الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً الّذين أقاموا دينَ النَّصرانية بمدينة نيقية المُقدَّم ذكرهم.

والرابع: أنطاكية وهي لبطرس أيضاً، واستخلف بطرسُ على الكرسيّ بها حينَ سار إلى مدينة رومية واذيوسَ، فصارت البطاركةُ خمسةً إلى هذا الوقت المؤرّخ به كتابُنَا وهي سنة ٣٤٥ للهجرة جميعاً للملكيّة فكان من السنهودس الأول بنيقية الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً إلى هذا الاجتماع ستٌّ وخمسون سنةً، وأطْلقَ طيماثاوس بطريريك الإسكندرية في هذا المجمع للبطاركة والأساقفة والرهبان ببلاد مصر والإسكندرية أكلَ اللّحم لأجل الثنويّة لِيعرِفَ مَنْ كان منهم مثنويّ المذهب إذْ كانت الثنويّة تمتنع من ذلك، فأمّا البطاركةُ والأساقفة والرهبان بغير مصر والإسكندريّة كرومية وأنطاكية وغيرهما من البلاد فإنّهم امتنعوا من أكل اللحم وأكلوا بدلاً عنه السّمكَ محنةً لهم إذْ كانت الثنويّة لا تأكلُ اللّحْمَ، ولا السّمكَ إلاّ السمّاعين منهم؛ فإنّ منهم من يأكلُ اللّحمَ والسمكَ، ومنهم من يأكل السمكَ دونَ اللّحْم.

قال المسعوديّ: ولثماني سنينَ خلت من مُلْكه ظهر الفتيةُ أصحابُ الكهف الذين كانوا قد هربوا من داقيوس الملك

على ما قدَّمنا في أخبار الطبقة الأولى من ملوك الروم في هذا الكتاب وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» أخبارهم وما قيل فيهم والتنازع في موضعهم أهوَ الموضع الذي بمدينة أفسيس وراء مدينة زمرني على البحر الروميّ، أم الهوته التي تُسمّى خارمي ممّا يلي قُرَّة بأرض الروم؛ أم غيرهما من المواضع التي يُشار إليها بذلك؟ وخبر تدوس الملك والسبب في إفضاء الملك إليه وما كان من خبره قبل ذلك وبعده.

التاسع: أرقاذيوس بن تدوس ملك ثلاث عشرة سنة.

العاشر: تدوس الصغير بن تدوس الكبير ملك اثنتين وأربعين سنة ولإحدى وعشرين سنةً خلت من ملكه كان السنهودس الثالث بمدينة أفسيس[1] على بطريريك القسطنطينيّة نسطورس وكان على كرسيّها أربع سنين حضر هذا المجمع مئتا أُسْقُف، وكان المقدَّم فيه قورلّس بطريرك الإسكندرية،

---

(١) - في مروج الذهب: أفسوس وهي مدينة قديمة في آسية الصغرى على بحر إيجه.

وكلسطوس بطريريك رومية، وبولانيوس بطريريك إيليا فلعنوا نسْطورس وتبرّؤوا منه ونَفَوه فسار إلى صعيد مصر فأقام ببلاد أخميم والبُلْيَنا، ومات بقرية يقال لها سيفلح وموضعه معروف في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا. وأضافت الملكّية العِباد من النَّصارى وهم المشارقة إليه تقريعاً لهم بذلك فَسُمُّوا النسطوريَّة ،كانت رئاسة البطركة للمشارقة في ذلك الوقت بالمدائن من أرض العراق لداديشوع يعدُّ بلادها في ملك فارس.

قال المسعوديّ: فذكرت العِباد أن تيادوس الملك كان كتبَ إلى يوحنَّا بطريرك أنطاكية وأساقفته أن يَسيروا إلى المدينة أفسيس، لينظروا فيما بين نسطورس وقورللس بطريرك الإسكندرية من الخلاف فاجتمع نسطورس وأصحابهُ وقورللس وأصحابه بها، فانتدب قورلّلس فحرم نسطورس قبل موافاة يوحنا صاحب أنطاكية الذي جعله الملك حَكَماً بينهما، فلما رأى نسطورس أنّ قورللّس يجري إلى الحيلة والمغالبة والعدول عن الحقّ اعتزل وقال: الديّانة لا تكون بالمجاذبات والحيَل، وطَلَبِ الرئاسات، وإن يوحنا بطريرك

أنطاكية لَمّا وافى فوقف على فعل قورللّس أنكره عليه وحَرمَهُ وأنكره ذلك عليه عند قراءته مقالة نسطورس ومقالة قورللّس وصحّح مقالةَ نسطورس وأمانته ورد مقالةَ قورللّس وذكر أنّها مخالفةٌ للحقّ لا يجوز لأحد أن يقولَ بها، ولا يتقلّدها، وأنّ يوحنّا عاد إلى أنطاكية وكتب إلى بطريرك المشرق بما جرى وتوجّه الحيلة على نسطورس من صاحب الاسكندرية ببذل الأمـــوال لبطانة الملك حـــتى حلّ الحِرْمَ عنه، بقي حِرْمُ نسطورس، فكان هذا أحد أسباب الخلاف بين أهل المشرق من النصارى وأهل المغرب، وداعية إلى ما كان بينهم من العداوة والقتال وسفك الدماء، والعِباد تذكر أنّ أولَ البطاركة السريانييّن الذين نزلوا كرسيّ المشرق على قديم الأيام بعدَ صعود المسيح إلى السماء بنحوِ ثلاثين سنة بعد توما أحد الأثني عشر أدى السّليح قبل حدوث الخلاف بين النصارى وهو أدى برماري السليح من السبعين وهو نصَّر أهل المدائن ودَيْر قُنّى وكسكر وغيرهما من السواد، وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن دار مملكة فارس يومئذٍ وجعلها كرسيّاً لمن يأتي بعدَهُ من البطاركة، ورسم ألاّ تتمّ البطركةُ لمن نُصِب لها إلاّ في هذه

البيْعة، وأخرى بدير قُنّى وقبره بها. وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا خبرَ المشارقة من النَّصارى مع سابور ملك فارس حين أخذهم بالتَّمجُّس وامتناعهم من ذلك وقتله منهم نحواً من مئتي ألف وغير ذلك من أخبارهم، وذكر الملكيّة أن مقالة نسطورس كانت درست، فأحياها برسوما مطران نَصيبين ودعا إليها المشارقة من النصارى فدانوا بها.

قال المسعوديّ: وفي هذا المجمع خالفت النّسطورية الملكية وافترقوا عنهم، فمن المجمع الثاني المئة والخمسين الأسقف الذّين اجتمعوا بمدينة القسطنطينيّة ولعنوا مقذونس إلى هذا المَجمع المئتي أسقف الذين اجتمعوا بمدينة أفسيس إحدى وخمسون سنة. وكان في أيام تدوس هذا عند النصارى حوادثُ في الدين والملك منها: نَفْيُه يوحنًّا المعروف بفم الذهب بطريرك القسطنطينيّة بحكومة حكمها في كرم، فكرهت ذلك زوجة الملك يدوقية، وغير ذلك.

الحادي عشر: مرقيان، ملك ستّ سنين، وفي أوّل سنة من ملكه كان السنهودس الرابع: بمدينة خلقيذون[1] على

---

(١) - خلقيذون أو خليقيدونية: مدينة بآسية الصغرى على خليج البوسفور وتسمى اليوم (كاديكوي).

ديسقرس بطريرك القسطنطينيّة وأوطيسوس. اجتمع فيه ستمائة وثلاثون أسقفاً فمن المجمع الثالث المئتي أسقف الذين اجتمعوا بمدينة أفسيس إلى هذا المجمع إحدى وعشرون سنة وفي هذا المجمع خالفت اليعقوبيّة سائر النصارى وفارقوهم.

وقد ذكرنا في «كتاب أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والأمم الدائرة» في أخبار ملوك الروم وطبقاتهم وسيرهم خَبَرَ يعقوب البرذعاني الأنطاكي، وقيل: الحراني تلميذ سورس، وكيف أُضيف أهل مقالة ديسقرس إلى اليعاقبة، ونسبوا إلى يعقوب، وما كان من سوارى. وقد ذكرنا في أخبار ملوك الروم المتنصّرة من كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» عند ذكرنا مرقيان هذا والسنهودس الذي كان في أيامه -ما اتّفقت عليه الملكيّة، النسطوريّة واليعقوبيّة، وما اختلفت فيه من الكلام في الأقانيم والجوهر، وغير ذلك، وما احتجّ به كلُّ فريق منهم لذلك على الشرح، وقول من خالف هؤلاء من فرق النصارى الأريوسية والمارونية والبيالقة وهو المذهب الذي أحدثه بولس الشمشاطي، وهو من أول بطاركة أنطاكية وأصحاب الكراسي بها متوسِّطاً بينَ مذاهب النصارى والمجوس وأصحاب الاثنين من تعظيم سائر الأنوار، وعبادتها على مراتبها وغير ذلك،

وإنّما نذكر في هذا الكتاب لُمَعاً وجوامع منبّهين بذلك على ما تقدّم من كتبنا وسبق من تصنيفنا. وللبعاقبة كرسيّان لا ثالث لهما؛ أحدهما: بأنطاكية، والآخر: بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النّوبة والأحابش رأيُ اليعقوبيّة، وبها منهم ما لا يُحيط به الإحصاء كثرةً. ومقام بطركتهم بدير يُعرف بأبى مقارا بناحية الإسكندرية. والملكية والنسطوريّة بمصر قليلون جداً، وما عدا هذين البلدين فإنّما لليعقوبية مطارنة وأساقفة.

الثاني عشر: لاوون الكبير، ملك ستّ عَشْرةَ سنةً.

الثالث عشر: لاوون الصغير، ملك سنة، وكان يعقوبيّ المذهب وأراد حملَ أهل مملكته على ذلك فهلك ولم يبلغ ماأراده وقيل إنه اغتيل بالسُّمِّ.

الرابع عشر: زينون، ملك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً، وكان يعقوبيّ المذهب، وزهد في الملك وجعله إلى ولده، فهلك ولده فعاد إلى الملك.

الخامس عشر: أنسطاس، ملك سبعاً وعشرين سنة، وكان يعقوبيّ المذهب.

السادس عشر: يوسطين، ملك تسع سنين وتتبّع اليعقوبيّة بالقتل والنفي.

السابع عشر: يوسطانوس، ملك تسعاً وعشرين سنة، وفي ملكه كان السنهودس الخامس بمدينة القسطنطينيّة فحرموا أريجانس أسقف منبج لقوله بتناسخ الأرواح في أجسام الحيوان، وتبديل الأسماء وتغيُّرِ الأجسام، وأنّ اللّه عزّ وجلّ لا يفعل ذلك بخلقه إلاّ باستحقاق؛ لما ارتكبوه من الأجرام، وإنّه لا يَجْلبُ بعذابهم منفعة، ولا يدفع عن ذاته مضرّةً؛ إذْ كان غنيّاً عن جميع ذلك، وغير ذلك من الكلام في إيلام الحيوان، والتعديل والتحرير، وإيبا أُسْقف الرّهاء، وتدوس أسقف المصيصة، وتوزروطس أسْقُف أنقرة لأقاويل أظهروها، حضر هذا المجمع أصحاب الكراسي الأربعة وأساقفتهم وهم مئة وأربعة وستون أسقفاً، ولم يحضر بطريرك إيليا وحضر أصحابه فكان من المجمع الرابع الستمئة والثلاثين الذين اجتمعوا بخلقيذون إلى هذا المجمع مئة وست وثلاثون سنة.

وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» ما كان في أيام هذا الملك من أمر اليعاقبة والملكية ببلاد مصر والإسكندريَّة، وأمر اليهود بإيليا، وجبل يهوذا، وجبل الجليل وقتلهم النَّصارى، وما بنى هذا الملك من الكنائس والديارات بفلسطين وغيرها. وبطورسينا على الناطس والعُلّيقة، وهو الموضع الذي أُنزلت فيه التوراة على موسى بن عمران عليه السلام وغير ذلك من أحواله.

الثامن عشر: يوسطينوس، ملك ثلاث عشرة سنة، وكان في أيامه أنوشروان الملك.

التاسع عشر: طيباريوس، ملك ثلاث سنين وثمانية أشهر، وكان بينه وبين أنوشروان مراسلات ومهاداة.

العشرون: موريق، ملك عشرين سنة وأربعة أشهر، وظهر في أيامه رجلٌ من أهل مدينة حماة من أعمال حمص يعرف بمارون إليه تنسب المارونيَّة من النصارى إلى هذا الوقت المؤرَّخ به كتابنا، وأمرهم مشهور بالشأم وغيرها، أكثرهم بجبل لبنان وسَنير وحمص وأعمالها، كحماة وشَيْزَر ومعرَّة النعمان.

وكان له ديرٌ عظيم يُعرف به شرقيّ حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمئة صومعة فيها الرهبان، وكان فيه من آلات الذهب والفضّة والجوهر شيء عظيم، فخرب هذا الدير وما حوله من الصّوامع بتواتر الفتن من الأعراب وحَيْف السلطان وهو يقرب من نهر الأرنط[1]؛ نهر حمص وأنطاكية.

وكان مارون قد أحدث آراءَ بانَ بها عَمَّن تقدَّمه من النصارى في المشيئة وغيرها، وكثر متّبعوه، وقد أتينا على شرح مذهبه، وموافقته الملكية، والنسطوريّة، واليعاقبة في الثالوث ومخالفته إيَّاهم فيما يُذهب إليه من أنَّ المسيح جوهران: أقنومٌ[2] واحدٌ، و مشيئة واحدة. وهذا القول متوسّط بين قول النسطورية والملكية وغير ذلك في كتابنا في «المقالات في أصول الديانات»، ولبعض متّبعيه من المارونية ويُعرف بقيس الماروني كتابٌ حَسن في التاريخ وابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم

(١) - هو نهر العاصي.

(٢) - الأقنوم: الأصل والشخص (يونانية)

النصراني، وكان متفلسفاً جَدِلاً نَظّاراً جرت بيني وبينه مناظراتٌ كثيرةٌ ببغداد في الجانب الغربي بقطيعة أمّ جعفر، وبمدينة تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء، في الثالوث وغيره وقد أتينا على ذكرها في كتاب «المسائل والعلل، في المذاهب والملل» وفي كتاب «سرّ الحياة» وذلك في سنة ٣١٣.

قال المسعوديّ: وقد كان خسرو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان لَمّا هزمه بهرام جوبين واحتوى على الملك، وقتل هرمز لجأ إلى موريق مستنجداً به، فأنجده وزوجّه ابنته مريم وهي أمّ شيرويه القاتل لأبيه أبرويز، وأنجده بجيش كثيف فسار بهم أبرويز مما يلي أرمينية وآذربيجان فواقع بهرامَ وكشفه؛ فلحق بأرض التّرك إلى أن قُتل بها هناك غِيلَةً؛ وقد أتينا على ماكان في أيامه في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في النسخة الأخيرة التي قررنا أمرَها في هذا الوقت وهي سنة ٣٤٥ وهي أضعاف ما تقدّم من النسخة المؤلفة في سنة ٣٣٢.

الحادي والعشرون: فوقاس، ملك ثماني سنين وأربعة أشهر، ولَمّا ملك تتبّع ولد موريقيس حمو أبرويز وحاشيته

بالقتل، فلمَّا بلغ ذلك أبرويز أحفظه، وسيَّر الجنود إلى بلاد الشأم ومصر؛ فاحتوى عليها، وقتلوا من النصارى خلقاً كثيراً وخرَّبوا الكنائس بإيليا وغيرها وتوجَّه شهر براز في جيوش كثيرة كثيفة نحو القسطنطينية فخيّموا على الخليج بإزائهم واشتدَّ حصارُهم إياه، وكان هرقل بن فوق بن مرقس يختلف من مدينة صلونيقى وهو من أهلها إلى القسطنطينية بالزاد في البحر وهم محاصرون فبانت شهامتُهُ، وظهرت شجاعته، وأحبَّه أهلُ القسطنطينية فخلا بالبطارقة وذوي المراتب فأغراهم بفوقاس، وذكر لهم ما نزل بهم في أيامه وذكَّرهم بسوء آثاره فيهم وغلبة الفرس على ملكهم بسوء تدبيره، وقبح سياسته وإقدامه على الدماء، ودعاهم إلى الفتك به فأجابوه إلى ذلك فقتلوه.



ذكر ملوك الروم

من الهجرة إلى سنة ٣٤٥

واجتمعت البطارقةُ وغيرهم من ذَوي المراتب من الروم، وغيرهم بعد قتل فوقاس لاختيار من يصلح للملك، فوقع اختيارُهم بعد خَطْبٍ طويل، وتنازع كثير على هرقل؛ فملّكوه ورَجَوا صلاحَ أحوالهم بتمليكه.

وهو الثاني والعشرون من ملوك الروم المتنصّرة، وكان ملكه لثلاثٍ وثلاثين سنة خلت من ملك كسرى أبرويز بن هرمز ملك بابل، فملك خمساً وعشرين سنة وقيل: أكثر من ذلك.

وفي أوّل سنة من ملكه كانت هجرةُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فأقام في الملك أيامَ النبي صلّى اللّه عليه

وسلّم، وأيام أبي بكر وعمر وسنتين من خلافة عثمان. وفي أيامه غلب المسلمون على بلاد سوريّة وهي الشأم والجزيرة، وكان أخوه قسطنطين معاضداً له على الملك، فهلك قبله.

ولَمَّا ملك هرقل جَدّ في حرب الفرس، فكانت له معهم حروب كثيرة وفسد الأمر بين كسرى أبرويز وصاحب جيشه المحاصر للقسطنطينيّة شهربراز، وأتاه هرقل ومَالأَهُ[1] على أبرويز؛ فخرج هرقل في مراكب كثيرة في الخليج إلى بحر الخزر، وسار إلى طرابزندة وأبواب لازقة واستنجد هناك ملوك الأعاجم من اللاّن والخزر والسرير والأبخاز وجُرْزان والأرمن وغيرهم حتى صار إلى بلاد أرّان والبيلقان وآذربيجان والماهات من أرض الجبل، واتّصلت جيوشُهُ بأرض العراق فشنّ الغارات وقتل وسبى وانصرف راجعاً إلى القسطنطينية بحيلةٍ أوقعها أبرويز عليه.

قال المسعوديّ: وقد أتينا على خبر شهربراز والسبب في فساد الحال بينه وبين أبرويز، وإلى ما آل أمرهما وشرح أخبار

---

(١) – ملأه: شايعه وساعده.

هرقل، وما كان بينه وبين فارس من الحروب وحيله ومكايده، وما كان بينه وبين النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من المكاتبات والمراسلات، وما كان بين جنوده وبين المسلمين من الحروب بالشأم ومصر وغيرهما في خلافة أبي بكر وعمر، وخروجه عن الشأم، وقطعه الدرب إلى بلاد الروم، وقوله عند صعوده جبل الأكام وإشرافه على الشأم: «عليك السّلامُ ياسوريةُ سلامَ مودِّعٍ لا يعودُ إليك أبداً حتى يولدَ الغلام المشؤوم، وليته لا يولد! فما أحلى رضاعَهُ، وأمرَّ فطامَهُ» وما كان بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في حال إمرته على الشأم من قبل عمر وعثمان من المراسلات والملاطفات، وإخباره فناق غلامَ معاوية بأن عثمان بن عفان يقتل. وما يؤول إليه أمر المسلمين بعد ذلك، وغير ذلك من أخباره في كتاب «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية، والممالك الداثرة»، وفي كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السّوالف» وإنّما نذكر في هذا الكتاب لُمعاً وجوامع منبهّين بذلك على ما تقدّم تأليفه من كتبنا، ومدخلاً إلى علم ما سبق إيضاحهُ من تصنيفنا.

الثالث والعشرون: قسطنطين بن قسطنطين أخي هرقل وقيل إنه ابن هرقل ملك تسعَ سنين وستّة أشهر في خلافة عثمان بن عفان، وهو الذي غزا في البحر في نحوِ ألف مركبٍ حربيّة وغيرها فيها الخيل والخزائن والعدد يريد الإسكندريّة من بلاد مصر، وكان عامل مصر والإسكندرية لعثمان عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، فالتقوا في البحر فكانت على قسطنطين فَعَطِبت مراكبُهُ؛ وَهلَك أكثرُ رجاله، ونجا في مركب فوقع في جزيرة سِقِلِّية من بلاد إفريقية فقتله جرجيق ملكها تشاؤماً به لإهلاكه النَّصرانيَّة وسُمِّيت هذه الغزاةُ ذاتَ الصَّواري؛ لكثرة المراكب وصواريها، وهي الأدقال وكان ذلك في سنة ٣٤ للهجرة.

قال المسعوديّ: وفي ملكه كان السنهودس السادس وهو المجمع بالقسطنطينية من بلاد بوزنطيا وقيل: بل كان قبلَ هذا الوقت، وكان اجتماعهم على لَعْن رجلٍ يُقال له: قورس الإسكندرانيّ خالف الملكيَّة وأحدث قولاً نحوَ قولِ المارونيَّة في المشيئة والفعل. وكان عِدَّةُ من اجتمع فيه من الأساقفة مئتين

وتسعة وثمانين أسقفاً وقيل: دون ذلك. فمن السنهودس الخامس إلى هذه السنهودس ثمانٌ وستون سنةً وأربعة أشهر، وقيل: دون ذلك. وهذا آخر السنهودسات؛ لم يكن لهم إلى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا وهو سنة ٣٤٥ -والملك على الروم قسطنطين بن لاون بن بسيل- اجتماع فيما بلغني مع قُربنا من ديارهم، وبحثِنا عن أخبارهم وتَنقُّلنا بالثغر الشأميّ وأنطاكية والشأم ومصر. والملكيَّة تذكر هذه الاجتماعات الستة في قُدَّاسها وهي الصلاة على القربان في كل يوم. وقد اختلف أهلُ دين النَّصرانيَّة في العبارة عن أسماء هذه المجامع عند مُقابلتهم الامانات بالتراجم المعروفة، فمنه ما يسميه أهل مصر «السُنهودسات» أحدُها سُنْهُودس [1]، وبها عبَّرنا في كتابنا هذا لأنَّها أَفْصَحُها، ولمقامنا بمصر في هذا الوقت. ويسمّيه أهلُ المشرق «السنادسات» وقوم يقولون: «سناطس». وقد أتينا على شرحها والسَّبب في وقوعها، وما كان في ذلك من الخلاف والمناظرات بينهم، وأخبار أصحاب الكراسي الذين

---

(١) - في مروج الذهب: سنودس.

هم البطاركة أحدهم بطريرك، ومراتبهم وتسميتهم وأعدادها إلى هذا الوقت المؤرّخ به كتابُنا ممّن كان منهم بمدينة رومية والإسكندرية من بلاد مصر وأنطاكية والقسطنطينية وإيليا، في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وفي كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» وإن كانت أسماؤهم مُثبتةً في الدِبْطخة التي تقرؤها النصارى في القُدّاس، وذكرنا أسماء الاثني عشر والسبعين تلاميذ المسيح وتفرقُّهم في البلاد وأخبارهم وما كان منهم ومواضع قبورهم، وأنّ أصحاب الأناجيل الأربعة منهم يوحنا ومتّى من الاثني عشر ولوقا ومرقس من السبعين، وأن مرقسَ صاحب الإسكندريّة ومَنْ بعده من البطاركة على هذا الكرسيّ الحكّامُ على سائر أصحاب الكراسيّ في كلِّ ما يختلفون فيه، والقضاةُ عليهم إذا تنازعوا، ومتى اجتمعوا في محفلٍ جلسوا حُسَّراً وصاحبُ هذا الكرسيّ بعمامة إذ كان خليفةَ بُطْرُس، وأنّ السبب في ذلك أنّ بطرس لَمّا دعا التلاميذ إلى أن يسيرَ بعضُهم إلى الإسكندريّة بالإنجيل الذّي كتبه ويدعو الناس جزعوا من ذلك لأجل من كان بها من الصّابئين والقاطرين، أحدهم قاطر، ويسمى بالقبطيّة

هيراتقس وهم الكهنة، وأنّ مرقس انتُدِبَ لذلك وكان أصغرَ القوم سِنّاً فناوله بطرس الإنجيل ومحا اسمه منه وأثبت فيه اسم مرقس، وقال له: قد جعلناك الحاكمَ عليهم فيما تنازعوا فيه وغير ذلك من أسرار دين النصرانية، وأخبارهم من السليحين وغيرهم ممّا هو موجود في الكتاب المعروف بيركسيس، وفي كتاب ديونوسيوس «الفلوباخيطوا» في أسرارهم أيضاً، وفي كتاب قليمنس وكان تلميذاً لبطرس.

ورأيت كثيراً من النّصارى يقف في هذا الكتاب، ويدفع أَنْ يكونَ صحيحاً، وفي الأربعَ عَشْرة رسالة لبولس التي كتب بها في أوقات متفرّقة إلى أهل رومية وغيرهم، وتُدعى هذه الرسائل كتاب السليخ. وذكرنا في كتاب «المقالات، في أصول الديانات» وكتاب «خزائن الدين وسرّ العالمين» أقاويل الأمم في العوالم الأربعة: في عالم الربوبيّة، وعالم العقل، وعالم النفس، وعالم الطبيعة، ومراتب الروحانيّة، والجواهر العلويّة، والأجسام السمائيّة، وسائر الوسائط، والفرق بين النّار والنور ومراتب الأنوار، وما قاله كلٌّ فريق منهم في ذلك

من الهند، وقدماء الفلكيّين، وأصحاب الاثنين ومَنْ وافقهم من أصحاب التأويل في هذا الوقت، والحنفاء والكدانيّين، وهم البابليّون الذين بَقيتُّهُم في هذا الوقت بالبطائح بين واسط والبصرة في قَرايا[1] هناك، وتوجُّههم في صلاتهم إلى القُطْب الشماليّ والجَدْي.

والشُّمنيَّة وهم صابئة الصين وغيرهم على مذاهب بوداسب وعوامّ اليونانيين وتوجُّههم في صلاتهم إلى المشرق، وصابئة المصريين الذين بقيّتُهم في هذا الوقت صابئو الحرّانيين وتوجّههم في صلاتهم إلى التيمن وهو القِبْلة، واستدبارهم الشّمال، وامتناعهم من كثيرٍ من المآكل التي كان صابئة اليونانيين يأكلونها كلحم الخنزير، والفراخ، والثوم، والباقِلّى، وغير ذلك وقولهم بنبوّة أغاثديمون، وهرمس، وأميروس وأراطس صاحب كتاب صورة الفلك والكواكب وغير ذلك وأريباسيس وأراني الأوّل والثاني وغيرهم وأسرارهم في الذبائح والصّلوات للكواكب السبعة وغيرها

(١) - جمع قرية: قرى، والعامّة تقول قرايا.

والقُوفات، وهي: الدّخن للكواكب، وتمثيلهم مراتب الكَهنوُت في هياكلهم بما علا من الروحانيّة وتسميتهم أعلى الكهنة رأس كمرين، وما يذهبون إليه من قول أفلاطون: «إنَّ مَنْ عرف نَفْسَهُ حقيقةَ المعرفة تَألّه» ومن قول صاحب المنطق: «مَنْ عَرفَ نَفْسَهُ فقد عرف بها كلّ شيء»

وما جرى بين فرفريوس الصُّوريّ صاحب كتاب ايساغوجي في المدخل إلى كتاب أرسطاطاليس في المنطق؛ وكان نصرانياً ينصرُ مذاهبَ صابئة اليونانيين مُخفياً لذلك، وبين أنابوا الكاهن المصريّ، وكان ينصرُ الفلسفة الأولى التي كان عليها فوثاغورس، وثاليس الملطيّ وغيرهما وهي مذهب صابئة المصريّين من المسائل والجوابات في العلوم الإلهية، وذلك في رسائلَ بينهم معروفة عند من عُني بعلوم الأوائل وما كانوا عليه من الآراء والنّحل.

وقد صُنّف على مذاهب الفوثاغوريين والانتصار لهم كتبٌ كثيرة، وآخرُ مَنْ صنّفَ في ذلك أبو بكر محمد بن زكرياء الرازيّ -صاحب كتاب المنصوري في الطبّ وغيره- كتاباً في ثلاث مقالات وذلك بعد سنة ٣١٠.

وقد ذكر أفلاطون ترتيبَ العوالم في كتابه المعروف بطيماوس فيما بعد الطبيعة، وهو ثلاث مقالات إلى تلميذه طيماوس ممّا ترجمه يحيى بنُ البطريق وهو غير كتابه طيماوس الطبيّ الذي ذكر فيه كونَ العالم الطبيعيّ، وما فيه، والهيئات والألوان وتراكيبها واختلافها وغير ذلك شرحه جالينوس وفسّره حنينُ بن إسحاق، وذكر بأنه سقط عنه منه كرّاستان: الأولى والثانية، والذي حصل من ترجمته أربع مقالات.

ذكر أرسطاطاليس ترتيبَ العوالم في كتابه فيما بعدَ الطبيعة في الحرف المعروف باللام وغيره من الأحرف فيما فسره طامستيوس، وترجمه إلى العربيّ إسحاق بن حنين.

وذكرنا فيما سلف من كتبنا ما ذهب إليه النّصارى من أن الباريء عزّ وجلّ خلق في الابتداء جنسَ الملائكة المقرّبين روحانيّين ذوي جواهر بسائط أحياء ناطقة، ليمجّدوه من غير حاجة منه عز وجل إلى ذلك، وأنَّه تعالى جعلهم منقسمين لطبقات تسع، وعلى طبقاتٍ بعضها أعلى من بعض، واسم

جملة الروحانيّين بالسريانية، وهو اللسان الأول «طُغَم» وبالرومية «طغماتس» وبالعربية «تغم».

والكنيسة عندهم كنيسةُ السماء ومراتب الكهنوت على مقدار طُغمات الملائكة، وهي تسع، فالطُّغْمة الأولى عندهم طُغْمَةُ البطارقة ثم ما يلي ذلك من مراتب الكهنة.

وذكرنا مذاهبَ الصابئين في ذلك وأنّهم يرون أنّ هذه المراتب علي ترتيب الأفلاك التسعة، وكذلك مذاهب أصحاب الاثنين في ذلك قبل ظهور ماني، وأسماء كلّ فرقة منهم، وما رتّب لها من ذوي الرئاسات الديانيّة تشبيهاً بما علا من الجواهر العلويّة والأجسام السمائيّة.

قال المسعوديّ: فلنرجع الآن إلى سياقة الملوك على الترتيب.

الرابع والعشرون: قسطا بن قسطنطين، ملك خمس عشرة سنةً، وذلك في خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام وصدراً من أيام معاوية بن أبي سفيان.

الخامس والعشرون: هرقليانس بن قسطنطين، وهو هرقل الأصغر وقيل: إنّ جدّه هرقلُ الأكبرُ ملك أربع سنين وثلاثة أشهر في أيام معاوية.

السادس والعشرون: قسطنطين بن قسطا، ملك ثلاث عشرة سنة، بقيّة أيام معاوية، وأيام يزيد، ومروان بن الحكم، وصدراً من أيام عبد الملك بن مروان.

السابع والعشرون: أسطنيانس المعروف بالأخرم، ملك تسع سنين في أيام عبد الملك، ثم خُلع وخُرِم أنفُهُ وقُطع عرقٌ تحتَ لسانه ليخرسَ، فَسلِمَ من ذلك وحُمِل إلى بعض الجزائر، فهرب ولحق بملك الخزر مستنجداً به، وتزوّج هناك فلم يَرَ عندهم ما يُحِبّ، فصار إلى طرفلا ملك بُرْجان.

الثامن والعشرون: أولنطس وقيل: لونطس، ملك ثلاث سنين في أيام عبد الملك ثم زهد في الملك وأظهر العجز عنه؛ فلحق بالدير فترهّب.

التاسع والعشرون: أبسيمر المعروف بالطرسوسيّ، ملك سبعَ سنين في أيام عبد الملك، فسار أسطنيانس الأخرم

ومعه طرفلا ملك برجان منجداً له في جيوش كثيفة، فكانت له مع أبسيمر حروبٌ يطول شرحُها قد ذكرناها في كتاب «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة» فغلب أسطنيانس على الملك وخلع أبسيمر، وكان ذلك في السنة الأولى من مُلْك الوليد بن عبد الملك واستوى الأمر له.

الملك الثاني: وهو الثّلاثون من ملوكهم، وقد كان شرط لطرفلا ملك برجان إذا رجع الملك إليه أن يحمل إليه في كلّ سنة خراجاً، وكان يفعل ذلك واشتدّ عسفهُ للروم، وبسط يده في القتل فيهم وأبادَ كثيراً من رؤسائهم وبطارقتهم؛ فأجمعوا على قتله فقتلوه، فكان ملكه الثاني سنتين ونصفاً.

الحادي والثّلاثون: فيلبّقوس ملك سنتين وستّة أشهر بقيّة أيامِ الوليد وهَلَكَ في أوّل سنة من ملك سليمان بن عبد الملك.

الثاني والثلاثون: نسطاط بن فيلبّقوس ملك ثلاثة أشهر على تَحزُّب كثير، واختلاف كلمة ثم خُلع ونُفي.

الثالث والثلاثون: تيدوس المعروف بالأرمني كان ملكه في السنة التي بويع فيها سليمانُ بنُ عبد الملك، فبعث إليه سليمان أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية براً وبحراً وذلك في سنة ٩٧ وكان في مئة ألف وعشرين ألف مقاتل، وكان على أسطول المسلمين في البحر عمرُ بنُ هبيرة الفزاريّ فانضمَّ إلى مَسْلَمة بطريقٌ يُعرف بأليون بن قسطنطين المرعشي وضمن له أن يناصِحَهُ على أهل القسطنطينية، فركن مَسْلَمةُ إلى ذلك، وعبرَ الخليج وحصر القسطنطينية فوجَّه أهلُها إلى مسلمة يبذلون الفِدْية فأبى فمكرَ به أليون واستأذنه في مكاتبة رؤساء الروم والتوسُّط بينه وبينهم فكاتبهم وسار إليهم، فخلا بالبطريرك صاحب كرسيّ القسطنطينية، ورئيس الديانة وسائر البطارقة أصحاب السيوف وولاة الأعمال فدعاهم إلى أن يُملّكوه عليهم؛ ليقومَ بأمرهم ويصرفَ مسلمةَ عنهم، وذكر لهم ضعف تيدوس ملكهم عن مقاومته، فأجابوه إلى ذلك وعاد إلى مسلمة فاخبره أنهم قد دخلوا في طاعته وسأله التبعُّد عنهم قليلاً وتركَ حصارهم؛ ليطمئنُّوا إليه ففعل ذلك، فدخل أليون القسطنطينية فملك ونَصَب التّاج على رأسه، فأمر بنقل

ما كان مسلمة أعدّه من الأقوات لعسكره فأدخل القسطنطينيّة، وبلغ مسلمة ذلك فعلم أنه ممكور به فرجع إلى حصارهم، وعاودهم الحرب وعظُم البلاء على مَنْ مع مَسْلمة لذهاب أقواتهم. ووَلّي عمر بن عبد العزيز على تلك الحال، فكتب إلى مسلمة يأمره بالقفول واستحثّه على ذلك، فقفل بعد كُرهٍ شديد وخطبٍ طويل، وذلك في سنة ١٠٠ وقد أتينا على شرح هذه الحروب وما كان فيها من الحِيَل والمكايد في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدُّهور السَّوالف».

الرابع والثلاثون: أليون بن قسطنطين ملك ستّاً وعشرين سنةً بقيّة أيام سليمان بن عبد الملك، وأيام عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام، وهلك في السنة التي بويع فيها الوليد بن يزيد.

الخامس والثلاثون: قسطنطين بن أليون ملك إحدى وعشرين سنة أيّام الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، ومروان ابن محمد، وأبي العباس السفاح، وعشر سنين من خلافة المنصور.

السادس والثلاثون: أليون بن قسطنطين ملك سبعَ عَشْرةَ سنة وأربعة أشهر؛ بقيّة أيام المنصور، وخمس سنين من خلافة المهديّ.

السابع والثلاثون: ريني امرأة أليون بن قسطنطين وتفسير «ريني» صلاح، ثم لُقِّبت بعدَ ذلك أُغسطة، وملك معها ابنُها قسطنطين بن أليون فلم يزالا ملكين بقيّةَ أيّام المهديّ، وأيّام الهادي، وصدراً من خلافة الرشيد.

وكانت هي تُمضي الأمور والاسم لابنها، وكانت كالمهادِنة للمهديّ والهادي والرشيد، فلمّا نشأ ابنها أفسد وتعدّى وطغى ونابذ الرشيد ونقض ما كان بينهم من الصلح، فغزاه الرشيد وأوقع به فهرب فكاد أن يُؤخذ، فلّما صار إلى قراره خافت أمه أن يَكُرَّ عليهم الرشيد. وكان طغيانُ ابنها وقبحُ سياسته قد ظهر في رعيّته حتّى سبُّوه وأنكروه، فاحتالت عليه أمه ليبقى مُلكُها عليها؛ فأمرت بمرآة فأُحميت في حال نومه، ثم أنبهته وقابلته بالمرآة ففتح عينيه على غِرّة فذهب بَصَرُه.

وكان مدّةُ مُلْكه مع أمه سبع عشرة سنة، وتفرّدت بالأمر خمسَ سنين وذلك في أيام الرشيد، وهادنت الرّشيد وحملت إليه الأتاوة فتطرّق بذلك عليها نقفور، فأُعين وعُوضِدَ حتى خُلِعت وانتزع الملكُ منها وذلك في سنة١٨٧ وهي في بلاط بَنَتْهُ بالقسطنطينية يعرف بالأبتارو إلى هذا الوقت؛ ولغشيطها الياطس؛ وكان ذا رأيٍ وحزمٍ وسياسة. والبلاطُ: القصر، وفي هذا البلاط مينا عليه سلسلة فيه ينزل رُسُل العرب إذا قدموا للفداء.

الثامن والثلاثون: نَقْفُورُ بن استَبْراق ملك سبع سنين وثلاثة أشهر في أيام الرشيد، وهلك في أوّل خلافة الأمين وقيل: إنّه كان من ولَد جفنة من غسان ممّن تَنصرَّ آباؤه وقيل: بل من ولد مُتَنصِّرة إياد الذين دخلوا في أرض الروم من بلاد الجزيرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وبايع لابنه استَبْراق بالملك بعده ولم يُعْهَد هذا فيمن سَلَفَ من ملوك الروم، وكانت كُتُبه تَصْدُرُ من نقفور واستبراق ملكَي الروم. وكانت ملوكُ الروم قبله تَحلقُ لحاها، وكذلك ملوكُ الفرس

لأمورٍ قد ذكرناها في غيرِ هذا الكتاب فأبى ذلك نَقْفُور، وقال هذا تغييرٌ لِخَلْقِ البارئ سبحانه. وكانت مرتَبَتُهُ قبلَ أن يليَ الملك لغثيط وهي ولاية ديوان الخراج.

وكانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النّصرانية، فغيرّ ذلك نَقْفُور، وكتب ملك الروم، وقال: هذا كَذِبٌ ليس أنا ملك النصرانية، أنا ملكُ الروم والملوك لا تكذب، وأنكر على الروم تسميتهم العرب «ساراقينوس» تفسير ذلك: عبيدُ سارة طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وأنّها كانت أَمةً لِسارة وقال: تسميتُهم عبيد سارة كذب، والروم إلى هذا الوقت تُسمِّي العربَ ساراقينوس.

وكان مقتل نَقْفُور في حربٍ كانت بينه وبين برجان في سنة ١٩٣، وقد أتينا على أخباره مع الرشيد، وحروبه لبرجان وقتلهم إياه وغير ذلك من أخبار في كتاب «مروج الذهب، ومعادن الجوهر»

التاسع والثلاثون: إستَبْراق بن نقفور بن إستَبْراق ملك شهرين.

الأربعون: ميخائيل بن جورجس وكان ابن عم نقفور وصهره ملك سنتين في أيام الأمين وقيل: أكثر من ذلك، فوثب به أليون المعروف بالبطريق وغلب على الأمر وأقام ميخائيل قبله مخفياً أمره، وأشاع هُلْكَهُ بعد أن ناله بأنواع المكاره.

الحادي والأربعون: أليون المعروف بالبطريق، ملك سبع سنين وثلاثة أشهر وذلك بقيّة أيام الأمين؛ وصدراً من خلافة المأمون، فاحتال صنائع ميخائيل فاستخلصوه، فوثب بأليون وهو مُغْتَرٌّ، فقتله، وعاد الملك إليه، وقيل إنه في حال غلبة.. أليون على الأمر تَرهَّب.

الثاني والأربعون: ميخائيل بن جورجس الملك الثاني تسعَ سنين في أيام المأمون وقيل: أكثر من ذلك. وقد أتينا على خبره وما كان من أمره، وعَوْده إلى المُلْك ثانيةً في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

الثالث والأربعون: توفيل بن ميخائيل ملك أربع عشرة سنة بقيّة أيام المأمون، وأيام المعتصم، وصدراً من أيام الواثق، وهو الذي فتح مدينة زبطرة من الثغور الجزرية؛ فخرج المعتصم

نافراً غازياً حتى نزل على عَمُّورِيّة فافتتحها وذلك في سنة ٢٢٣ . وكان دخوله من الثغور الشأمية، ودخل الأفشين خَيْذَر بن كاوس الأشروسني فيمن كان معه من الأولياء، وعُمر بنُ عبيد اللّه بن مروان الأقطع السُّلَمي صاحب مَلَطْيَة من الثغور الجَزْرية فلقيهم الملك تُوفيل بن ميخائيل، فكانت بينهم حروبٌ عظيمة؛ فانكشف الملك وحماه من كان معه من المحمّرة والخُرَّميّة، ممّن كان استأمن إليه من ناحية آذربيجان والجبال لَمَّا واقعهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الطاهري وكانوا ألوفاً، ولحق الأفشين بالمعتصم، فنزل معه على عمورية وفي ذلك يقول الحسين بن الضحاك الخليع الباهلي في قصيدةٍ طويلة يمدح أبا الحسن الأفشين .

أثبتَ المعصومُ عِزاً لأَبي ... حَسَنٍ أثبتَ من رُكنِ إِضَمْ
كلُّ مجدٍ دونَ ما أثَّله ... لبني كاوُسَ أملاكِ العَجَمْ
لم يَدَعْ بالبذِّ من ساكنة ... غيرَ أمثالٍ كأمثالِ إِرَمْ
وقرَى تَوْفيلَ طَعْناً صادقاً ... فَضَّ جَمْعَيه جميعاً وهَزَمْ

وقد ذكره أبو تمّام في قصيدته التي مدح بها المعتصم، وذكر فتح عَمُّوريّة التي أولها:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ

في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

وقال:

لما رأى الحربَ رأيَ العينَ تَوْفلسُ

والحرْبُ مشتقَّةُ المعنى من الحَرَبِ

وقال الحسينُ بن الضحَّاك أيضاً في كلمةٍ له طويلةٍ يُخاطب المعتصم:

لم تُبْقِ من أنقرةٍ نَقْرَةً واجتحتَ عَمُّوريَّة الكبرى

إن يشكُ تُوَفْيلُ بتاريخه فَحقٌّ أن يُعذَرَ بالشكوى

وقال:

تفنى بنو العيص وأيامُهم وذكْرُ أيَّامك لا يفنى

يارب قد أملكتَ من بابكٍ فاجعلْ لِتَوْفيلهِمُ العُقْبى

وإنَّما ذكرنا هذه الشواهد لأنَّ فريقاً ممّن لا علم له بسير الملوك وأيامهم ذهبوا إلى أنّ المواقع للأفشين، والذي فُتحت

عمورية الكبرى في أيّامه هو نقفور الذي كان في أيام الرشيد، وما ذكرنا أشهر وأوضح إذ كان من الكوائن التي يشترك الناس في علمها بسبب شهرتها، واستفاضة أنبائها، ولكن الحاجة دعت إلى الاستشهاد.

الرابع الأربعون: ميخائيل بن توفيل ملك ثمانياً وعشرين سنة بقية أيّام الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين، وكانت أمّه تدورة تدبّر الملكَ معه، ثم أراد قتلَها لأمرٍ كان منها، فهربت ولحقت بالدير فترهّبت. ، نازعه في الملك رجل من أهل عَمُّورِيّة من أبناء الملوك السالفة يُعرف بابن بقراط؛ فلقيه ميخائيل وقد أخرج من في سجونه من المسلمين للقتال معه، وقَوّاهم بالخيل والسلاح؛ فظفر بابن بقراط فشوّه بخلقه، ولم يقتله؛ لأنه لم يلبس ثياب الفِرْفير[1] والخفّ الأحمر، وقتل ميخائيلَ بسيلُ الصقلبيّ جدّ قسطنطين بن لاون ابن بسيل الملك على الروم في هذا الوقت المؤرّخ به كتابُنا

(١) – الفرفير، والبرفير: ثياب أرجوانية ركبت ألوانها من الأحمر والأزرق (فارسية).

وهو سنة ٣٤٥ في خلافة المطيع، وكان قتله إيّاه في سنة ٢٥٣ في خلافة المعتزّ وقيل في سنة ٢٥٢ .

الخامس والأربعون: بسيل الصقلبيّ ملك عشرين سنة أيام المعتزّ والمهتدي وصدراً من خلافة المعتمد وكانت أمه صقلبية؛ فنسب إليها فقيل الصقلبيّ.

قال المسعوديّ: وقد أتينا على خبره وبدء أمره وخروجه من بلده وهو بند تراقية إلى القسطنطينية ملتمساً للرزق طالباً للمعاش وما كان عليه من الشدّة والشجاعة والهمّة والمعرفة بأمور الخيل، وكيف اتّصاله بميخائيل بن توفيل إلى أن صار المدبّر لخيله وانتقاله في المراتب إلى أن سُمّي «براكنميس» تفسير ذلك المدبّر للمُلْك وقيل: إنّ توفيل استحضره لما نُميَ إليه خبرُهُ وخبر الامرأتين اللّتين تزوّج الملك بإحداهما وزوّجَه الأخرى إذْ كانت شريعتُهم تمنعُ من الجمع بينهما، وكان الملك يختلفُ إليهما، وما توجّه لبسيل عليه من الحيلة حتى قتله وصفا له الملك وغير ذلك من أحواله في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف»

السادس والأربعون: أليون بن بسيل ملك ستاً وعشرين سنةً بقيةَ أيام المعتمد والمعتضد والمكتفي وصدراً من أيام المقتدر، وقيل: إنّ وفاته كانت في سنة ٢٩٧.

السّابع والأربعون: أخوه الاكصندرس بن بسيل ملك سنةً، وقيل: أكثر من ذلك وقيل: إنّه اغتيلَ لِسوء سيرته وقُبْحِ سياسته.

الثامن والأربعون: قسطنطين بن لاون بن بسيل ملك وله نحوٌ من ستّ سنين وقيل: أكثر من ذلك في سنة ٣٠١ وغلب على أمره بطريقُ البحر وصاحب مغازيه رومانوس فقام بأمر الملك وشرط على نفسه شروطاً منها أنه لا يطلب الملك ولا يريده، ولا يَتَسمّى به ولا أحد من ولده.

وأقام على ذلك نحواً من سنتين. ومن رسوم ملوك الروم ألاّ يجلسَ معهم في مجلسهم أحدٌ، ولا يلبسَ خُفّين أحمرين غيرهم، فجعل لأرمانوس أن يجلس معه، ويلبس خفاً أحمرَ، والآخر أسود، ثم نقض الشروط وسمّى نفسه ملكاً، ولبس التّاج والثيابَ الفيرفير التي لا يلبسها إلاّ الملوك وخُفّين أحمرين، وحجر على قسطنطين.

ونشأ لأرمانوس أربعةُ أولاد فخصى الأوسط واسمه توفيلقطس، وجعله خادماً للكنيسة فلما كبر وبلغ مبلغَ الرجال جعله بطريرخاً[1] وهو ملك الدين والقيّم به كما أنّ الملكَ صاحبُ السيف، فهو صاحبُ كرسيّ القسطنطينية إلى هذا الوقت المؤرّخ به كتابنا وصاحبُ الكرسيّ هو شريك الملك ليس يساوي الملك في الخَلْق أحدٌ إلاّ هو. ولا يكفّر الملك إلاّ له، وإذا جلس الملكُ جلس على كرسيٍّ من ذهب، وجلس البطريرخ على كرسيٍّ من حديد. فما كان من نفقات الحرب وجباية الخراج وإعطاء الجند فهو إلى الملك، وما كان من أموال الاحباس والوقوف لنفقات الكنائس، والدّيرَة والأساقفة والرهبان وما أشبه ذلك من أمر دينهم فهو إلى البطريرك، وله في كلّ بندٍ عاملٌ مثل عامل الملك، والبطريرك لا يأكلُ اللحمَ، ولا يطأ النساء ولا يتقلّد السيف، ولا يركبُ الخيل وإذا أراد أن يركبَ ركب حماراً وحوّل رجليه على جانب مثلَ ركوب النساء.

---

(١) - كذا وردت في الطبعة الأوربيّة، وفي نسخة أخرى بتركاً. وأحسبه تصحيف لكلمة بطريرك.

وكـان أولادُ أرمـانوس البـاقـون أخـر صطفـورس، واصطفن، وقسطنطين وكانوا جميعاً يخاطَبون بالملك وزوّج أرمانوس ابنته «النا» بقسطنطين فكانت تخاطَب بالملكة أيضاً.

وَوُلد لقسطنطين الملك منها ولدٌ سمّاه أرمانوس فهوولِيّ عـهـده والمرشح للملك بعـدَه في هذا الوقت، وهلك اخـر صطفـورس وبقي أخـواه قسطنطين واصطفن فلم يزل الأمـر على ذلك إلى نحوٍ من سنة ٣٣٠ للهجرة فواطأ ابنا أرمانوس قسطنطين بن لاون على إزالة ابيهم أرمانوس عن الملك لِيصفُو لهم الأمـر فـدخلوا عليـه في بعض الأيام في عِدَّة من النَّاس فقبضوا عليه وأنفذوه إلى دير كان بناه في الجزائر بالقرب من القسطنطينيّة وأقام ولداه مع قسطنطين نحواً من أربعين يوماً، وعملا على الفتك به والاستيلاء على الملك، ونُذِرَ بما دبَّراه؛ فسبقهما إلى ذلك فأحضرهما طعامه وقد أَعَدَّ لهما عِدَّةً من خواصه فقبض عليهما ونفاهما إلى جزيرتين في البحـر منفردتين، ففتك أحدهما وهو قسطنطين بالموكَّلِ به، ورام من أصحابه وأهل الجزيرة طاعته فقتلوه، وحملوا رأسه إلى الملك

قسطنطين؛ فأظهر الجزع عليه، وتوفي أرمانوس بعد أربع سنين من ترهبُّه وبقي أصطفن في هذه الجزيرة إلى هذا الوقت على ما يُنمَى إلينا من أخبارهم ونحن بفسطاط مصر ممَّن يَرِدُ في المراكب من القسطنطينية من التُجَّار والرسُل إلى السلطان بها، وصفا الملك لقسطنطين فبقي في الملك بقيَّةَ أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي وإلى هذا الوقت من خلافة المطيع.

قال المسعوديُّ: وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» خبرَ من خرج عليه من الخوارج، ونازعه في الملك قبل استيلاء أرمانوس عليه وقيامه به كقسطنطين بن أندرونقس الملقّب بدوقاس، وكان أبوه اندرونقس استأمن إلى المكتفي من ناحية طرسوس، وكان صاحب جيش اليون ملك الروم وصار إلى مدينة السلام في سنة ٢٩٤ وأسلم على يد المكتفي ثم هلك؛ فهرب ابنه هذا على طريق الجبل وأرمينية وآذربيجان فكثر أتباعه والمعاضدون له وصار إلى القسطنطينية ونازع قسطنطين بن أليون على

الملك، وكاد أن يتمّ له، ثمّ وثب به صنائع قسطنطين فقتلوه وذلك في سنة ٣٠١ وكقرقاس أخي الدمستق بارزوس بن الفقاس المساجل في هذا الوقت لأبي الحسن عليّ بن عبد الله ابن حمدان بن حمدون بن الحارث العدويّ، عديّ بن أسامة ابن مالك بن بكر بن حبيب بن عمر بن غنم بن تغلب صاحب جند حمص، وجند قنسرين، والثغور الشأمية والجزيرة وديار مضر، وديار بكر، والمواقع له مرّة بعد أخرى، وكان قرقاس طلب الملكَ، وطمع فيه فقُبِضَ عليه وسُمِل.

وقد أتينا على سيرَ هؤلاء وأخبارهم وحروبهم مع سائر الأمم، وما بنواً من المدن وكَوّروا من الكُوَر، وشيّدوا من الهياكل -حين كانوا على الحنيفية[1]- والكنائس حين دانوا بالنّصرانية، وما كان من الكوائن والأحداث في أيامهم ودياناتهم ووجوه سياساتهم إلى هذا الوقت، والتنازع في أعدادهم وما ملكوا من السنين، وما كان بينهم وبين ملوك

(١) - الحنيف: هو الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق، وقيل: هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم، وكل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو فهو حنيف، ومنه الحنيفية.

الفرس وغيرهم من الأمم من الحروب والوقائع والزحوف والحيل والمكايد، وما كان بينهم وبين خلفاء المسلمين، وملوكهم من المغازي والوقائع المشهورة في البرّ والبحر، وأخبار الرسل، والوفود بينهم والمهادنات والأفدية وغير ذلك، والتنازع في أنساب الروم وما قيل في ذلك، وما يذهب إليه بعضُ ذوي المعرفة منهم والدراية في هذا الوقت أنَّهم وَلَدُ رومي بن لنطى بن يونان بن نويه بن سرجون بن بزنط بن توفيل ابن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم فسمُّوا باسم جَدِّهم وأضيفوا إليه.

ومن قال منهم: إنهم من ولد روم بن سملاحين بن هريا ابن علقا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وغير ذلك من الأقاويل في كتاب «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة»، وفي الكتاب الأوسط، وفي النسخة الأخيرة من كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» التي قرّرنا أمرها في هذا الوقت المؤرّخ به كتابنا وهي أضعاف ما تقدّم من النسخ وفي كتاب «فنون

المعارف، وما جرى في الدهور السوالف»، وفي كتاب ذخائر العلوم، وفي كتاب (الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار) الذي كتابنا هذا تالٍ له ومبنيٌّ عليه وقد خصَصْنا كلَّ كتابٍ منها من أخبارهم بما لم نَخْصُصْ به الآخر إلاّ مالا يَسعَ تركُه، وإنَّما ذكرنا في هذا الكتاب جُمَلاً وجوامع استذكاراً لما تَقدَّم.

وقد قدَّمنا في أول أخبار الروم من هذا الكتاب أنَّ عِدَّةَ ملوك الروم ثمانيةٌ وسبعون مَلِكاً من الصابئين والمتنصّرة قبلَ الإسلام وبعده، وأنَّ مُدَّةَ سنيهِم إلى مُلْكِ قسطنطين هذا تسعمئة سنة وستٌّ وستون سنة وشهر، وفَصَّلْنا ما ملكه الصابئون والمتنصّرة.

فإذْ قد ذكرنا الروم وأنسابهَم، وتأريخ سنيّهم، وطبقات ملوكهم إلى وقتنا هذا. فلْنذكرِ الآن حدودَ بلادهم، وبنودهم، وما يتَّصلُ منها بالبحار وما لا يتَّصِل.

* * *

ذكر بنود الروم

وحدودها ومقاديرها، وما يتصل منها بالخليج، وبحر الروم والخزر وما اتصل بذلك من اللّمع المنبهّة على ما تقدّم من تأليفنا فيما سلف من كتبنا

أرض الروم أرضٌ واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب، مقسومة في قديم الزمان على أربعة عشر قسماً: أعمال مفردة، تُسمّى البنود كما يقال: أجنادُ الشام؛ كجند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قِنّسرين. غيرَ أنّ بنودَ الروم أوسعُ من هذه الأجناد وأطولُ.

والروم يُسمُّون بلادَهم أرمانيا، ويُسمُّون البلادَ التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشأم والعراق سُوريّا.

والفرسُ إلى هذا الوقت تقاربُ الروم في هذه التسمية .

فيسمُّون العراق والجزيرة والشأم «سورستان» إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون ويسمون سريان ولغتهم سورية وتُسمِّيهم العرب النبط .

فالبندُ الأوّل : يسمّى «الافتى ماتى» تفسير ذلك الأذن والعين وهو «بند الناطليق» أعظم بنود الروم فيه عَمُّوريّة ، أولّهُ ممّا يلي بلادَ الإسلام من الثغور الشامية حصنُ هِرَقْلة ، وأولّ عَمَلٍ الناطليق رستاقٌ يُعرف بِغُصْطُوبُلي ، وفيه يقوم سوقُ البَخُور وهو سوقٌ يقومُ في السنة مرّةً .

البند الثاني : «بند الأبسيق» فيه مدينة نيقية ، أَولُّ عملِ هذا البند غُصْطُوبُلي ، وآخره خليج القسطنطينية فهذان البندان من دار الإسلام إلى خليج القسطنطينيّة في الطول يكون أميالاً أربعمئة ميل وأربعة وثلاثين ميلاً .

البند الثالث : «يسرة الناطليق» ويعرف «بترقسين» وهو بند أفسيس مدينة أصحاب الكهف ومدينة زمرنى ، أخرج هذا البندعِدّةً من الحكماء في سالف الزمان فلاسفة وأطباء ، فمن

الأطباء: روفسُ الأفسيسيُّ له مصنّفات كثيرةٌ في الطبّ، وجالينوس يُمدحه في كثيرٍ من كتبه ويذمُّ روفسَ الحينيطيّ، وهذا البند متّصل ببحر الروم والشأم.

البند الرابع: «بند بنطيليا» وهي «دقابلي» يتّصل بالبحر الرومي أيضاً، وفي آخر هذا البند عملُ سلوقية وحصنُ بوقية واللاّمس، الذي يكون فيه الفداءُ بين المسلمين والروم ومنه إلى طرسوس خمسة وثلاثون ميلاً، وهو بندٌ ضيّقٌ، وحروب المسلمين عليه براً وبحراً. فهذان البندان متّصلان من دار الإسلام على البحر الرومي إلى خليج القسطنطينية أيضاً يكون طولُهما ثلاثمئة ميل وخمسة وستين ميلاً.

البند الخامس: «بند القباذق» وهو يَمْنَةُ عَمُّوريّة فيه قُرّةُ، وحصنُ يدقسي وحصنُ سلندو وذو الكلاع -واسمه بالرومية كوبسطرة- وقونية ووادي سالمون ووادي طامسة، وأول عمل هذا البند مما يلي الثغور الشأمية مطمورة تُعرف بماجدة من قلعة لؤلؤة على نحو عشرين ميلاً وآخره نهر آلس وتفسير «آلس» بالعربية: نهر الملح وهو نهر مقلوب يجري مما يلي الجنوب

مستقبلاً للشمال كنيل مصر ومهران السند، ونهر أنطاكية المعروف بالأُرُنْط، وما عدا ذلك من الأنهار الكبار فمصبُّها كلُّها من الشمال إلى ناحية الجنوب لارتفاع الشّمال على الجنوب، وكثرة مياهه وقد أتينا على عِلَّة ذلك فيما سمّينا من كتبنا.

البند السادس: «بند البقلاَّر» وهو بند عمل أنِقرة وأول عمل أنقرة نهر آلس وهو آخر عمل القباذق وآخر عمل البقلاّر بحر الخزر الذي هو بحر مايطس فهذان البندان متّصلان من دار الإسلام إلى بحر الخزر في الطول يكون أميالاً أربعمئة ميل وخمسة وأربعين ميلاً، وليس للروم أطول من بند البقلاّر هذا، ولا أكثر رَجّاله منه.

البند السابع: «بند الأفطماط» وهو عمل نقُمُودية، وهو بندٌ مُربَّع بين البقلاّر والأبسيق وآخر عمل هذا البند خليجُ القسطنطينية، وعرض الخليج هناك ميلٌ ويُسمّى ذلك الموضع إلى هذا الوقت أقروبلي. وقد قدّمنا صِفَةَ ذلك فيما سلف من هذا الكتاب في ملك قسطنطين بن هيلاني عند ذكر بنائه القسطنطينية، ووصف خليجها والعدَوات الستّ التي عليه.

البند الثامن: «بند الأرمنياق» يَمْنَةَ البقلارّ؛ وهو عملُ ماسية، وفي طَرَفِ هذا البند عملُ خَرْشَنَة، وآخره بحرُ مايطس الذي يسمّيه كثيرٌ من الناس بحرَ الخزر وإنّما هو متّصل به لأنّ بحرَ الخزر هو الذي عليه دُور الأعاجم كالباب والأبواب وموقان والجيل والديلم، وآبسكون ساحل جرجان؛ والهمّ[1] ساحل آمل قصبة طبرستان على ما قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند إخبارنا عن البحار وترتيبها، وما يصبُّ إليها من كبار الأنهار.

البند التاسع: «بند فلاغونية» وهويَمْنَةُ الأرميناق، وفي طرفه عمل قلونية، فهذه تسعة بنود دون الخليج مما يلي الثغور الشأميّة والجزريّة وغيرها من بلاد الإسلام.

والخمسةُ الباقية من البنود وراء الخليج متّصلة بالقسطنطينية وهي «بند طابلا» ومنه القسطنطينية حَدُّه من جهة المشرق الخليجُ الآخذ من بحر الخزر إلى بحر الشأم ومن القبلة بحر الشأم، ومن المغرب سُورٌ ممدودٌ من بحر الشأم إلى بحر

(١) - في بعض النسخ والِيهم. والكلمة غير مفهومة في سياقها.

الخزر يُسمّى «مقرون تيخس» تفسيرُه السُّورُ الطويل، طولُه مسيرةُ أربعة أيام وبينه وبين القسطنطينية يومان وأكثر هذا البلد ضياعُ الملك والبطارقة، ومروج المواشي.

«بند تراقية» «بند مقدونية» «بند بلبونيسة» تفسير ذلك الجزائر الكثيرة، وقيل البلدان الكثيرة وهو غربيُّ القسطنطينيّة فيه خرقيذية ومثْونَية، وقرنتو، وأثينس وهي مدينة أرسطاطاليس بن نيقوماخس وثاوفرسطس، ودار أرسطاطاليس فيها بيّنة إلى هذا الوقت معروفة معظّمة.

«بند سالونيكة» التي افتتحها لاونُ غُلام زرافة في البحر سنة ٢٩٠ في خلافة المكتفي، وهي مدينة عظيمةٌ بُنيت قبلَ القسطنطينيّة بناها الإسكندر بن فِيلبُّس الملك.

وقد غلبت البرغر وأجناسٌ من الترك بدوٌ يُسمّونَ «الولَندرية» إضافة إلى مدينة في أقاصي ثغور الروم ممّايلي المشرق تُعرف بولندر وهم بجناك ويجنى، وبجغرد ونوكبردة على أكثر هذه البنود الخمسة وذلك بعد العشرين والثلاثمئة وخيّموا هناك، ومنعوا الطريق من القسطنطينية إلى رومية وهو

مسافة نحو أربعين يوماً وأخربوا أكثر ما هناك من العمائر، واتّصلت غاراتُهم بالقسطنطينية فلا وصولَ لِمن في القسطنطينيّة إلى رومية في هذا الوقت إلاّ في البحر، وإنّما العِمارةُ بينهما ممّا يلي القسطنطينية مسيرة أيام كثيرة.

وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» السببَ في انتقال هذه الأجناس الأربعة من الترك عن المشرق وما كان بينهم وبين الغزيّة والخرلُخيّة، والكيماكيّة من الحروب والغارات على البحيرة الجرجانيّة، وإليها يصبُّ نهر جيحون ونهرُ الشاش وفرغانة، وبلاد الفاراب تجري فيها السفن الكبار من بلاد خوارزم إلى بلاد الشاش وغيرها بأنواع التجارات على ما قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب، وليس في المعمور أكبر منها لأنّها مسيرة شهر في مثل ذلك، وقيل: أكثر على ما قدّمنا، وماؤها عذب. ويليها في العِظم بحيرةُ المارزبون بأرض الروم، وسبب مسيرهم إلى هذه الديار. وكان صاحب رومية منقاداً إلى صاحب القسطنطينية مطيعاً له ممتثلاً لأمره لا يلبس تاجاً ولا يتسمّى

بالملك، على ذلك جرت رسومُهم قديماً قبل ظهور الإسلام إلى نحو سنة ٣٤٠ للهجرة، فإنَّ صاحب رومية قَوِيَ أمرُهُ وكثرت جموعهُ، فلبس التاج والثيابَ الفرفيرَ والخفاف الحُمْرَ وغير ذلك مما يختصُّ به ملك الروم وتَسمَّى مَلِكاً.

فلما بلغ قسطنطين بن أليون الملك على الروم في هذا الوقت ذلك أنفذ إليه الجيوشَ فعادت إليه منكوبةً مهزومةً فكاتبه حينئذٍ ورضي منه بالمسالمة.

وقد كان جرى بينهما مصاهرة قبل هذه المنابذة؛ زوَّجَ ملكُ رومية ابنتَهُ بأرمانوس بن قسطنطين وحملها إليه وجهَّزها بأفخر ما تُجهَّز به بناتُ الملوك وأعظمه قدراً، فهلكت عنده.

وسائرُ أجناس الإفرنجيّة من الجلالقة، والجاسقس، والوشكنس وارمانجس، وأكثر الصقالبة والبرغر وغيرهم من الأمم فدائنون بالنَّصْرانيَّة، منقادون إلى صاحب رومية، ورومية دار مملكة الإفرنجية العظمى قديماً وحديثاً.

وقد ذكر ذلك أرسطاطاليس في رسالته إلى الإسكندر التي يحرّضُهُ فيها على المسير لحرب دارا بن دارا ملك فارس فقال «إنَّك أيُّها الملك قد رأيت أمارات الظفر عند

مسيرك أولاً إلى الإفرنجية، فإن مشايخهم الذين كانوا على تخوم بلادهم؛ لَمَّا دَنَوْتَ منهم أسلموا أطرافَ بلادهم، والتجؤوا إلى مدينتهم العُظْمى رومية»

قال المسعوديّ: وكانت مساكن الروم واليونانيين متجاورة كمجاورة سُكّان العراق، وهم النبط، للفرس سكان فارس والأهواز وأرض الجبال من الماهات، وغيرها على ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب الأمم السبع قبل تجيُّل الأجيال وتحزُّب الأمم، إلى أنْ غلبت الرومُ على ديار اليونانيين، وصارَ الجميعُ روماً كغلبة الفُرْسِ على مملكة النبط، غيرَ أنّ كلّ فريقٍ منهم يحفظون أنسابهم، ويرجعون إلى شعوبهم، وقد ذكرنا في أخبار اليونانيين من كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف»، أنّ هذه البنود التسعة التي تلي أرضَ الإسلام في هذا الوقت كانت ديارَ اليونانيين، فإلى وراء الخليج بأيام وكانت ديار الروم ما وراء ذلك إلى وراء بلاد رومية وأرض الإفرنجية براً وبحراً، وذلك نحو من خمسمئة فرسخ إلى أن تتّصل ببحر أوقيانس المحيط

وبلاد الأندلس، وأتينا على أخبار هذه البنود ومقاديرها وما يتّصل منها بالبحر وما لا يتّصل، وما فيها من الحصون العظام والمواني، والبحيرات، والأنهار والهوتات والحمات. وما وطىء منها المسلمون في أيام مغازيهم إلى هذا الوقت المؤرّخ به كتابُنَا وحدودها، وبماذا التنازع في أسمائها، وإلى ماذا أُضيفت، وولاتها، ومراتبها، ومواضعهم، وسِماتهم، ومقادير جيوشهم، ومَنْ يحاربهم من الأمم في البرّ والبحر، وما استرجعوه ممّا كان المسلمون غلبوا عليه من بلادهم؛ كَمَلَطْيَةَ وشِمشَاط، وحصن منصور، وقلعة إبريق التي كانت مدينة البيالقة، وكان بها عِدّةٌ من بطارقتهم منهم قربياس مولى آل طاهر بن الحسين وخرسخارس، وغيرهما. ومدينة سيحان التي يخرج منها العيون التي هي أصل نهر سيحان وهو نهر أذنة من الثغر الشأميّ، وغير ذلك من الثغور الجزريّة، فإلى بلاد قالقيلا، وما يتّصل بذلك من المشرق والشمال كأرمينية وغيرها، والحصون التي عُمِّرتْ ممّا كان المسلمون أخربوه في أول الاسلام ممّا يلي الثغور الشأمية وما غلبت عليه البرغر وبجناك من الترك وغيرهم من الولندرية من ثغور الروم في هذا

الوقت، وخبر السور المسمّى بالرومية «مقرون تيخس» تفسير ذلك: السور الطويل كما ذكرنا آنفاً الحاجز بين بلاد برجان وبين البنود الخمسة التي وراء القسطنطينية المبنيّ في سالف الدّهر بين جبلين عظيمين، وهو دون النهر العظيم المسمّى بالصقلبية «دَنابى» وعرضهُ نحوٌ من ثلاثة أميال على ما قدّمنا ذكره، وعليه كثير من البرغر والصقالبة وغيرهم من الأمم الواغلين في الشمال، وقول من قال: إنه جيحون نهر بلخ على ما ذكرناه فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار أنهار العالم الكبار، ومصبّاتها في البحار وغير ذلك من أخبار الروم وبلادهم.

وإنّما ذكرنا في هذا الكتاب لُمعاً استذكاراً لما تقدّم تصنيفه وتنبيهاً على ما سلف تأليفه، وذكرنا فيما تقدّم من كتبنا سائر الممالك والأمم ومساكنهم وملوكهم وسيرَهم وسياساتهم، وحروبهم ووجوه عباداتهم ممّن سكن المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، كالهند والصين والترك والخزر واللاّن، ومن سكن جبل القبق من اللكز، ومن جاور الباب

والأبواب وقرب من هذا الجبل من الأمم كاللاّن والسرير والخزر وجرزان والأبخاز والصناريّة وكشك والكاسكيّة وغيرهم والأبر وبرجان والروس والبرغر والإفرنجة والصّقالبة وأجناس السودان مع اختلاف ديارهم وبنائهم وتباينهم في مساكنهم، ولُغاتهم وأخبار مصر والإسكندرية، وملوكها ونيلها وما عليه من ممالك الكوشانيّين وهم ولد حام بن نوح وأخبار الكلدانيّين وهم السريانيّون المسمّون النبط، وأخبار بني إسرائيل وأنبيائهم وملوكهم ورؤسائهم وقُوّامهم، والأربعة والعشرين كتاباً التي تجتمع اليهودُ والنصارى عليها، وتسمّيها اليهودُ الكتبَ الجامعة، والنّصارى كتب الصورة -والصورة القديمة اثنا عشر منها صغارٌ واثنا عشر كبارٌ، وتُسمّى أيضاً كتبَ الأنبياء منها: التوراةُ خمسةُ أسفار، وليس تقرأ النصارى في الكنائس من التوراة إلاّ السفر الأول وهو الخليقة، وغير ذلك ممّا تقدّم عنها وتأخّر.

وأخبار العرب البائدة كعاد وعَبِيل ابني عوص بن أرم ابن سام بن نوح، وثمود وجديس ابني عابر بن أرم بن سام،

وعِمْليق وطَسْم ابني لاود بن ارم بن سام بن نوح، ووبار بن أميم بن لاود بن أرم بن سام بن نوح، وجُرْهُم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام، وعبد بن ضخم بن عبس ابن هرم بن عابر بن أرم بن سام، وغيرهم وتفرّقهم عن أرض العراق بعد تَبَلْبُلِ الألسن، وما كان من قضية المجدل، وما ارتَجزَ به كلُّ فريقٍ منهم، وأخبار العرب الباقية من مَعَدٍّ وقحطان، وأنسابهم، وأخبار ملوكهم، وأخبار ملوك حمير من التّبابعة وغيرهم والتنازع في كمية أعدادهم، ومن قال إنّهم سبعون تُبّعاً، واستشهد بقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، أو النعمان بن بشير الأنصاريّين:

لنا من بني قحطانَ سبعون تُبّعاً

أقرّتْ لها بالخرج مِنْها الأعاجِمُ

وقول مَنْ قال أقلّ من ذلك وأكثر والسبب الذي به سُمُّوا التّبابعة، ومن قال: إن هذه السِّمة لم يكن يستحقُّها منهم إلاّ من مَلَك اليمن وحضرموت، واجتمعت له طاعتهم، ومن رأى أنه إنّما قيلَ للملك منهم تُبّع تشبيهاً بالظلّ الذي

يُتَفَيَّأ به، وأنَّ التُبَّع في أصلِ اللغة الظِّلُّ، إذْ كان الملوكُ السُّعداء ظلاًّ لرعيتّهم، وكهفاً لها وملجأً، واستشهادهم بقول ليلى الجهنيَّة، وقيل قول سُعدى الجهنيَّة:

يَرِدُ المياهَ حَضيرةً ونَفيضةً

وِرْدَ القطاةِ إذا أسمألَّ التُّبَّعُ(١)

يعني: ارتفع الظل. وقيل لمعانٍ غير ذلك، ومَنْ سار منهم في البلاد ووطىء الممالك، ووصاياهم وعهودهم وحكمهم ومغازيهم من لَدُنْ حمير، وهو العرَنْجَجَ ويُسمَّى أيضاً زيد بن سبأ وهو عبد شمس، إلى زوال نظامهم، وانقضاء ملكهم بغلبة الحبشة عليهم والتنازع في مُدَّة ما ملكوا من السنين من مُكْثِرٍ ومُقَلِّل.

وأقلّ ما قيل في مدَّة مُلْكهم ما حكاه محمدُ بن موسى الخوارزميّ في زيجه في النجوم وغيره أنّ ذلك ألف وتسعمئة سنة وثمان وثلاثون سنة.

---

(١) - البيت يروى لسلمى الجهنيّة: حضيرة، ونفيضة: الجماعة يبعثون في الأرض لينظروا هل فيها عدوّ أم لا. تعني: إذا قصر الظل في منتصف النهار.

ومَنْ تلاهم من ذوي المراتب الملوكيَّة كالأقيال، والأذواء، والمثامنة والعباهلة، وغيرهم، وقيل: إنَّ الأذواء لم تكن مرتَّبة، وإنَّما هي سمات لملوكهم، وذي كلاع، وذي أصبح، وغيرهم.

ومَنْ ملَّكته الرومُ من اليمن بالشأم مِنْ تَنُوخ والضَّجاعم من سليخ بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة وغسان استكفاءً بهم مَنْ يليهم من بادية العرب. أوَّلُهم جفنةُ بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وآخرهم جبَلَةُ بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن حجر بن النعمان بن الحارث بن الأيهم بن الحارث ابن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الذي لَحِقَ بالروم بعد فتوح الشأم.

ومَنْ ملَّكتْهُ الفرسُ بالحيرة من أرض العراق من بني نَصْر ابن لخم من النَّعامنة والمناذرة وهو ولد عمرو بن عديّ بن نصر ابن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم واسمه مالك بن عديّ بن الحارث بن مُرَّة بن أدد

ابن زيد بن كهلان لتكفو بهم من يليهم من بوادي العرب أيضاً وآخرهم النعمان بن المنذر الذي قتله كسرى أبرويز.

وملك الحيرة بعده إياس بن قبيصة الطائيّ، وغيره إلى أن جاء الله بالإسلام.

وكان عِدّةٌ من ملك الحيرة من بني نصر، والعباد، وغسان وتميم وكِنْدة، والفرس وغيرهم نيِّفاً وعشرين ملكاً ملكوا خمسمئة سنة واثنتين وعشرين سنة وشهوراً، وعمرو بن عديّ هو صاحب المثل السائر «كَبُرَ عمرو عن الطَّوق» وهو ابن أخت جَذِيمة الأبرش الذي قتلته الزبّاء بنت عمرو بن الظرب.

وَجَذيمةُ صاحبُ النديمين الذّين يُضرَبُ بهما المثلُ، وفيهما قال مُتَمِّمُ بنُ نويرة اليربوعيّ في مرثيتّه أخاه مالكَ بنَ نُويرة:

وكُنَّا كَنَدْمانَي جَذِيمةَ حِقْبَةً
من الدَّهرِ حتّى قِيلَ لَنْ يَتَصدَّعا
فَلمَّا تفرَّقْنا كأنيّ ومالكاً
لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعَا

ومَنْ ملَكَ من كنْدةَ على معَدٍّ وغيرها، أولهم معاوية بن ثور بن مرتع، وهو من كندة وآخرهم حُجْر بن الحارث بن عمرو أبو امرئ القيس بن حجر، وهو الذي قتله بنو أسد بن خزيمة، وأخبار ولد نزار بن معدّ بن عدنان بن أد بن أدد ابن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم -ربيعة ومضر وهما الصَّريحان من ولد إسماعيل بن إبراهيم- وإياد وانمار مع تنازع النُسَّاب فيهما، من اليمن هم أم من نزار؟ واستشهاد من ألحق إياداً بنزار بقول أبي دؤاد جُوَيْرِية بن الحجّاج الإياديّ:

وفُتُوٍّ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ ... مِن إيادِ بنِ نزارِ بنِ مَعَدْ

وبقول الكُميت بنِ زيدٍ الأسديّ:

إيادٌ حين تُنْسَبُ من مَعَدٍّ ... وإنْ رغَمتْ أنوف الرّاغمينا
وكانوا في الذُّؤابةِ من نزارٍ ... وأهلَ لوائها مترزِّنينا[1]

(١) - ترزّن في الأمر: توقّر.

وقول نُسَّاب اليمانيّة إنّه إياد بن أحاظة بن سعد من حمير، واستشهاد من أَلحقَ أنماراً بنزار بقول الكُمَيت أيضاً:

وأَنمارٌ وإنْ رَغِمَتْ أُنوفٌ

مَعَدِّيُّو العُمومةِ والخُؤُولِ

لهم لغةٌ تُبيِّنُ مِنْ أَبيهم

مع الغُرِّ الشوادخِ ذي الحُجُولِ

وقولُ اليمن إنَّه أنمار بن أراش بن الغوث وهو الأزد بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان، وأنَّه ولد له سبعةٌ من الذكور فخمسة منهم يُدْعَون بجيلة، وواحدٌ يُدعى خثعماً، وواحدٌ يُنْسَب والده إلى الأزد.

وسببُ تَفَرُّقِ هذه القبائل وغيرها من مَعَدٍّ عن الحجاز، وما قالته نُسَّابُ القحطانيَّة فيمن تَخَلَّج وتنقَّلَ عن قبائلهم إلى معدٍّ وانتسبوا فيهم فيهم، وما قالته نُسَّابُ المعدِّيَّة فيمن تَخَلَّج أيضاً، وتنقل عن قبائلهم إلى قحطان.

والسببُ الذي لأجله انقادت القحطانيَّةُ إلى تمليك عليها، وأبت المعدِّيَّةُ ذلك، إلى أن جاء اللّهُ بالإسلام، ولمَ

سَمَّت القحطانيّةُ أنفسها، ومَنْ تقدَّمها من العرب البائدة العربَ العاربة، وسموا مَعَدّاً العربَ المتعرّبة، وغير دلك من فنون الأخبار وضروب السِّيَرَ والآثار، على الشرح والإيضاح.

قال المسعوديّ: فإذْ ذكرنا اليونانيّين وملوكَهم وغلبةَ الروم عليهم، ودخولهم في جملتهم، وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء والمتنصِّرة قبل ظهور الإسلام، وبعده إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ فلنذكر الآن ما كان من الأفدية والهُدَنِ بين الرّوم والعرب في أيّام ولَد العبّاس إذْ لم يكن في أيام بني أمية فداءٌ معروفٌ مشهورٌ فنذكره، بل كان يُفَادَى بالنّفر بعد النفر في سواحل الشأم ومصر والإسكندرية وبلاد مَلَطْيةَ وغيرها من الثغور الجزريّة، إذْ كانت أمويّةً، والثغورَ الشأميّة عباسيّة.

* * *

ذكر الأفدية بين المسلمين والروم

الفداءُ الأَوَّلُ: فداءُ أبي سُلَيم كان أوَّل فداء جرى في أيام ولَد العباس في خلافة الرشيد باللاَّمس من ساحل البحر الرومي على نحوٍ من خمسة وثلاثين ميلاً من طرسوس سنة ١٨٩ والملك على الروم نقفور بن استبراق يقال: إنَّه فُودِيَ بكلِّ أسيرٍ كان بأرض الروم من ذكرٍ وأنثى فيما ظهر، وذلك على يدِ القاسم بن الرشيد وباسمه، وهو مُعَسكر بمرجِ دابق من بلاد قِنَّسرين من أعمال حلب وفيه قيل:

يا أيُّها النَّفر الغُزا ةُ النَّازلون بمرجِ دابِقْ
إنِّي لَغازٍ لو تُركْـ تُ إلى حبيبٍ لي مُوافِقْ

حضر هذا الفداء وقام به أبو سُلَيم فَرَجٌ خادمُ الرشيد المتولِّي له بناء طرسوس في سنة ١٧١ للهجرة وسالم البربريّ مولى بني العباس في ثلاثين ألفاً من المرتزقة، وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار وغيرهم نحوٌ من خمسمئة ألف، وقيل أكثر من ذلك بأحسن مايكون من العُدَد والخيل

والسِّلاح والقوّة، قد أخذوا السَّهل والجبل وضاق بهم الفضاء. وحضر موت مراكبُ الروم الحربيَّة بأحسنَ مايكون من الزِّيّ، ومعهم أسارى المسلمين، وكان عِدَّةُ من فُودِيَ به من المسلمين في اثني عشر يوماً ثلاثة آلاف وسبعمئة وقيل: أكثر من ذلك وأقل. والمقامُ باللامس نحوٌ من أربعين يوماً قبل الأيام التي وقع فيها الفداءُ وبعدها. وإنما نذكر في كل فداء يرد فيما بعد هذا الفداء الأيام التي وقع فيها الفداء لا مدَّةَ مقامِ الناس باللاَّمس، إذْ كان يطولُ ويقصرُ.

وفي هذا الفداء يقول مروانُ بنُ أبي حفصة في كلمةٍ له طويلة يمدحُ بها الرشيد:

وفُكَّتْ بك الأسرى التّي شيُّدتْ لها
محابُس ما فيها حَميمٌ يَزورُها
على حينَ أعيا المسلمينَ فكاكها
وقالوا سجُونُ المشركين قبُورُها

الفداء الثاني: فداءُ ثابتٍ في خلافة الرشيد أيضاً باللاَّمس في سنة ١٩٢، والملك على الروم نقفور بن استبراق أيضاً، وكان القيمٌ به ثابتُ بنُ نصر بن مالك الخزاعيّ أميرُ الثغور والشأميَّة، حضره مئو ألوف من الناس، وكان عِدَّةُ من

فُودِيَ به من المسلمين في سبعة أيام ألفين و خمسمئة ونيّفاً من ذكرٍ وأنثى.

الفداء الثالث: فداءُ خاقان في خلافة الواثق باللاّمس في المحرَّم سنة ٢٣١ والملك على الروم ميخائيل بن توفيل، وكان القيم به خاقانُ الخادمُ التركيّ، وعِدّةُ من فُودِيَ به من المسلمين في عَشَرة أيام أربعةُ آلاف وثلاثمئة واثنين وستين من ذكر وأنثى، وقيل أربعةُ آلافٍ وسبعة وأربعين على ما في كتب الصوّائف، وقيل أقلّ من ذلك.

وفي هذا الفداء أُخرِجَ أهلُ زِبَطْرة، وفيه خرج مُسلمُ بن أبي مُسْلم الجرميّ، وكان ذا محلٍّ في الثغور ومعرفةٍ بأهل الروم وأرضها، وله مصنَّفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم، وبلادهم وطرقها ومسالكها، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها، ومَنْ جاورهم من الممالك من برجان والأبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم.

وحضر هذا الفداء مع خاقان رجلٌ يُكَنّى أبا رَمْلةَ، مِنْ قبل أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة يَمتحِنُ الأسارى وقتَ المفاداة، فَمَنْ قال منهم بخلْقِ التلاوة، ونَفْى الرؤية فُودِيَ به وأُحسِنَ إليه، ومن أبى تُرِكَ بأرضِ الروم، فاختار جماعةٌ من

الأسارى الرجوع إلى أرض النّصرانيّة على القول بذلك؛ وأبى مُسْلم الانقيادَ إلى ذلك، فنالته مِحَنٌ ومَهانةٌ إلى أن تخلّص.

الفداء الرابع: فداء شُنَيف في خلافة المتوكّل باللاّمس في شوّال سنة ٢٤١ والملك على الرّوم ميخائيل بن توفيل، وكان القيّمُ به شنيف الخادم مولاه، وحضر جعفر بن عبد الواحد الهاشميّ القرشيّ القاضي، وعلي بن يحيى الأرمنيّ صاحب الثغور الشأميّة.

فكان عِدّةُ من فُودِيَ به من المسلمين في سبعة أيام ألفين ومئتي رجل، وقيل ألفي رجل ومئتي إمرأة، وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مئة رجل ونيّف فَعوّضوا مكانهم عِدّةَ أعلاجٍ، إذ كان الفداء لا يقع على نصرانيّ ولا ينعقد.

الفداء الخامس: فداءُ نصر بن الأزهر وعلي بن يحيى في خلافة المتوكلِ أيضاً باللاّمس مستهل صفر سنة ٢٤٦ والملك على الروم ميخائيل بن توفيل أيضاً.

وكان القيّمُ به عليُّ بن يحيى الإرمنيّ أمير الثغور الشأميّة ونصر بن الأزهر الطائيّ الشيعيّ، من شيعة ولد العباس المراسل إلى الملك في أمر هذا الفداء من قَبِل المتوكل.

وعِدَّةُ من فُودِي به من المسلمين في سبعة أيام ألفان وثلاثمئة وسبعة وستون من ذكر وأنثى.

وقد ذكر بعضُ من لحقنا أيَّامَهُ من مصنِّفي الكتب في الكوائن والأحداث، والسير والتواريخ أنَّ فِداءً كان في أيام المعتز، والملك على الروم بسيلُ على يدِ شفيعِ الخادمِ في سنة ٢٥٣

الفداءُ السادس: فداءُ ابن طُغَان في خلافة المعتضد باللأمس في شعبان سنة ٢٨٣ والملك على الروم أليون بن بسيل أبو قسطنطين بن أليون الملك على الروم في وقتنا هذا.

وكان القيّم به أحمد بن طُغان أمير الثغور الشأميّة وأنطاكية من قبل أبي الجيش خُمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر وأجناد الشأم وديار مُضر وغيرها.

وكانت الهدنةُ لهذا الفداء وقعت في أيام أبي الجيش في سنة٢٨٢ فَقُتِل أبو الجيش بدمشق في ذي القعدة من هذه السنة، وتمّ الفداءُ في أيام ولده جيش ابن خُمارويه فكان عِدَّةُ من فُودِيَ به من المسلمبن في عشرة أيام ألفين وإربعمئة وخمسة وتسعين من ذكر وأنثى، وقيل ثلاثة آلاف رجل.

الفداء السابع: فداءُ رُسْتم ويعرف بفداء الغدر في خلافة المكتفي باللاَّمس في ذي القعدة سنة ٢٩٢، والملك على الروم أليون بن بسيل أيضاً، والقيِّمُ به رستم بن بردو الفرغاني ّأمير الثغور الشامية، وكان عِدَّةُ من فُودِي به من المسلمين في إربعة أيام ألفا ومئة وخمسة وخمسين من ذكرٍ وأنثى، ثم غَدر الروم وانصرفوا ببقية الأسارى.

الفداء الثامن: فداءُ رُسْتمُ أيضاً ويعرف بفداء التمام في خلافة المكتفي أيضاً باللاَّمس في شوال سنة ٢٩٥ والملك على الروم أليون أيضاً -القيَّمُ به رستم بن بردو، وكان عِدَّةُ من فُودِيَ به من المسلمين ألفين وثمانمئة واثنين وأربعين من ذكرٍ وأنثى.

الفداء التاسع: فداءُ مؤنس في خلافة المقتدر باللاَّمس في شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٠ والملكان على الروم: قسطنطينُ ابنُ أليون ملكهم في وقتنا هذا، وأرمانوس. وقسطنطين يؤمئذ صغير في حجره، وكان القيم ّبه مؤنسَ الخادم وبشر الخادم الأفشيني أمير الثغور الشأمية وأنطاكية، والمتوسّط له، والمعارف عليه أبو عُمير عديّ بن أحمد بن عبد الباقي التميميّ الأذنيّ، وعِدَّةُ من فُودِي به من المسلمين في ثمانية أيام ثلاثة آلاف وثلاثمئة وستة وثلاثون من ذكر وأنثى.

الفداء العاشر: فداءُ مُفلح في خلافة المقتدر أيضاً باللأمس في رجب سنة ٣١٣ والملكان على الروم قسطنطين، وأرمانوس.

وكان القيّم به مُفلح الخادم الأسود المقتدريّ وبشرى خليفة ثمل الخادم الدُلَفي على الثغور الشأمية، وعِدّةُ مَنْ فُودِي به من المسلمين في تسعة عشر يوماً ثلاثة آلاف وتسعمئة وثلاثة وثمانون من ذكر وأنثى.

الفداء الحادي عشر: فداءُ ابن ورقاء في خلافة الراضي باللامس في سلخ ذي العقدة وأيام من ذي الحجة سنة ٣٢٦ والملكان على الروم قسطنطين وأرمانوس.

وكان القيّم به ابن ورقاء الشّيبانيّ من قِبَل الوزير الفضل ابن جعفر بن الفرات وبشرى الثمليّ أمير الثغور الشأمية.

وكان عدّةُ من فُودي به من المسلمين في ستة عشر يوماً ستة آلاف وثلاثمئة ونيِّفاً من ذكر وأنثى، وفضلَ في أيدي الروم من المسلمين ثمانمئة رجلٍ رُدُّوا وفُودِيَ بهم على نهر البدنَدُون في مرارٍ شتى، وزيد في الهدنة بعد انقضاء الفداء مُدَّة ستة أشهر، لأجْلِ من تَخلَّف في أيدي الروم من المسلمين، حتى جمع الأسارى لهم.

الفداء الثاني عشر: فداءُ ابن حمدان في خلافة المطيع باللاَّمس في شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥ والملك على الروم قسطنطين.

وكان القيّم به نصر الثمليّ أمير الثغور الشأميّة من قِبل أبي الحسن علي بن عبد اللّه بن حمدان صاحب جند حمص وجند قنَّسرين وديار مُضَر وديار بكر والثغور الشأميَّة والجزريَّة.

وكان عِدَّةُ من فُودي به من المسلمين ألفين وأربعمئة واثنين وثمانين من ذكر وأنثى وفَضَلَ للروم على المسلمين قرضاً مئتان وثلاثون، لكثرة مَنْ كان في أيديهم، فوفَّاهم أبو الحسن ذلك وحمله إليهم.

وكان الذي شرع في هذا الفداء وابتدأ به الإخشيذ مُحمَّد بن طُغْج أميرُ مصر والشأم والثغور الشأمية، وكان أبو عُمير عديُّ بنُ أحمد بن عبد الباقي الأذَنيّ شيخُ الثغر، والمنظور إليه منهم قَدِم إليه إلى دمشق في ذي الحجة سنة ٣٣٤ ونحن يومئذٍ بها ومعه يوانسُ الأنسيبطوس البطريقوس المسدقوس المترهّب، رسول ملك الروم في إتمام هذا الفداء، وكان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم، ومَنْ كان في أعصارهم من الفلاسفة، وقد أشرف على شيءٍ من آرائهم.

والإخشيذ حينئذٍ شديد العلّة فتُوفي يوم الجمعة لثمان خلَونَ من ذي الحجة من هذه السنة وسار أبو المسك كافور الإخشيذي بالجيش راجعاً إلى مصر، وحمل معه أبا عُمير والمسدقوس إلى بلاد فلسطين، فدفع إليهما ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء، وصارا إلى مدينة صور، فركبا في البحر إلى« طرسوس، فإلى ما وصلا[1] إليها كاتب بشرى الثمليّ أميرُ الثغور الشأمية أبا الحسن بنَ حمدان، ودعا له على منابر الثغور الشأمية، فجدّ في إتمام هذا الفداء فَعُرِفَ به ونُسِبَ إليه.

قال المسعودي: وهذا آخر فداء كان بين المسلمين والروم إلى وقتنا المؤرّخ به كتابنا، وقد ذكرتُ أفديةً غيرَ هذه لم نجدْ لها حقيقة؛ لا اشتهر أمرُها، ولا استفاض خبَرُها.

منها فداءٌ كان في أيام المهديّ على يد المعروف بالنقّاش الأنطاكيّ، ومنها فداءٌ كان في أيام الرشيد في شوال سنة ١٨١ على يد عِياض بن سنان أمير الثغور الشأمية، وفداءٌ كان على يدِ ثابت بن نصر في أيام الأمين في ذي القعدة سنة ١٩٤، وفداءٌ كان في أيام المأمون في ذي القعدة سنة ٢٠١ على يدِ ثابت أيضاً، وفداءٌ كان في أيام المتوكّل سنة ٢٤٧ على يد

(١) - في إحدى النسخ فلمّا وصلا، وبها يستقيم سياق الجملة.

محمد بن علي، وفداءٌ كان في أيام المعتمد في شهر رمضان سنة ٢٥٨ على يد شفيع ومحمد بن عليّ.

والصحيحُ منها والمعوَّل عليه هو ما رسمناه دون ما عداه وقد ذكرنا في كتاب «فنون المعارف، وما جرى في الدهور السوالف» وفي كتاب «الاستذكار، لما جرى في سالف الأعصار» شرح هذه الأفدية ومَنْ حضرها وكيفيَّة وقوعها ومن ترسَّل فيها وتوسَّطها بين المسلمين والروم وشروطها ومقادير النفقات فيها، وهدنها وما كان بين المسلمين والروم من المغازي في البر والبحر من الصوائف والشواتي والربيعيّات وما جرى بين الروم وبرجان والبرغر والترك وغيرهم من الوقائع المشهورة والحروب المذكورة، وغير ذلك.

فلنذكرِ الآن جامعَ تاريخِ العالم والأنبياء والملوك وما اتَّصل بذلك.